

# مختصر دراسة للتاريخ

الجزء الرابع

أرنولد توينبي

ترجمة: فؤاد محمد شبل



المركز القومي للترجمة  
تأسس في أكتوبر سنة ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة ميراث الترجمة  
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1717
- مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الرابع)
- أرنولد توينبى
- فؤاد محمد شبل
- وأحمد عزت عبد الكريم
- عبادة كحيلية
- 2011

هذه ترجمة كتاب:

A Study of History (Vol. IV)

By: Arnold J. Toynbee

---

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Galalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: [egyptcouncil@yahoo.com](mailto:egyptcouncil@yahoo.com)

Tel: 27354524- 27354526

Fax: 27354554

# مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الرابع)

تأليف : أرنولد توينبي  
ترجمة : فؤاد محمد شبل  
مراجعة : أحمد عزت عبد الكريم  
تقديم هذه الطبعة : عبادة كحيلة



2011

بطاقة الفهرسة  
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشؤون الفنية

توينبى، أرنولد، ١٨٨٩ - ١٩٧٥

مختصر دراسة للتاريخ (الجزء الرابع) / تأليف: أرنولد توينبى،  
ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: أحمد عزت عبد الكريم.

القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١

٣٢٨ ص، ٢٤ سم

١- التاريخ

(أ) شبل، فؤاد محمد (مترجم)

(ب) عبد الكريم، أحمد عزت (مراجع)

(ج) العنوان

٩٠٧،٢

رقم الإيداع ٤٩٧٠ / ٢٠١١

الترقيم الدولى : 8-486-704-977-978

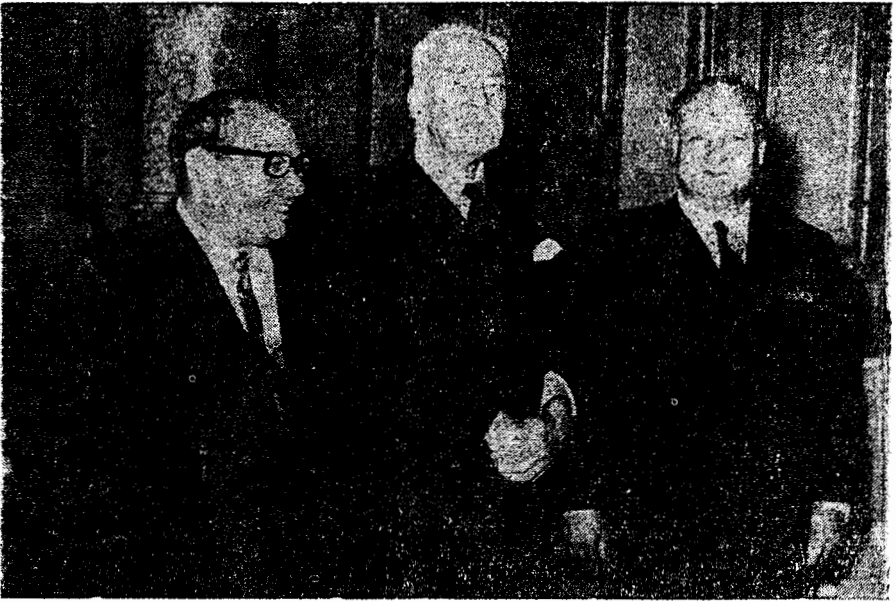
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

صورة تذكارية

١٨ أبريل ١٩٦٤

(القاهرة)



في الوسط : الأستاذ آرنولد توينبي مؤلف الكتاب  
وإلى يمينه الدكتور أحمد عزت عبد الكريم مراجع الترجمة  
وإلى يساره الأستاذ فؤاد محمد شبل مترجم الكتاب

## للمترجم

---

- ١ - تقرير غرفة الإسكندرية التجارية عن الأحوال الاقتصادية لمصر والعالم ١٩٣٦ / ١٩٣٧
- ٢ - النظام المالى فى الإسلام
- ٣ - عصب الحرب
- ٤ - الدستور السوفيتى - دراسة تحليلية انتقادية (رسالة جامعية)
- ٥ - المدينة الفاضلة - بحث فى النظام الاقتصادى والاجتماعى عند الكتاب المثاليين
- ٦ - السياسات الاقتصادية الدولية
- ٧ - دراسات فى اقتصاديات القارة الإفريقية
- ٨ - ترجمة كتاب مختصر دراسة للتاريخ للأستاذ توينبى - ترجمة (أربعة أجزاء)

## مُتَدِمَةٌ

### فلسفة التاريخ عند توينبي

أمضى العلامة « أرنولد توينبي » أربعين عاماً في تأليف موسوعته العظيمة « دراسة للتاريخ ». إذ شرع يعمل فيها عام ١٩٢١ وانتهى منها عام ١٩٦١ .

ففي عام ١٩٣٤ نشر الأستاذ توينبي الأجزاء الثلاثة الأولى ، وأتبعها عام ١٩٣٩ بالأجزاء الثلاثة التالية . ثم نشر عام ١٩٥٤ الأجزاء الأربعة الباقية . وكان أغلب الظن أن تنتهي دراسته عند هذا القدر ؛ لولا توالى التعليقات والانتقادات ، فحفزته إلى إصدار الجزء الحادى عشر ويضم خرائط تاريخية . ثم نشر الجزء الثانى عشر عام ١٩٦١ ، يرد فيه على نقّاده ويوضح الكثير من النقاط التى غابت عليهم ، كما يصحح طائفة من الوقائع التى وردت فى أجزاء مؤلفه الماضية على ضوء الكشوف الأثرية الحديثة والتطورات الدولية .

ولست الدراسة التاريخية الواضحة المعالم عند توينبي ، هى الأمم أو العصور ، لكنها المجتمعات ؛ أو بالأحرى الحضارات . وقد قسمتها إلى إحدى وعشرين حضارة ، لم يتبق منها سوى خمس هى : المسيحية الغربية ، والمسيحية الأرثوذكسية ، والإسلامية ، والهندية ، وحضارة لشرق الأقصى . وتضاف إليها مخلّقات المجتمعات المتحجّرة الغير المعينة الشخصية ؛ مثل حضارة اليهود والبارسين .

لكن الحضارات الخمس القائمة فى الوقت الحاضر تنسب إلى حضارات أقدم منها . من ذلك :

اتصال حضارة المسيحية الغربية ( أى حضارة البلاد التى اعتنقت اللوز  
الغربي من المسيحية - الكاثوليكية والبروتستانتية ، وحضارة المسيحية  
الأرثوذكسية ) أى حضارة البلاد التى اعتنقت المذهب الأرثوذكسى من  
المسيحية - بلاد البلقان وروسيا ) بصلة النبوة بالمجتمع المثلثى ( أى  
اليونانى ) ، الذى يتسبب بدوره إلى المجتمع المينوى ( مركزه كريت ) .

وإذا تتبعنا المجتمع الإسلامى إلى أصوله ، نجد أنه حصيلة اندماج  
مجتمعين كانا متأثرين فى الأصل هما : الإيراني والعربي . وباقتفاء أثر هذين  
المجتمعين نجد وراءهما مجتمعاً مندروساً يدعى المجتمع السورى ، الذى تفرع  
بدوره عن المجتمع السورى .

ويذكر المؤلف عن المجتمع المصرى أنه مجتمع فذ للغاية ، إنبعث فى  
الجزء الأسفل من وادى النيل فى غضون الألف سنة الرابعة قبل الميلاد ،  
وانقضى فى القرن الخامس الميلادى ، بعد أن ظل باقياً - من بدئه إلى  
نهائيه - ثلاثة أمثال عمر المجتمع العربى منذ قيامه حتى الآن . ولم يكن  
للمجتمع المصرى آباء ولم يخلف ذرية ، ولا يجوز لأى مجتمع حالى أن يدعى  
الانتماء إليه . وهذا مما يزيد من شأن اقتضار فكرة الخلود التى رنا إليها  
المجتمع المصرى وحققتها على النصحح . وإن الأهرام - كما يقرر الأستاذ  
المؤلف - ما تنفذ تحمل منذ خمسة آلاف سنة ، اللبيل الصامت على وجود  
منشأها ، ويتوقع بقاؤها مئات آلاف أخرى من السنوات القادمة بعد  
نهاية أصحابها . ولا يستبعد - كما يتوقع الأستاذ توينبى - أن تتل حتى  
بعد لنا الإنسان نفسه .

ويرى الأستاذ توينبى أن للأحداث التاريخية جانبين : مادى وروحانى ،  
وهنا يفرق عن غيره من المؤرخين الذين إما يقتصرون على سرد  
الأحداث التاريخية دون استقصاء دوافعها ، وإما يفسرونها تفسيراً مادياً  
مطلقاً يفعل فلاسفة الاشتراكية الذين ابتكروا فلسفة التفسير المادى للتاريخ .



ومدار هذه الفلسفة ؛ تفسير الأحداث التاريخية وسير الأجيال من حروب  
ومجاعات وقيام دول وفنائها ، ونشوء عروش وسقوطها . . . تفسيراً  
مستنداً إلى العوامل الاقتصادية المجردة . فكان أن جرّتهم هذه النظرة في  
تفسير التاريخ ، إلى إستخلاص مبدأ الصراع الطبقي الذي يعتبرونه نذير  
للثورة الاجتماعية .

وعلى أساس التلميحين المادية والروحانية يعرض توينبي لبيدات  
الحضارات وارتقاعاتها وأسبابها . . الخ .

### ١ - بيدات الحضارات

لا يتبل المؤلف الفكرة القائلة بوجود حضارة واحدة هي الحضارة  
الغربية . كما يدحض نظريته إستطارة الحضارة القائلة بأن مصر هي أصل  
جميع الحضارات . وعنده أن من بين المجتمعات الحضارية الإحدى  
والعشرين ؛ ثمة خمس عشرة حضارة تتصل بصلة البنية بحضارات  
سابقة . لكن ثمة ستة مجتمعات فقط قد البعثت مباشرة من الحياة البدائية ؛  
تلك هي :

المصرية - السومرية - المينوية - الصينية - المايانية - الأنديانية ؛  
(والأخيرتان نشأتا بأميركا الجنوبية) .

ولا يمكن أن يُعزى قيام الحضارات إلى صفات مُعيّنة في جنس من  
الأجناس ، إذ لا يمكن أن يرتبط الترقى الروحي والذهني بفوق البشرية .  
فالواقع أن جميع الأجناس قد ساهمت في إنبعاث الحضارة .

وتداعي بالمثل النظرية القائلة بأن توافر ميزات خاصة في بيئة ، يكفل  
إنبعاث الحضارة فيها . فهل تعتبر مثلاً - البيئة الخاصة التي أتاحها النيل  
لمصر ، ميزة إيجابية ؛ إليها وحدها ، يُعزى بدء الحضارة المصرية ؟ هنا

تصمد النظرية للاختبار في منطقة مجاورة تتوافر فيها الشروط المطلوبة . تلك هي المنطقة الدلتا من وادي دجلة والفرات ، إذ نجد ظروفاً طبيعية ماثلة ومجتمعاً مثلاً هو المجتمع السومري : لكن النظرية تنهار في وادي أصغر ، وإن كان مشابهاً هو وادي الأردن الذي لم يكن يوماً مركزاً لأية حضارة ، ولعلها تنهار كذلك في وادي السند ، كما تنهار تماماً في وادي نهر نيوجراند في وادي نهر كالورادو .

وبالأحرى ، لا يمكن إعتبار البيئه هي العامل الإيجابي الذي جلب الحضارات إلى الوجود ، وإن كان بلا ريب عاملاً عظيمًا له خطره في التشكيل الثقافي ، إذ ما يزال هناك عامل لا يمكن تحديده : هو — على ما يظهر — سيكولوجي في طبيعته ، وهو أهم عوامل إنعاش الحضارات أهمية وأشدّها ارتباطاً بالنقباء والقطر :

هنا يلتجئ توينبي إلى إستعراض الأساطير الكبرى التي أودعها الجنس البشري حكمته ، كما يلتجئ إلى الأديان . فاستخلص فكرة مدارها أن الإنسان قد حقق الحضارة : لا نتيجة مواهب بيولوجية عظمى ( أي التفوق العنصري ) : أو ثروة بيئه جغرافية ، ولكنه حققها إستجابة لتحدي موقف ذي صعوبة خاصة ، استثار الإنسان لبذل جهدهما ، لم يبدله من قبل . وأبرز مثال يظالعهنا في هذا الشأن ، إنعاش الحضارة المصرية . فلقد كان السهب الأفراسي ( الصحراء الكبرى والصحراء العربية ) قبل فجر الحضارة ، أرض رعي عامرة بالمياه . وطالع الجفاف التطويل المتتالي هذه المراعي ، فجابه سكانها بتحدٍّ ، استجابوا له بطرائق مختلفة :

تمسك البعض بأرضهم وغيروا عاداتهم : فابتكروا نمط الحياة البدوية . ونقل آخرون مواظهم صوب الجنوب إلى المناطق الاستوائية : متبعين أثر المراعي المرتدة ؟ فاحتفظوا — من ثم — بطريقة حياتهم اليدائية التي

ما يزالون يعيشونها حتى الآن . وهم القبائل النيلية ( الشيلوك والدينكا والتوير ) ،  
وآخرون ويلجأوا مستنقعات وغابات دلتا النيل ؛ فجاهاوا بذلك التحدى  
الذى تمثله . وعملوا على تجفيفها ؛ فكان أن أقاموا الحضارة المصرية :

وهكذا ، يكمن تفسير بدايات الحضارات في الفرض القائل بأن  
الأحوال الصعبة — أكثر من السهلة — هي التي تولد هذه الأعمال الخجيدة ؛  
ولا تقتصر هذه الفكرة على البيئة المادية ، بل تجاوزها إلى البيئة البشرية .  
وتجد البيئة المبتدعة في كل حالة ، هي التي لقيت صعوبات مادية أو بشرية .  
فالأرض البكر تبرز استجابات أشد حيوية ، عن الأرض التي سبق  
اقتحامها بالفعل وشغلها مقيمون متحضرون ، فيسروا المعيشة فيها . كما  
أن الهزيمة الساحقة النهائية ، كفضلة باستئثار الجانب المهزوم لترتيب  
نظام داره ، والاستعداد لتحقيق إستجابة متصرة . ويبدى استقراره  
التاريخ أن الشعوب التي تشغل مواقع حدود وتعرض لعدوان متسل ،  
تُظهر استجابة أشد إشراقاً من جيرانها أصحاب المواقع الخسبة . وتستجيب .  
بصفة عامة — الشعوب والطوائف التي أصابها النقم ، لتحدى الحرمان من  
المشاركة في فرص ومزايا معينة ؛ بإبراز طاقة استثنائية وإظهار أهلية غير  
عادية في الاتجاهات المتوقعة أمامها . ومثلها في هذا الشأن ، مثل الأعمى  
الذى تقوى لديه حاسة السمع ، قوة خارقة .

## ٢ — ارتقاء الحضارات

يحدث الارتقاء — وفقاً لرأى الأستاذ توينبي — وقتها تصبح الاستجابة  
لتحدٍ معين ؛ لا ناجحة في نفسها فحسب ، لكنها تستثير تحدياً إضافياً ،  
تُقابل باستجابة ناجحة .

فكيف يتأتى قياس مثل هذا الارتقاء ؟

هل يُقاس وفقاً لسيطرة متزايدة على بيئة المجتمع الخارجية ؟

٣ يجب الأستاذ توينبي على هذين السؤالين بأن ثمة نوعين من السيطرة المتزايدة ،

الأول - سيطرة على البيئة البشرية التي تتخذ عادة شكل غزو الشعوب المجاورة .

الثاني - سيطرة على البيئة المادية ؛ تتكشف عن تحسينات في الأسلوب التكنولوجي المادى .

بيد أنه لا يعتبر التوسع السياسى والحربى أو تحسين الأسلوب الفنى ؛ قاعدة مناسبة تكفل قياس الارتقاء الحقيقى للمجتمع ؛ فإن التوسع الحربى هو - عادة - مظهر نزعة حربية ؛ تعتبر بدورها قرينة على تدهور المجتمع ، لا إرتقاؤه .

ولا تبدى التحسينات التكنولوجية - سواء أكانت زراعية أو صناعية - سوى ارتباطا قليلا - أو لا شئ - البيئة - بينها وبين الارتقاء الصحيح ؛ وحقاً ؛ فقد يرتقى تماماً الأسلوب الفنى وفقاً لكون التحضّر الفعلى ذى ، مرحلة انحطاط . والعكس بالعكس .

أما قوام الارتقاء الحقيقى ؛ فهى عملية يطلق عليها توينبي كلمة « التسامى » ويعنى بها التغلب على الحواجز المادية . وتعمل عملية « التسامى » على إطلاق طاقات المجتمع من عقاها ، لتستجيب للتحديات التي تبدو بعد ذلك داخل النفس أكثر منها خارجها ؛ أى أنها روحانية الطابع أعظم منها ماديته .

ولكن ما هى علاقة المجتمع بالفرد فى ظل عملية الارتقاء التي إنتهى المؤلف إلى تقرير أن « التسامى » أساسها ؟

ثمة رأيان شائعان :

الأول - يجعل من المجتمع ، مجرد حشد من ذرات هى الأفراد .

الثاني - يعتبر المجتمع كائناً حياً ؛ وما الأفراد إلا أجزاء منه ، ولا يُدركون إلا أعضائه أو خلايا في المجتمع الذي يتسبون إليه :

وهذا ما لا يرضى عنه توينبي : فإن المجتمع عنده ، نظام للعلاقات بين الأفراد ؛ ولا يتأتى للكائنات البشرية أن تحقق وجودها الحقيقي إلا بتفاعلها مع رفاقها ؛ وهنا يكون المجتمع ميدان عمل عدد من الكائنات البشرية ، على أن الأفراد هم « مصدر الفعل » . ذلك لأن جميع أسباب الارتقاء تنبعث عن أفراد مُبدعين أو أقلية صغيرة من الأفراد ؛ ويتكون عملهم من جزئين :

الأول : تحقيق إطماعهم أو كشفهم ، مهما يكن من أمره .  
 الثاني : هداية المجتمع الذي ينتمون إليه ، إلى سبيل الحياة الجديد هذا .  
 ويتأتى - من الناحية النظرية - حدوث هذه الهداية بطريق أو بآخر : إما بتعريض الجميع للتجربة الواقعية التي حوت الأفراد إلى مبدعين ؛ وأما تقليد الناس لمظاهر الهداية الخارجية . وبعبارة أخرى الهداية ؛  
 بفضل المحاكاة :

ويعتبر الطريق الأخير - من الناحية العملية : هو مجال الاختيار الوحيد الملتوح أمام جميع الأفراد ، ما خلا أقلية بسيطة من الجنس البشري ؛ وإن المحاكاة هي « طريق مختصر » ؛ لكنه طريق في وسع عامة الناس جميعاً سلوكه في إثر زعمائهم ، ليصلوا إلى مرتبة الارتقاء .

وظاهر أن الارتقاء - وفقاً لما سبق - يتضمن تمايزاً بين أفراد المجتمع الذي يسير في مرحلة النمو . إذ ستبرز بعض الأجزاء استجابة ناجحة في كل مرحلة . وسينجح بعضها في تتبع خطاها بفضل المحاكاة ، وسيفشل بعضها في تحقيق الأصالة أو المحاكاة على السواء ، ومن ثم تنهاى . وسيكون ثمة كذلك تمايزاً بين مصائر المجتمعات . فواضح أن للمجتمعات المختلفة سمات مختلفة . إذ يتفوق بعضها في الفن ، والبعض في الاستنارة الدينية ، والآخر

في الابتكارات الصناعية : بيد أن غايات الحضارات تتماثل في جوهرها مثلها مثل البذور من نوع واحد ، فلكل حبة مصيرها ، لكن يبذرهما جميعها « باذر » واحد ، ليجتني نفس المحصول .

### ٣ - إنهيار الحضارات

لم يتبق من الإحدى والعشرين حضارة التي ظهرت في الوجود ، سوى خمس حضارات . وبالتالي أنهارت ست عشرة حضارة .

فما هي أسباب انهيارها ؟ .

يمكن إجمال طبيعة انهيار الحضارى ، وفقاً لآراء توينبي في ثلاث نقاط :

الأولى : إخفاق الطاقة الإبداعية في الأقلية المبدعة : وعندئذ تتحول تلك الأقلية التي كانت تفتتن بها الأغلبية فتحاكيها ، فتسير في طريق الارتقاء بفضل هذه المحاكاة ؛ نعم تتحول إلى أقلية مسيطرة .

الثانية - تردّ أغلبية المجتمع على طغيان أقليته ، بسحبها ولاءها ، والعدول عن محاكاتها .

الثالثة - يستتبع فقدان الثقة بين أقلية المجتمع الحاكمة وأغلبيته الحكومة ، ضياع وحدة المجتمع الاجتماعية ، فانهياره .

ويخالف توينبي في رأيه هذا ، آراء من سبقه من المفكرين :

١ - رأى بعض المفكرين القدامى ، أن انهيار الحضارة مبعثه تشيخ الكون . لكن علماء الطبيعة المحدثين ، أبعثوا عصر « التشيخ الكوني » إلى مستقبل قصي لا يسهل تصوره . وهذا يعنى انتفاء تأثيره على الحضارات سواء في الماضي أو في الحاضر :

٢ - اعتنق شبنجلر وغيره فكرة أن المجتمعات كائنات لها صفات

التحوّل الطبيعي من الشباب والنضج إلى الاضمحلال ؛ مثلها في ذلك مثل المخلوقات الحية . لكن المجتمع ليس - في حقيقته - كائناً من هذا النوع ،

٣ - نادى آخرون بوجود شيء حتمى من شأنه تعويق سير الوراثة ؛ الأمر الذى يؤثر تأثيراً سيئاً في الحضارة وفي الطبيعة البشرية . وأنه بعد انقضاء فترة من التحضّر لا يتيسر إنعاش الجنس إلا بفضل « سكب دم جديد همجى » . ويعنى هذا ؛ تسامى جنس معين على غيره من الأجناس البشرية . وهذا يجافى المنطق والعلم على السواء .

٤ - أبدى أفلاطون في كتابه « تيبايوس » فكرة مدارها أن التاريخ يكرر نفسه . أى أن التاريخ أجدر بصفة عامة أن يكون « إعادة أحداث » ، منه لإيراد سير . وهذا غير منطقي .

٥ - ثمة قول يعزو انهيار الحضارات إلى إضمحلال العمل الفنى الفذ ؛ أو يعزوه إلى عدوان يثن عن الحضارات . بيد أن التاريخ يبين أن الاضمحلال هو نتيجة انهيار الحضارة ، لا سبباً له .

#### ٤ - تحلل الحضارات

يرى الأستاذ توينبى أن الحضارة تصاب بالتحلل ( أو ما يطلق عليه التحجر ) ؛ وأورد طائفة من الأمثلة في الجزء الخامس من موسوعته . وأبرز تلك الأمثلة ؛ الحضارة المصرية . فإنه بعد انهيار المجتمع المصرى تحت العبء الجسيم الذى فرضه عليه بُناة الأهرام ؛ وبعد اجتياز مراحل الإنحلال الثلاث أى : عصر اضطرابات - دولة عالمية - فراغ ؛ نجد هذا المجتمع المشرف على الموت بشكل واضح ، يرتحل بغتة - عكس المتظر - في اللحظة التى كاد يستكمل خلالها سير حياته . بيد أن المجتمع المصرى أبى عند هذه اللحظة أن يموت ؛ ومضى يضاعف فترة حياته . وإذا ما حسبنا مقياس زمن المجتمع المصرى لحظة رد فعله الاستثنائى ضد الغزاة الهكسوس

في إبان الربع الأول من القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حتى طمّس آخر معالم الثقافة المصرية في القرن الخامس الميلادي ؛ نجد أن فترة الألف سنة هذه ، تبلغ استدامتها مجموع طول ميلاد المجتمع المصري مع ارتفاعه وانهاره ، الجانب الأعظم من فترة انحلاله . وتُحسب هذه الفترات مجتمعة ؛ من تاريخ إعادة توكيد المجتمع المصري نفسه في إبان القرن السادس عشر قبل الميلاد ، حتى انبعائه لأول مرة فوق المستوى البدائي ، في تاريخ ما - غير معروف - خلال الألف الرابعة قبل الميلاد . بيد أن حياة المجتمع المصري في غضون النصف الثانية من بقائه ، كانت نوعاً من « الموت في الحياة » . وفي خلال هاتين الألفي سنة اللتين تعتبران زائدتين عن المقدّر في حياة المجتمع المصري ؛ أخذت حضارته التي حفلت حياتها الجارية بالحركة والمعنى ، تتباطأ في فتور وتعطل ، وفي الواقع ؛ عاش المجتمع المصري بفضل صيرورته متحجراً .

ويعتبر الأستاذ توينبي ميزان التحلل الحضاري في انقسام الجسم الاجتماعي إلى كسور ثلاثة : أقلية مسيطرة - بروليتاريا داخلية - بروليتاريا خارجية .

فأما الأقلية المسيطرة ؛ فإنها تلك الطبقة المُبدعة التي كانت أغلبية المجتمع تقتدى بها وتحاكيها وتقتنى أثرها في طريق الارتقاء ؛ لكنها تحولت إلى أقلية مسيطرة بعد أن فقدت طاقتها الإبداعية .

وأما البروليتاريا الداخلية ؛ فإنها الجماهير التي باتت تحكها الأقلية المسيطرة .

وأما البروليتاريا الخارجية ؛ فإنها الشعوب التي تُحيط بالدولة والتي تتربص بها ، وتسعى إلى الانقضاض عليها إن ألمّ بها ضعف ؛ وتُنشئ مكان المجتمع القديم مجتمعاً جديداً .



ولكل جزء من أجزاء المجتمع وظيفته :

١ - تُنشئ الأقلية المسيطرة دولة عالمية .

٢ - تستجيب البروليتاريا الداخلية إلى نداء الروح ، فتعنتق ديانة عالمية .

٣ - تؤلف البروليتاريا الخارجية عصابات حربية بربرية ، تبتكر أشعار

الملاحم مثل الإلياذة والأوديسية لهوميروس .

## ٥ - الدول والأديان العالمية

يقرر الأستاذ توينبي أن ثمة ثلاثة مظاهر بارزة للدول العالمية :

الأول - تنبعث الدول العالمية بعد إنبهار الحضارة ، لاقبلها . وتتولى الدولة العالمية تحقيق الوحدة السياسية لكيان الحضارة الاجتماعى . ولا يعتبر قيامها بشيرا بهدوء الحال واستقرار أوضاع الجسم الاجتماعى .

الثانى - تنبعث الدولة العالمية عن الأقلية المسيطرة . والأقلية المسيطرة هى الأقلية الحاكمة ، بعد أن فقدت طاقتها الإبداعية ؛ فخسرت ولاء الجماهير المحكومة وإعجابها .

الثالث - يعتبر إنبعاث الدولة العالمية محاولة لم الشعث إبان التحلل .

فإن أخذت هذه المظاهر معا ؛ تطالعنا صورة للدول العالمية تبدو للوهلة الأولى مبهمة . فبينما هى ظواهر تحلل اجتماعى ، إذا بها فى نفس الوقت محاولات لكبح جماح هذا التحلل ومناوآته .

والدول العالمية يفرضا بُنائها ؛ ويتقبلها رعاياها دواء شافيا لجميع أوجاع عصر الاضطرابات . وهى وفقا للتعبير السيكلوجى ، نظام يرنو إلى تحقيق الوفاق الاجتماعى والحفاظة عليه . وهى دواء ناجع لداء يتمثل فى بيت انقسام على نفسه انقساما يحصد الجانبين على السواء . والانقسام نوعان : نوع أفقى - يحدث بين الطبقات التى تصارع بعضها بعضا ، وهذا هو الصراع الطبقي

أساس نظريات كارل ماركس ومريديه ؛ ونوع رأسي يتخذ سبيله بين الدول المتحاربة .

وفي غمار عصور الاضطرابات وتحلل المجتمعات تنبثق الأديان العالمية .

ويتساءل المؤلف :

كيف يتأني للنفوس في نشدانها الإله أن تنزع جوهر الدين من أحداث التاريخ .

وكيف تأتي للمسيحيين والبوذيين والمسلمين والهندوكيين - منفصلين عن بعضهم بعضا - أن يحرزوا مزيدا من التقدم والازدهار في عالم بات متحدا على نطاق واسع ؟ .

ويجيب على هذين السؤالين بأن الباحثين عن ضياء الروح ؛ يرهقهم في العصر الحديث صراع بين القلب والعقل ، ولا حل له إلا مزيد من الدفع الروحي للنفوس البشرية . وظاهر أنه قد أصبح للحقيقة في العصر الحديث أسلوبان فكريان يدعى كل لنفسه الحق المطلق ، ولكن يجاني أحدهما الآخر ؛ هذان هما : الوحي النبوي ، والعقل الفلسفي . ولا نجد إزاء هذا الموقف الأليم إلا بديلين فحسب :

فإما أن يتمكن أسلوبا الحقيقة من التوفيق بينهما ، أو أن يصارع أحدهما الآخر حتى يصرعه ، فيتم له إخراج خصمه من الميدان .

وإذا كان العلم قد انتصر على الدين في البلاد المتحضرة ، انتصارا ساحقا ؛ فإن هذا الانتصار يعتبر كارثة لا على الدين وحده - ولكن على العلم كذلك . فإن كلا من الدين والعقل ملكة جوهرية من ملكات الطبيعة البشرية .

فالحق ؛ أن سيطرة الإنسان على الطبيعة المادية - التي منحها العلم

للإنسانية - هي للإنسان أقل أهمية - إلى أقصى الحدود - من أهمية علاقته بنفسه ، وبإخوانه البشر وصلته بالله . فما كان ليتأتى للعقل البشرى أن يجعل من الإنسان سيّدا على العالم ، لولم يوهب سلفه في المرحلة السابقة على الإنسانية ، القدرة على التحوّل إلى حيوان اجتماعى . ولكن الإنسان البدائى لم يرتفع إلى ذلك النبع الروحى ، بحيث يستطيع أن يتعلم ويأخذ من هذه المقوّمات الاجتماعىة التى تكوّن الظروف التى لاغنى للإنسان العامل عنها ؛ كى يودى الأعمال القائمة على التعاون والتآزر . ولقد أثار العلم الحديث قضايا معنوية بالغة الأهمية ، واكنه لم يشارك فى إيجاد حلول لها ؛ وما كان فى وسعه أن يفعله .

والواقع - كما يقر الأستاذ المؤلف - إن أهم الأسئلة التى ينبغى للإنسان الإجابة عنها ، ليس للعلم فيها قول فصل . وهذا هو الدرس الذى سعى سقراط إلى تعليمه ؛ وقمّا نبذ دراسة علم الطبيعة ، بغية نشدان الاتحاد مع الطاقة الروحىة التى تعلن عن الكون وتحكمه .

ويرى الأستاذ توينبى أنه لن تتحقق للبشرى وحدتها المرتجاة ، من غير مشاركة الله . فلو أسقطت المرشد العلوى من اعتبارها ، لاندفع الإنسان إلى الفتنة والتنافر ، وهو ما يجافى طبيعته القائمة على الألفة وحسن المعاشرة . ولعذبه ذلك الحس من العناء الكامن فى نفسه ؛ بحكم كونه كائنا اجتماعيا . ذلك العناء الذى يزداد حدة كلما ازداد الإنسان قدرة على أن يرتفع بحياته إلى تحقيق الاحتياجات المعنوية لطبيعته الاجتماعىة ؛ طالما سعى الإنسان أن يلعب دوره فى مجتمع نبذ الإله الواحد الحق الصمد . وهذا العناء ناجم عن أن الجهد الاجتماعى الذى يبذله المرء ليستكمل ذاته ، يتعدى بمراحل حدود حياته على الأرض زمانا ومكانا . وعلى هذا يصبح التاريخ عند كل امرئ يشارك فيه - على حدة - مجرد حكاية يروها أبله ؛ لكن هذا الشئ الذى لا معنى له ، يكتسب معنى روحانيا عندما يكشف المرء فعل الإله الواحد الحق .

وعلى هذا النحو : قد تكون الحضارة - أمة حضارة - ميدانا للدراسة مفهوما بعض الوقت ؛ إلا أن ملكوت الله ، هو ميدان العمل الوحيد المسلم به أخلاقيا .

وعند الأستاذ المؤلف ؛ أن الأديان العليا ، تهيء للنفوس البشرية اكتساب رعية ملكوت الله - هذه الدولة الإلهية - على الأرض ، فيتاح للإنسان - من ثم - المساهمة بقسط غاية في الضآلة في سير التاريخ الدينى . وهو قسط يكفل له تأدية دوره على الأرض ، ولكن على اعتبار أنه مساعد لإرادى لإله يُضفى سلطانه على جهود الإنسان لتأدية رسالته على الدنيا ؛ يضفى عليها قيمة ومعنى ربانيين .

## ٦ - تلاقى الحضارات

تتلاقى الحضارات وتتصادم ، ولهذا أهميته الكبرى فى التاريخ البشرى . وليس أدل على أهمية الدور الذى أداه التلاقى بين مختلف الحضارات فى عملية تكوين الأديان العليا ، من استعراض ما قامت به منطقتان صغيرتان نسبيا هما : أولا - حوض نهري سيحون وجيحون - إذ كان مسقط رأس البوذية المهايانية على الصورة التى انتشرت بها فى عالم الشرق الأقصى .

ثانيا - سوريا - فيها تبلورت المسيحية فى الشكل الذى انتشرت به فى العالم . كما انبعثت اليهودية فى سوريا الجنوبية . وإذا اعتبر الحجاز امتدادا لسوريا - صوب الجنوب - لأمكن إدخال الإسلام فى نطاق العقائد الدينية التى ظهرت فى تلك البقعة .

فى سوريا تتلاقى الطرق الآتية من حوض النيل ومن البحر المتوسط ومن الأناضول ( مع ظهيره ، الأرض الأوربية الجنوبية الشرقية ) ومن حوض دجلة والفرات ، ومن السهوب العربية .

وكذلك تتلاقى في آسيا الوسطى الطرق الآتية من حوض دجلة والفرات عن طريق الهضبة الإيرانية وتلك الآتية من الهند عبر الممرات الواقعة فوق جبال هندوكوش . ومن الشرق الأقصى عن طريق حوض نهر تاريم . وكذلك الطرق الآتية من السهوب الأوراسية المتاخمة التي أخذت مكان « منطقة بحر متوسط أخرى » وورثت خاصية التوصيل هي الأخرى . وشهد على وجودها فيما مضى بقاياها الماثلة في : بحر قزوين ، وفي بحر آرال ، وفي بحيرة بالكاش .

فالقدر - والحالة هذه - قد رسم دوراً لهُذين المركزين القويين لحركة التجارة . وقد أداه كل منهما في واقع الأمر - المرة بعد الأخرى ، وذلك في غضون الخمسة آلاف أو الستة آلاف سنة منذ إنبعث الحضارات الأولى . فقد ظلت سوريا فترات متعاقبة مسرحاً للمصادمات بين الحضارتين : السومرية والمصرية ؛ وبين الحضارات : المصرية والحيثية والمينوية ( الكريتية ) ؛ وبين الحضارات : السورية والبابلية والمصرية والهلينية ( اليونانية ) ؛ وبين الحضارات : السورية والمسيحية الأرثوذكسية والمسيحية الغربية . وفي نهاية المطاف ؛ شهدت هذه المنطقة الاتصالات بين الحضارات : العربية والإيرانية والغربية .

وكذلك كان حوض سيحون وجيحون مسرحاً للمصادمات خلال فترات متعاقبة بين الحضارتين : السورية والسندية ؛ وبين الحضارات : السورية والسندية والهلينية والصينية ؛ وبين الحضارة السورية وحضارات الشرق الأقصى .

وترتب على تلاقى الحضارات - كما يقرر الأستاذ المؤلف - أن كلا من هاتين المنطقتين الحاملتين للإشعاع الديني ، قد دخلت في نطاق الدول العالمية التي انتظمت في عدد من الحضارات المختلفة . وهذا التمازج الضال - الذي لانظير له - بين الحضارات في هاتين المنطقتين ؛ يفسر التركيز الغير العادي - داخل حدودهما - كمواطني إنبعث الأديان العليا .

وقد عرض الأستاذ المؤلف في خلال الجزء الثالث من هذه الترجمة ؛ لطائفة من مظاهر التلاقى بين الحضارات المختلفة . وأخص بالذكر تلاقى الحضارة الغربية مع كل من : روسيا - البلقان - الهند - العالم الإسلامى - اليهود - الشرق الأقصى .

ويرى الأستاذ المؤلف أنه مهما يكن من أمر النكبات التى حلت بالعالم الإسلامى فى خلال القرن التاسع عشر ؛ فإنه ما حل النصف الثانى من القرن العشرين ، حتى كانت دار الإسلام سليمة الجوهر ؛ فلم يُنتقص منها سوى بضع مقاطعات من أطرافها . وأمكن هذا الجوهر إنترجاع نفسه من طوفان الإمبريالية البريطانية والفرنسية والهولندية . وللعالم الإسلامى - فى الوقت الحاضر - أهميته القصوى كمصدر للسلع الأساسية وفى طليعتها النفط وكعبر للمواصلات الرئيسية . الأمر الذى يجعله نقطة الصراع الدولى بين الكتلتين المتنازعتين .

ويعتبر الأستاذ المؤلف اليهودية ظاهرة اجتماعية شاذة ؛ بحسبانها فضلة متحجرة من حضارة بادت وانقضت فى كل مظاهرها . ولما فقدت اليهودية صفتها كدولة ؛ استثار هذا التحدى اليهود ليُبدعوا لأنفسهم طرازاً من الكيان الطائى ، استعاضوا داخل نطاقه عن فقدان دولتهم وبلادهم ، بالاحتفاظ بذاتيتهم فى صورة تشتت وانتشار بين ظهرائى أغلبية أجنبية ، وفى ظل حكم أجنبى . وحافظ اليهود على ذاتيتهم بفضل التخصص فى مجالات جديدة من العمل تقوم خاصة على تنمية مهارة خاصة فى شئون التجارة وغيرها من الحرف الحضرية . ويرى المؤلف أنه مهما يكن من أمر التسامح الذى ما برح الناس فى الدول الغربية يبذلونه لليهود المقيمين بين ظهرائهم ؛ فإن الفرد المسيحى الغربى ما برح يجابه تضامناً وثيقاً - ماسونية - يربط اليهود بعضهم ببعض ، كما يواجه طموحاً يهودياً إلى المطالبة بمزيد من المزايا التى يُسبغها المجتمع الموحد فى الغرب - رسمياً - على جميع أفرادهم - بما فى ذلك

اليهود . لكن اليهود ليسوا على استعداد من جانبهم لمنح غيرهم أية مزايا . فكان أن أصبح الغربيون يضعون اليهود في منزل نفساني . ويجد اليهودى نفسه - عملياً - متبوذاً بمختلف الأساليب ؛ وإن كان المجتمع المسيحى الغربى من الوجهة الرسمية يقرر المساواة بين مواطنيه .

ثم يعرض المؤلف لاضطهاد اليهود عرب فلسطين ؛ على غرار اضطهاد النازى لهم . ثم تكلم فى الجزء الثالث - من هذه الترجمة - عن سياسة كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة تجاه مشكلة فلسطين

### ٧ - مستقبل الحضارة الغربية

أسفرت أبحاث الأستاذ توينبى عن إنهار الحضارات وتحللها ؛ على أن السبب فى كل حالة ، نوع من الإخفاق فى تقرير المصير . ومداره تفريط المجتمع فى حق نفسه ، بصدوفه عن توجيه إرادته صوب عمل نافع . ويتمثل هذا التفريط ؛ فى ترديه فى التعلق بنوع من الوثنية ، أقامه هو نفسه لنفسه ؛ ويطبق توينبى هذا الرأى على المجتمع الغربى . فيجده قد سلك مسلك الإنسان الضال العاكف على عبادة بضعة أوثان . إلا أن من بين هذه الأوثان ، وثناً سادت عبادته الأوثان الأخرى بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ؛ هذا هو وثن الدولة الإقليمية القومية .

ويعتبر توينبى ظاهرة تقديس الدولة الإقليمية إلى حد العبادة ، بمثابة نذير رهيب للغرب ؛ من ناحيتين :

الأولى - أن هذا التعلق الوثنى بالدولة الإقليمية ، هو العقيدة الدينية الحقيقية للغالبية العظمى لسكان العالم المصطبغ بالصبغة الغربية .

الثانية - أن هذه العقيدة الباطلة ، هى السبب فى انقضاء أجل ما لا يقل

عن الأربع عشرة حضارة - وقد يكون عدتها ست عشرة - من الحضارات الإحدى والعشرين ٥

وحقاً ؛ ما برحت الحرب التي يقتل فيها الأخ أخاه ، ويشند فيها استعمال العنف - وهي نتيجة التعلق بفكرة الدولة الإقليمية - هي إلى أبعد حد أكثر عوامل الفناء شيوعاً .

ويرى توينبي أن أزمة المجتمع الغربي ، روحانية ؛ وليست مادية . إذ رغما عن بلوغ هذا المجتمع الذروة في تقدمه المادى ، إلا أنه يحس بجوع روحى .

وإذا كانت النفوس الغربية قد استبدت بها قلق الفراغ الروحى فألزمها بفتح الباب لشياطين مثل النازية والفاشية وما إليها ؛ فإلى متى تحمل العيش بدون عقيدة دينية ؟

هنا يقول توينبي : « إن التائهن في ببداء المجتمع الغربى قد انخرقوا عن طريق الرب الواحد الحق الذى آمن به أجدادهم : أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن الدول الإقليمية - مثل الكنائس الطائفية - أوئان تجلب عبادتها الحرب ، لا السلام . وهذا ما يجعل التائهن يندفعون صوب التعلق بهدف بديل : هو النظم السياسية الشاذة » ؟

ويرى توينبي أن الإنسان المتأثر بالحضارة الغربية قد استجلب على نفسه الكوارث بتكريسه جهوده لزيادة رخائه المادى وحده . فإن قيَّض له أن ينشد الخلاص ؛ يصبح سبيله الوحيد ، مشاطرته نتائج جهوده المادية مع غالبية الجنس البشرى ؛ تلك التي لم توفقت في المجال المادى ، توفيق الإنسان الغربى . . . .

ويخلص توينبي إلى تقرير ضرورة تنظيم العالم على أساس دولى ، ينتقى منه التعصب القومى . ويتم ذلك بإقامة حكومة عالمية توجه شئون العالم



لمنفعة جميع أجناسه دون تمييز . فإن أبت دول العالم ذلك بحكم - حرصها على سيادتها الإقليمية - يصبح الفناء والدمار ، نصيبها جميعها .  
وعنده أن حل جميع مشاكل العالم يكمن في تطبيق نظام اشتراكي ؛ يحصل فيه كل فرد على نصيبه العادل من إنتاج المجتمع ، في ظل نظام عالمي الطابع . وأن يتجه الناس جميعاً إلى خالقهم ، يلتمسون الهداية والرشاد ،

ولمّا انتهى من ترجمة هذا المختصر لموسوعة توينبي عن « دراسة للتاريخ » أزعجني خالص الشكر وعميق التقدير للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم لتفضله باستكمال مراجعة هذه الترجمة بعد وفاة أستاذنا الكبير محمد شفيق غربال الذي راجع رحمه الله الجزءين الأول والثاني والباب الأول من الجزء الثالث . ولقد كان لتوجيهاتهما السديدة خير مرشد لي في إبراز هذا العمل الثقافي الفذ في إطار عربي .

والله تعالى أسأله العون والتوفيق .

فؤاد محمد سبيل

٢٤ مارس سنة ١٩٦٥

## الباب العاشر

الاتصال بين الحضارات في الزمن

## الفصل الرابع والثلاثون

### عرض لحركات البعث

#### (١) تقديم - البعث

يبدو أن كاتباً فرنسياً يدعى J. Delectuce . دوليكولوز E.J. ( ١٧٨١ - ١٨٦٣ ) كان أول من استخدم اصطلاح « البعث » La Renaissance «<sup>(١)</sup> لوصف تأثير الحضارة الهلينية المندرسمة في المسيحية الغربية في زمان معين وفي مكان بذاته ؛ هما شمال إيطاليا ووسطها ، في غضون العصر الوسيط المتأخر .

وهذا التأثير - بالذات - ليس بأية حال من الأحوال ، المثال الفريد من نوعه الذي يسجله التاريخ . وسنستخدم هنا الاصطلاح ، باعتباره مدلولاً عاماً لمثل هذه الظواهر ؛ ونتابع طريقنا لدراستها . ويقتضينا هذا الأمر ؛ التزام الحرص في البعد عن تضمين الاصطلاح أكثر مما نقصد . ولما كانت هذه الثقافة الهلينية في مجالي الفن والأدب - لأن هذا الاصطلاح في الاستخدام المتعارف عليه مقصور على هذين المجالين - قد وفدت إلى إيطاليا عن طريق الاتصال بالعلماء من بيزنطة ؛ فإن هذه الثقافة لم تكن بالطبع « تلاقياً » في الزمن مع حضارة مندرسمة ، بل كانت تلاقياً في المكان مع حضارة حية . وتنتمي إلى الموضوع الذي نوقش في الجزء السابق من هذه الدراسة<sup>(٢)</sup> .

---

(١) يرجع العهد بأول استعمال في اللغة الإنجليزية للاصطلاح إلى عام ١٨٤٥ . فقد عمل ماتيو آرنولد على إشاعة استعماله في صورة إنجليزية renaissance عوضاً عن الصورة الفرنسية renaissance ( المؤلف )

(٢) انظر صفحات ٢٦٥ - ٤٣٨ من الجزء الثالث من هذه الترجمة .

كذلك ؛ فإنه عند ما « عبّرت تأثيرات اليونان الثقافية جبال الألب » وأثّرت حركة البعث الإيطالية في الفن والأدب في فرنسا وفي غيرها من البلاد الغربية الواقعة وراء الألب ؛ لم يُعتبر هذا - بحكم أنه وفقد عن طريق إيطاليا المعاصرة مباشرة من الإغريق القديمة - حركة بعث بالمعنى الدقيق للاصطلاح ؛ بل كان لا يعدو أن يكون توصيل منجزات قطاع رائد عن مجتمع ، إلى سائر القطاعات من نفس المجتمع . فهو - والحالة هذه - ينتمى إلى موضوع « نمو الحضارات » الذي سبق بحثه في هذا السياق من الباب الثالث من هذه الدراسة<sup>(١)</sup> .

على أن هذه الفوارق المنطقية ، قد تبدو أنها خُطّطت تخطيطاً بُولغ بعض الشيء في دقته . وفي التطبيق العملي ؛ قد يظهر عسيرا وعديم الجدوى ، أن تُميّز بين حركة بعث « خالصة » (بمعنى كونها تلاقيا مباشرا مع مجتمع بائد) وبين نهضة تمازجت بشكل أو بآخر من الأشكال التي أسلفنا الإشارة إليها .

وينبغي أن نلاحظ كذلك - قبل التوغّل في نجوب آفاق حركات البعث - أن هذه الظواهر ، أجدد أن تُميّز عن نمطين آخرين من تلاقى الحاضر بالماضى :

الأول - يتمثل في علاقة « التبنى » و « الانتماء » بين حضارة محتضرة - أو بائدة - وخليفتها الحضارة الوليدة ، أو غير تامة التكوين .

وهذا موضوع أمهنا فعلا في الكتابة فيه . وقد يمكن النظر إليه كظاهرة طبيعية وضرورية مثلناها بالعلاقة بين الأبوين والأبناء . ومن الناحية الأخرى ؛ فإن حركة البعث ، هي تلاقى بين حضارة نامية و « شبح » حضارتها الأصلية

(٣) انظر صفحات ٢٦٣ - ٤٠٦ من الجزء الأول من هذه الترجمة .

التي بادت منذ أمد بعيد . وهذه حالة - وإن كانت مألوفة تماما - قد تُوصف بالشذوذ ؛ وغالبا ما تُسفر دراستها ؛ عن إظهار ضررها الويل ؛ والنظ الآخر للتلاق بين الحاضر والماضي الذي يجب أن (نُفَرِّق بينه وبين حركات البعث) يتجلى في الظاهرة التي دعوناها في موضع سابق بـ «السلفية»<sup>(١)</sup> . واستخدمنا هذه الكلمة للدلالة على محاولات الارتداد إلى مرحلة سابقة من مراحل إرتقاء المجتمع ؛ مرحلة ينتسب إليها أصحاب السلفية أنفسهم .

وما برحت هناك نقطة أخرى ؛ لتوضيح الفارق بين هذه الأنواع الثلاثة من تلاق الحاضر بالماضي :

ففي علاقة «التبني» و «الانتماء» ؛ واضح أن المجتمعين اللذين يتصل أحدهما بالآخر ، يتباينان تباينا بيّنا ، بل ويتعارضان في مراحل النمو . ذلك لأن المجتمع الأصلي (الذي يتفرع عنه المجتمع الآخر) مجتمع متحلل ؛ في حين أن عقبه ، طفل وليد مكتمل بالمشاكسة والعناد .

كما أن المجتمع السلفي ، قد تملكه الإعجاب بأوضاع تختلف تماما عن أوضاع عصره هو . وإلا ؛ فما الداعي لاعتناق نزعة السلفية ؟

ومن الناحية الأخرى ؛ فلربما يكون المجتمع الذي يبدأ مرحلة البعث ، أميل إلى العزوف عن إستعادة شيخ الأب ، وقما كان يمر هو بالذات بمرحلة النمو التي يمر بها وليده الآن . فهل كان في استطاعة « هملت » اختيار نوع شيخ والده الذي قد رُله ملاقاته على المعامل ؛ إما شيخ والد عبث المشيب بلحيته ، أو شيخ والد مثل عمره ؟

(١) انظر بحث السلفية في صفحات ٢٨٤ - ٤٠١ من الجزء الثاني من هذه الترجمة .

## (٢) بعث الآراء والنظم السياسية

أظهرت حركة البعث الإيطالية للثقافة الهلينية في العصور الوسطى المتأخرة ؛ تأثيراً على المنحى السياسى للحياة الغربية ، أبقي مما أظهرته على صعيدى الآداب والفنون ؛ يُضاف إلى هذا ؛ أن هذه المؤثرات السياسية ، لم تعمّر أكثر مما عمّرت المؤثرات الجمالية فحسب ؛ بل لقد استأثرت بها أيضاً .

وبدأت هذه المؤثرات ، وقتما خرجت المدن اللومباردية من سيطرة أساقفتها إلى أيدي المجالس الشعبية التي كانت تُديرها لجان من القضاة مشمولين أمام المواطنين . وهذا الإحياء الذى شهدته إيطاليا في القرن الحادى عشر لنظام دولة المدينة الهلينية ، قد مضى قَدْماً تحت تأثير إشعاع الثقافة الإيطالية في أقاليم المسيحية الغربية الواقعة وراء جبال الألب ، فكان أن أُنثر على شعوب الممالك الغربية الإقطاعية .

وكان لإحياء هذا النظام ؛ تأثيره المماثل ، سواء في مجاله المبكّر والضيق النطاق ، أو في مجاله الأرحب والأكثر حداثة . وتبلور التأثير الظاهرى في إشاعة الإيمان بالحكم الدستورى الذى خَلَعَ على نفسه في نهاية المطاف اللقب الهليني « ديمقراطية » . بيد أن المصاعب التي نجابها النظام الدستورى ، والفشل الذى مُنى به ؛ مهّدت السبيل لظهور صورة أخرى من نُظُم الحكم اليونانية تتمثل في شخص « الطاغية » . وقد انبعث الشكل الديكتاتورى في بداية الأمر في مدن الدول الإيطالية ؛ ثم انتشر بعد ذلك ، إنتشاراً واسعاً حمل بين طياته - بالتبعية - نتائج أشد وبالا .

وظهر طيغف هليني آخر على مسرح العصور الوسطى ، وقتما توج البابا ليو الثالث شارلمان إمبراطوراً رومانياً في كنيسة القديس بطرس عام ٨٠٠ ميلادية . وبالمثل ؛ أصبح لهذا النظام - فيما بعد - تاريخ حافل . وكان أوتو الثالث

الساكسوني (حكم ٩٨٣ - ١٠٠٢ ميلادية) أكثر هؤلاء الأباطرة الأبطال (١) تمسكاً بالحدلقة الهلينية . فإنه هو الذى نقل كرسى حكومته إلى روما؛ وكانت تقع وقتذاك على رقعة من الأرض المشتركة ، تداخل فيها مجالا نفوذ المسيحيين : الغربية والشرقية (٢) . ولقد رنا أوتو الثالث بتنصيبه نفسه فى المدينة الرومانية السابقة ؛ إلى تعزيز الدعامة الواهية لسلطان الإمبراطورية الرومانية الذى أقيم فى جزء من العالم المسيحى الغربى . وذلك عن طريق تقويتها بمعدن أصلب عودا ، مُستجلب من « مصنع بيزنطى » .

وكما مرّ بنا فى موضع سابق ؛ رأينا أن تجربة أوتو الثالث - التى انهارت بعد وفاته المبكرة - قد كررها رجل عبقرى هو فردريك الثانى هرهنشوفن Frederick II Hohestaufen بعد ذلك بأكثر من قرنين ، وفى ظروف أكثر ملاءمة .

ولقد روجّ جان جاك روسو بعد ذلك بعدة قرون ، للأسلوب الهليني الذى اصطنعه بلوتارخ (٣) . ومن هنا ؛ أن الثورين الفرنسيين لم يسأموا قط

(١) باعتبارهم يمثلون طيف (أوشيج) الأباطرة الرومانيين القدامى . (المترجم)

(٢) المسيحية الشرقية هى المسيحية الأرثوذكسية ، والغربية هى الكاثوليكية . إذ لم يكن المذهب البروتستانى - وقتذاك - قد عرف بعد . (المترجم)

(٣) بلوتارخ : عمدة فلاسفة اسبرطة . وقد كتب كتاباً عن حياة ليكورجوس واضع قوانين اسبرطة (كما تذكر أساطيرها) . ويقول بلوتارخ إن ليكورجوس أمضى سنوات طويلة فى زيارة كريت وآسيا ومصر ؛ دارسا أحوالها ونظمها السياسية ؛ لوضع قواعد الحكم فى بلاده على أساس علمى وطيد . وبدأ بأن أقام مجلس شيوخ عدد أعضائه ثمانية وعشرون ، ويشترك مع الملك فى تحمل أعباء الحكم وله نفس حقوقه ويوازن سلطانه . ويعاون مجلس الشيوخ ، جمعية الشعب ، وتنحصر سلطتها فى الموافقة على المشروعات التى يقترحها الشيوخ والملك ، أو رفضها .

واهتم ليكورجوس - كما يذكر بلوتارخ - بالمشكلات الاجتماعية . فعمد إلى إعادة توزيع أراضى الطبقة الحاكمة على أفرادها ، ليكونوا أقرب إلى الناسق والانسجام ، ومحاربة الترف والجشع والحسد فيما بينهم . كما أنه أعاد توزيع الأراضى الأخرى على أفراد الشعب ، بحيث تنال كل عائلة كفايتها من العمل والعلوم ، مع مساواتها بغيرها فى الملكية .

وأنهى ليكورجوس التعامل بالذهب والفضة ، واستماض عنهما بالحديد فى الأراضى -

تكرار التنويه بصولون Solon وليكورجوس Lycurgus : كما أنهم زبوا نساءهم وروؤساءهم في حكومة الإدارة - على السواء - بالزنى الذى ظنوه من أزياء الإغريق الأقدمين .

تُرى ما الذى يجعل أقرب إلى طبيعة الأشياء مما تقدم ؛ ما عمد إليه نابليون الأول - وقما رغبت في التسمي بشخصه عن مرتبة القنصل - من التسمي بـ « الإمبراطور » وخلق لقب « ملك روما » على ولده ووريثه ، علماً بأن هذا اللقب كان يحمله إبان القرون الوسطى الغربية ، المرشحون لمنصب « الإمبراطور الروماني المقدس » إلى أن يتوجه البابا في روما ( وهذه الرسامة البابوية لم تقيض لكثير من المرشحين ) ؟

أما نابليون الآخر ( المعروف بالثالث ) فقد كتب فعلا - أو دعا إلى أن يُنشر باسمه - سيرة يوليوس قيصر . وأخيراً فقد عبّر هتلر عن تبجيله لطيف الطيف<sup>(١)</sup> ، بتشيدته مقره الريفي على صخرة شامخة تُشرف على ذلك الكهف المقدس المسحور الذى كان لبارباروسا في برختسجادن Berchtesgaden<sup>(٢)</sup> ، وبتقبُّله شعار مُلك شارلمان المسروق من متحف للهابسبرج .

= النقدية ، حتى يتساوى المواطنون في الثروة المنقولة . وحارب الترف بجميع أشكاله ؛ فحتم تناول الطعام في المطاعم الشعبية العامة .

والواقع ينزع ليكورجوس في جميع قوانينه ونظمه ، إلى تقييد حريات الأفراد منذ مولدهم حتى ماتهم . فينظم تربيتهم وثقافتهم وطعامهم ولهوهم ؛ تقييد لا يقاس إلى جانبه أى نظام ديكتاتوري آخر - انظر كتاب « المدينة الفاضلة » للمترجم . ( المترجم )

( ١ ) طيف الطيف : يقصد نابليون الذى كان طيفا للاباطرة الرومان الأندسيين . ( المترجم )

( ٢ ) بارباروسا : هو لقب فردريك الأول ( حول ١١٢٢ - ٩٠ ) . ويعنى اللقب ، ذا اللحية الوردية . كان رئيس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وتم في عهده إقرار النظام في ألمانيا بأسرها . وامتد سلطانه إلى إيطاليا ، وتوجه البابا أدريان الرابع لإمبراطورا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وتمتاز أيامه بانتشار الرخاء والأمن في ربوع إمبراطوريته . وقد مات غرقاً في غاليسيا عام ١١٩٠ .



ولكن طيفاً آخر أطيب وأخير ، يحوم حول نظام الملكية المسيحية الغربية . فإن المراسم الدينية التي أُضيفت على الإحياء الشكلي للإمبراطورية الرومانية في الغرب في يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ ميلادية - وقتما جعل من ملك الفرنجة إمبراطور روماني بموجب تتويج البابا إياه - إن هذه المراسم الدينية لا نظير لها في تاريخ اليونان : على أن ما أُجرى من طقوس في روما في ذلك اليوم ، له سابقة تشاكله ، فيما أُجرى من طقوس في سواسون Soissons عام ٧٥١ ميلادية ؛ وقتما نصب القيم الأوستراسي « بين Pepin » ملكاً على الفرنجة بموجب تتويج القديس بونيفاس Saint Poniface ( مندوب البابا زكريا ) ومسّحه إياه . فهذه السنّة الغربية للرسم الكنسي - وكانت مألوفة بالفعل في أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين - هي إحياء لسنّة سُجّلت في سفرى صمويل والمنوك . إذ ورد فيهما تتويج النبي صمويل للملك داوود ، وقيام كل من صادق الكاهن وناثان النبي بتتويج الملك سليمان ؛ وكلها سوابق لكافة مراسم تتويج الملوك والملكات في الغرب المسيحي .

### ( ٣ ) بعث النظم القانونية

أشرنا قبل الآن إلى الجهود المضنية التي بذلت خلال عشرة قرون تنتهى بمدونة يوستينيان لوضع قانون روماني يكفل احتياجات الشعب

= وثمة أسطورة يرددها عامة الألمان بأن بارباروسا وأتباعه يتامون داخل كهف ، نوما عيقا ( أسوة بأهل الكهف الوارد ذكرهم في التوراة وفي القرآن الكريم ) . وأنه عندما تزهز أشجار الكرز الواقعة أمام الكهف ، يستيقظ بارباروسا وأتباعه ليعيدوا إلى ألمانيا مجدها العابر وسلطانها . البائد الذين كانت عليهما في عهده . ولقد رجحت الدعاية النازية بأن هتلر هو بارباروسا باسم جديد . وهذا ما دعا هتلر إلى إتخاذ برختسجادن مكانا أثيرا لرسم خطته السياسية والعسكرية .

وجدير بالذكر ؛ أن للقادة العسكريين الألمان - وعل رأسهم هتلر طبعا - قد أطلقوا اسم « بارباروسا » على خطة غزو روسيا في الحرب العالمية الثانية ، إيمانا بأن نجاح الخطة سيجعل ألمانيا سيدة العالم وسيعيد إليها الهدى الذي فقدته بعد بارباروسا . ( المترجم )

الرومانى أولاً ، ثم احتياجات المجتمع الهليني بأمره : بيد أن انهيار أسلوب الحياة - الذى وضع القانون الرومانى لتنظيمه - قد أوهنه ؛ فتداعت قوائمه . ولم يقتصر الأمر على النصف الغربى من العالم الهليني ، بل تعداه كذلك إلى نصفه الشرقى .

ثم تلت أعراض الاضمحلال ؛ أعراض إنبثاق حياة جديدة على الصعيد القانونى ، مصداقاً لما حدث على الصعيد السياسى . على أن الدافع لإيجاد قانون حىّ لمجتمع حىّ ؛ لم ينشأ فى أول الأمر من أى حركة لبعث الحياة فى القانون الرومانى الذى كان فى القرن الثامن الميلادى ينتصب عالياً مملقاً فوق رؤوس المعاصرين كما لو كان « قوس قزح » فوق الهيكل الضخم لثقافة هلينية مندرسة :

وللتدليل على الإخلاص فى الإيمان بقانون مسيحى ؛ سعى المجتمعين المسيحيين الحديدين - كليهما ( شرقية وغربية ) لأن يوجدوا - قبل كل شئ - قانوناً مسيحياً لشعب مفروض أن يكون مسيحياً . لكن تبع هذا التحول الحديد فى كلا العالمين :

أولاً - إنبعاث الشريعة الموسوية ، كما وردت فى الكتاب المقدس الذى ورثته المسيحية عن اليهودية :

ثانياً - إحياء التشريع الرومانى ؛ كما ورد بمدونة يوستينيان :

فى الشرق المسيحى ، أعلن عن التحول المسيحى الحديد ؛ خلال الحكم المشترك للمؤسسين السوريين للإمبراطورية الرومانية الشرقية وهما ليو الثالث وولده قسطنطين الخامس . وذلك حين صدر عام ٧٤٠ ميلادية « تشريع مسيحى » هو محاولة مرسومة لتعديل النظام القضائى فى الإمبراطورية عن طريق تطبيق المبادئ المسيحية<sup>(١)</sup> .

(١) الملحق الثانى - صفحة ٥٢٦ من المجلد الخامس Bury J. B وقد نشر كتاب

Edward Gibbon : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire ( London 1901 - Methuen ).

لكن كان لا مناص في غالب الأحيان ، من أن يعقب ظهور تشريع مسيحي جديد ؛ بعث التشريع اليهودي الذى أصرت الكنيسة المسيحية على تضمينه قانونها العام . ولربما نهجت هذا النهج عن عدم تبصّر ، ولم تكن بالتأكيد سعيدة به كل السعادة . ومواء أكان هذا التشريع موسوياً أو مسيحياً ؛ فقد دلل ما أقره هذان الإمبراطوران السوربان - بمرور الأيام - على قصوره عن مواجهة مشكلات المجتمع البيزنطى المعقّدة المتزايدة . فكان أن جاهر « باسيل الأول Basit I » مؤسس الأسرة المقدونية وأبناؤه ( وهم خلفاؤه مئى بعده ) خلال السنوات التى تات عام ٨٤٠ ميلادية ؛ بأنهم « قد نبذوا وطرحوا وراء ظهر انهم العباوات التى نشرها السوربان » ، ويعنون بذلك العاهلين السوربين السابقين لهم . وهذا الحطّ الشديد من قدر الإمبراطورين السابقين ؛ كرّس الأباطرة المقدونيون جهودهم لبعث مدونة يوستينان إلى الحياة . وتصوّر هؤلاء الأباطرة ، أن فيعلّتهم هذا قرينة على أصالّتهم الرومانية ؛ مثلما تصوّر إبان القرن التاسع عشر ، المتأدون بإحياء المنحى للقوطى فى العمارة ، أنهم بالتزامهم أسلوب لبناء القوطى ؛ قد غدوا قوطيين حقاً :

لكن مناط مشكلات حركات للبعث والإحياء - وفقاً لطبيعة الأشياء -  
إنتفاء روح الأصالة منها :

فإنها تختلف عن النوع الأصيل لإختلافاً بيناً ، مثلما تختلف تماثيل الشمع التى يضمّمها متحف مدام تيسو Tussau عن الشخصيات التى تمر عبر الأبواب الدوّارة ليتطلّعوا إليها .

وفى التحوّل التشريعى المسيحى الجديد ، تنجلى حبكة الرواية التشريعية فى بعث طييفسى « موسى » و « يوستينان » على التعاقب . ثم ظهرت للرواية - مرة أخرى - على مسرح الغرب ، وأدّى شارلمان فيها دور ليو ميروس :

« يميّز التشريع الكارولنجي . . إنبعاث الوعي الاجتماعي الجديد للمسيحية الغربية : ولقد كان تشريع الممالك الغربية - قبل ذلك الحين - بمثابة ذيل « مسيحي » للشرائع البربرية القبلية القديمة . أما الآن ؛ فقد تم الانفصال لأول مرة عن الماضي . إذ سنت المسيحية قوانينها الخاصة التي استوعبت كافة ألوان النشاط الاجتماعي في الكنيسة والدولة ، وأرجعت الأمر كله إلى مقياس أوحده هو « الكيف » (١) المسيحي . وهذا أمر لم توح به سابقة جرمانية أو رومانية » (٢) .

بيد أن طيف التعاليم الموسوية قد وفد بقوة في أعقاب رسل المسيح والمبشرين بالإنجيل . حدث هذا في الغرب المسيحي ، مثلما حدث في الشرق الأرثوذكسي :

« لقد منح الأباطرة الكارولنجيون القانون إلى الشعب المسيحي بأسره بروح ملوك العهد القديم وقضاته ، معلنين شريعة الرب إلى شعب الرب . وفي الرسالة التي وجهها كاثوف Cathauf إلى الإمبراطور شارل في بداية حكمه ، يتكلم الكاتب عن الملك كما لو كان نائب الله على الأرض . وينصح شارل باستخدام سفر شريعة الرب كدستور للحكم ، ووفقاً لشريعة التثنية ( إصحاح ١٧ آيات ١٨ - ٢٠ ) التي توجه الملك إلى نسخ صورة من الشريعة من أسفار الكهنة ليحتفظ بها معه دائماً ، وليداوم الاطلاع عليها ، لعله يتعلم بذلك خشية الرب ويدفعه إلى المحافظة على سنته . وإلا فقد ارتفع الغرور بقلبه إلى موضع أعلى من أخوته ، فيتحوّل تارة إلى اليمن وتارة أخرى إلى اليسار » (٣) .

(١) الكيف Ethos : في الأخلاق والآداب والاجتماع . . الخ . ( المترجم )

(٢) صفحة ٩٠ .

Dawson, Christofrher : Religion and the Rise of Western Culture (London 1950, sheed & ward)

(٣) صفحتا ٩٠ - ٩١ من المرجع السابق .

لكن بَعَثَ الشريعة الموسوية في الغرب المسيحي وفي الشرق الأرثوذكسى ، دأهمه على السواء بعث مدونة يوستينيان القانونية :

ففي غضون القرن الحادى عشر الميلادى ؛ كان لمدرسة التشريع الإمبراطورى التى أنشأها الحكومة فى القسطنطينية عام ١٠٤٥ ميلادية ، نظير فى الغرب المسيحي بمدينة بولونا Bologna بإيطاليا ؛ حيث انبعثت تلقائياً جامعة تتمتع باستقلال ذاتى ، وخصّصت لدراسة مدونة يوستينيان . ورغمما عن الفشل الذى مُنبت به فى الغرب المسيحي - آخر الأمر - عملية إعادة القانون الرومانى إلى الحياة ليقوم بمهمة دعم الإمبراطورية الرومانية التى ابتعثت إلى الوجود ؛ فلقد أمكنها أن تُنجز فى الغرب - بصورة فعّالة - غاية أخرى بديلة ، وهى إحياء نظام يونانى أقدم من القانون الرومانى ؛ ألا وهو الدولة الإقليمية المستقلة ذات السيادة . فكان أن كوّن رجال القانون المدنى المتخرجون من جامعة بولونا وأخواتها من الجامعات الأخرى ، عناصر الجهاز الإدارى ، لافى « إمبراطورية رومانية مقدسة عقيمة » ؛ ولكن فى دول إقليمية غربية مستقلة ، ذات سيادة وسطوة . وكانت كفاية هؤلاء القانونيين فى الأعمال التى احترفوها ، عاملاً من عوامل الانتصار المتتابع لهذا النظام على جميع الأشكال البديلة للتنظيم السياسى ؛ تلك الأشكال التى لبثت كامنة فى التركيب الاجتماعى الأصيل فى الغرب المسيحي .

وبينا كان خريجوا القانون بجامعة بولونا يزودون مدن إيطاليا الشمالية والوسطى بالإداريين الذين مكّنت كفايتهم الهيئات البلدية الشعبية من خلع سلطان أمرائهم الأساقفة وبدء عهد من الحكم الذاتى المدنى ؛ كان المشتغلون بالشرائع الدينية يستكملون مدرسة القانون المدنى فى بولونا ، بشقبة لها لتدريس القانون الكنسى . وتم هذا عقب نشر مرسوم الموسوعة ( أعوام ١١٤٠ - ١١٥٠ ميلادية ) ، كما أن أساتذة القانون الكنسى قد ساهموا

كذلك في نمو الدولة الإقليمية العلمانية ؛ على الرغم من أنهم كانوا يهدفون  
وجهة مغايرة ، وحقاً ؛ يُعتبر ما أنجزوه في هذا السبيل ، من مسخريات  
التاريخ الكنسية ،

ولقد يقال إن البابوية قد استخدمت أساتذة القانون الكنسي أدوات  
في حربها الكلامية ضد منافستها العلمانية : الإمبراطورية الرومانية المقدسة ؛  
لكن يناقض هذا القول - ويقدم صورة أخرى أكثر دقة - تقرير أن  
أساتذة القانون الكنسي هم الذين استحوذوا على البابوية . فإن جميع البابوات  
العظام من اسكندر الثالث ( ١١٥٩ - ١١٨١ ميلادية ) - وهو الذى دافع  
عن حتمى الكنيسة ضد فردريك بارباروسا - إلى إينوسنت الثالث  
( ١١٩٨ - ١٢١٦ ميلادية ) - الذى قدم لعالمه نموذجاً مسبقاً لما يعنيه  
الاستبداد البابوى في محيط السياسة - ثم إينوسنت الرابع ( ١٢٤٣ - ١٢٥٤  
ميلادية ) - الذى جابه شيوع التبلد الذهني بعدم إكتراث بالقيم يتم  
بالعناد ويتفق مع خلُقه الشخصى - وإلى بونيفاس الثامن ( ١٢٩٤ -  
١٣٠٣ م ) - الذى اصطدم اصطداماً مدمراً بالملكيات القوية كفرنسا  
وإنجلترا ؛ إن جميع هؤلاء البابوات وغيرهم الأقل أهمية الذين تولوا خلال  
الفترات الواقعة بين حكم أحدهم والآخر ؛ لم يكونوا من علماء اللاهوت  
( أى طلبة الرب ) لكن كانوا من القانونيين ( طلبة القانون ) .

فكان أن ترتبت على ذلك نتيجتان :

الأولى - سقوط الإمبراطورية ،

الثانية - دمار البابوية .

ولم تفق البابوية بعد ذلك قط من النقد الأدبي والدينى الذى أصابها  
بسبب تزمها في اتباع حرفية القانون ، إلى أن مُدت بحياة جديدة بعد  
- وليس قبل - كارثة الانشقاق البروتستانتي .

إن انهيار الإمبراطورية والبابوية - كليهما - قد مهد للطريق في الغرب أمام مواصلة الدول الإقليمية سيرها الحديث :

#### (٤) بعث المدارس الفلسفية

يعرض هذا المبحث حركتين من حركات البعث ، عاصرت إحداهما الأخرى - على وجه التقريب - وانبعثت في طرفين متقابلين من القارة الأوراسية<sup>(١)</sup> ؛ وهما :

أولا - إحياء فلسفة العالم الصيني «كونفوشيوس» في ذلك الفرع من حضارة جنوب شرق آسيا ، وهو مجتمع الشرق الأقصى .

ثانيا - إحياء فلسفة العالم اليوناني «أرسطو» في الغرب المسيحي .

ولعل المثال الأول ، يُستبعد من محيط المناقشة ؛ على أساس أن الفلسفة الكنفوشيوسية لم تدرس بالفعل بموت المجتمع الذي أبرزها . ولكنها مرت بحتمية من السبات .

هذا إلى أن الشيء الذي لا يفي ، يفقد قدرته على الظهور كـ «طيف» ، وإذا كان لا مناص من الإذعان لوجاهة هذا الاعتراض ؛ لكن لنفرض - جدلا - إمكان التغاضي عنه . فإن الإجراء الذي اتخذته الإمبراطور تاي تسونج T'ai Tsung « من أسرة «تانج Tang» في عام ٦٢٢ ميلادية بإعادة فرض نظام الاختبار - رسميا - في مؤلفات كنفوشيوس الكلاسيكية كوسيلة لاختيار المرشحين للوظائف العامة في الإمبراطورية ، إن هذا الإجراء يُمثّل المظاهر الأساسية لحركة بعث . كما أنه يُبرز حقيقة مدارها أن أنصار هذا الإمبراطور وأتباع بوذا ، قد أضعوا فرصة ممحّت لهم - خلال الفترة التي أعقبت عصر الاضطرابات - بالحلول محل أتباع كنفوشيوس . وذلك

(١) الأوراسية : الأوربية الآسيوية .

وقد انهارت مكانة الكنفوشيوستين بسبب إنهيار الدولة العالمية . إذ كانوا مرتبطين بها ومعبرين عنها :

وإن ما مُنيت به البوذية المهايانية من إخفاق سياسى ؛ يبين التوفيق الذى لازم الكنيسة المسيحية فحصلت بفضلها ثماره السيامية فى أوروبا الغربية . فهذا التباين ؛ يُبرز حقيقة مؤداها أن المهايانية — إن قورنت بالمسيحية — كانت ديانة قاصرة ، من الوجهة السياسية .

ولم تغد المهايانية من الرعاية التى أسبغها عليها الأمراء الإقليميون فى شمال الصين خلال فترة طويلا حافلة ، امتدت ثلاثة قرون تلت إنهيار إمبراطورية « تسن T'sin » المتحدة ؛ لم تغد بأكثر مما أفادته من الرعاية المتينة التى أضفاها عليها « كانيشكا Kanishka » إمبراطور كوشن فى عهد سابق . على أنه حالما تحوّل التلاقى — على أرض الشرق الأقصى — بين المهايانا والكنفوشيوستية ؛ من المجال السياسى إلى المجال الروحى ، انعكست مصائر حربهما التى كادت تخلو من سفك الدماء . ويثبتنا مصدر حديث صينى ثقة فى الموضوع ؛ بأن « أتباع الكنفوشيوستية المحدثين يلتزمون حرفية مبادئ التاوية والبوذية الجوهريّة ، بأكثر مما يلتزمها التاويون والبوديون أنفسهم » (١) .

فإن انتقلنا من إنبعث فلسفة كنفوشيوست الصينية فى تاريخ الشرق الأقصى ، إلى إنبعث فلسفة أرسطو اليونانية فى تاريخ المسيحية الغربية ؛ اتخذت حبكة الرواية وجهة مختلفة . فبينما استسلمت الكنفوشيوستية — وهى فى ثوبها الحديد — روحيا ، للمهايانية ؛ فرضت فلسفة أرسطو الجديدة نفسها على لاهوت الكنيسة المسيحية ، وهى التى اعتبرت أرسطو نفسه — من الناحية الرسمية — مجرد إنسان وثنى .



وهكذا واجه كل فريق - وهو يتربع على عرشه - خصما لم يكن ثمة ما يزيكه ، سوى مزاياه الكامنة فيه :

١ - ففي الشرق الأقصى ؛ خضعت فلسفة الخدمة العامة ، إلى دين أجنبي .

٢ - وفي أوروبا ؛ استسلمت عقيدة دينية ثابتة الأركان - وهى المسيحية - لروح فلسفة أجنبية عنها .

لقد أظهر « طيِّف » أرسطو في الغرب المسيحي ، نفس الطاقة الثقافية المذهلة التى أبرزتها المهايانا القائمة فى عالم الشرق الأقصى :

« إن أوروبا ( الغربية ) لم تستمد من ( التقاليد الرومانية ) أسلوب النقد وروح البحث المتطلع دائما ، وهما ما جعلتا الحضارة الغربية وريثة اليونانيين وخليفتهما . إن المألوف عادة هو تأريخ ظهور هذا العنصر الجديد بقيام حركة البعث ( الإيطالية ) وإحياء الدراسات اليونانية بالقرن الخامس عشر . بيد أن نقطة التحول الحقيقية يجب وضعها قبل ذلك بثلاثة قرون . . . فى باريس على عهد آبيلارد Abelard ( الذى عاش بين سنتى ١٠٩٧-١١٤٢ ) وجون ساليسبرى John Salisbury ( الذى عاش حوالى سنتى ١١١٥ - ١١٨٠ ) كان تعشُّق الجدل وروح النقاش الفلسفى قد بدأ بالفعل فى تطوير الجوانب الثقافية التى كانت تعيش فيه المسيحية ( الغربية ) . فكان أن سيطر - منذ ذلك الوقت - أسلوب النقاش المنطقى على الدراسات العليا والبحث والمناظرات العامة . وهذا الأسلوب هو الذى حدد شكل فلسفة العصور الوسطى ( الغربية ) حتى عند كبار الفلاسفة الذين يمثلونها . ويقول روبرت السربونى ( لاشئء يُعلم على وجه الدقة ، إذا لم تكن ألسن المناظرة ) : وإن النزوع إلى إخضاع كل موضوع إلى هذه العملية - يتساوى فى ذلك أكثرها وضوحا وأشدّها غموضا - لم يشجع فحسب على حضور البديهة وإحكام الفكر ، لكنه نعى - قبل كل

شيء - روح للنقد وللشك المتصل : وإليهما تدين الثقافة الغربية والعلم الحديث ، بالشىء الكثير ، (١) .

وإذا كان طَيْفِ أرسطو قد دمع الفكر الغربى وأبعاده بهذا الطابع القوى ، فإنه قد أثير كذلك فى جوهره ، تأثيراً عابراً . وإذا كان التأثير هنا أقصر أمداً ، لكنه تغلغل مع ذلك فى الأعماق بحيث تطلبت إزالة أثره فى نهاية المطاف ، حلة من الكفاح العقلى ، طويلة وشاقة .

فى الصورة الكلية الشاملة للكون ( كما تراه عين الناس فى الغرب ) ؛ نجد من فكر أرسطو ، أكثر مما نجده من عناصر المسيحية . إن سلطان أرسطو وخلفائه ، هو المسئول حتى عن مظاهر هذه التعاليم التى قد يبدو لنا أنها تحمل شيئاً من المذاق الدينى . ومن قبيل المثال :

طبقات السموات ، الأجرام الدوّارة ، قوى العقل التى تحرك الكواكب ، ترتيب العناصر وفقاً تحتها ، وجهة النظر القائلة بتكوّن الأجرام السماوية من جوهر خامس لا يحوّل ؛

وفى الحق ؛ إن وسعنا القول بأن أرسطو - أكثر من بطليموس - هو الذى كان ينبغى أن يُخلع سلطانه خلال القرن السادس عشر ، وأن أرسطو كان العقبة الكأداء التى واجهتها نظرية كوبرنيقوس ، (٢) .

(١) صفحتا ٢٢٩ و ٣٠ Dawson , Christobher : Religion and Rise of Western Culture (London 1950, shed and ward)  
Butterfield, H. : The Origins of modern Science, 1300, ٢٢ - ٢١ صفحتا  
London 1949, Bell

(٢) نيولاي كوبرنيقوس : مؤسس علم الفلك الحديث (١٤٧٣ - ١٥٤٣) - ولد فى ثورن بروسيا لشرقية ، وكانت وقتذاك جزءاً من بولندا . ولقد أيدت نظرية الفلاسفة الفيثاغوريين ( أتباع فيثاغورس ) القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس . وتعتبر أبحاث كوبرنيقوس الأساس الذى بنى عليه جاليليو نظريته ثم نيوتن من بعده .  
( المترجم )

وحين عادت عبقرية الغرب الأصيلة تؤكد وجودها خلال القرن السابع عشر المسيحي وترتاد مختلف جوانب الطبيعة - وفقا للمخطوط التي رسمها بيكون Bacon - كان لللاهوت الكنسي قد وقع في أحابيل آراء أرسطو ؛ إلى درجة أن جيوردانو برونو <sup>(١)</sup> Geordano Bruno قد أضاع حياته ، وأن جاليليو Galileo <sup>(٢)</sup> تعرض لرقابة الكنيسة بسبب ما نسب إليهما من اعتناق بدع علمية ؛ ولم تكن لها أية صلة على الإطلاق بالديانة المسيحية ، كما وردت في العهد الجديد .

وقبل أن يحل القرن السابع عشر الميلادي ، هاجم رجال العلم والفلاسفة الغربيون فيما وراء الألب ؛ هاجموا فلاسفة القرون الوسطى ( المدرسين ) لخضوعهم لأرسطو - طاغيتهم كما لقبه بيكون - في حين حمل « الإسانيون » الإيطاليون في القرن الخامس عشر على هؤلاء للفلاسفة ، لسوء تعبيرهم باللاتينية .

( ١ ) جيوردانو برونو : فيلسوف إيطالي ( ١٥٤٨ - ١٦٠٠ ) كان في الأصل نيسا . لكنه اضطر إلى الفرار لما نسبت إليه الكنيسة من آراء تخالف للدين في نظرها . واستقر به المطاف محاضرا بجامعة تولوز بفرنسا ثم بجامعة باريس حيث لاق معارضة شديدة من أساتذتها نظرا لمهاجته آراء أرسطو . فكان أن غادر باريس إلى لندن ثم إلى أكسفورد ، ثم غادر إنجلترا إلى فرانكفورت بألمانيا . وعاد إلى إيطاليا عام ١٥٩٢ فجاهر بمعارضته لفلسفة أرسطو ، وقبض عليه وأرسل إلى روما حيث حكمت عليه المحكمة البابوية بالمرور عن الدين . ولما رفض التخلي عن آرائه أحرق .

ومدار فلسفته : تطابق الله والكون . ويتفرع من هذا فكرة أن الروح لا يمكن أن توجد إلا في مادة ، وأن الخليفة بأسرها حياة واحدة تتألف من أعضاء عديدة حية ، تعتبر في وجودها الروحي والجنائي النهائي خالدة ، وأن الله هو الذي يثبت من نفسه نسمة الحياة في الجميع . وقد أثرت تعاليم برونو في الفلاسفة الذين تلووه وبخاصة ديكارت وسبينوزا وليبنيتز . وفي عام ١٨٨٩ أقيم له تمثال بمدينة روما في نفس الكلام الذي أحرق فيه . ( مترجم )

( ٢ ) جاليليو ( ١٥٦٤ - ١٦٤٢ ) : فيلسوف وفلكي إيطالي تجريسي . ونظراً لمخالفة الكثير من نظرياته العلمية لما ورد في الإنجيل والتوراة ، فقد قبضت عليه للسلطات ورحلته إلى روما حيث أجبر على المجاهرة بفساد نظرياته بشأن دوران الأرض حول الشمس وثبات الشمس وتعاقب الليل والنهار . ووضعت الكنيسة تحت المراقبة بقية عمره . ( المترجم )

لكن لاهوت أرسطو ، كان دليلا ضد الهازئين بأصحاب العلم على الأسلوب القديم . ومن الحق أن هؤلاء النقاد اشتقوا من اسم العلامة الأرسطى الماجد « دونز سكوتس Dunsscotus » الكلمة النابية « مدع dunce » . ولا تعنى الإنسان الجاهل ، بل تعنى الرجل المتعصب لنظام تعليمى عقيم . ولكن نهاية « الإنسانين » قد أزفت وقت كتابة هذه السطور . فى خلال القرن العشرين - حين ظهر أن العلم الطبيعى والتكنولوجيا يسوقان كل شئ أمامهما - يبدو أن من الضرورى البحث عن « المدعين » فى نطاق البقية التى تتضاءل يوما بعد آخر من « أصحاب التراث القديم » الذى كان - وقتنا ما - فى أوج سلطانه .

### ( ٥ ) بعث اللغات والمصنفات الأدبية

اللغة الحية - أساسا - هى أداة الحديث وهذا هو ما تظهره الحقيقة القائلة بأن « الكلمة » نفسها ، مشتقة عن لفظ لاتينى يعنى « لسان » ، وما الثروة الأدبية إلا نتاج جانبي للكلمة .

ولكن عندما نبعث - من الموت - لغة وآداب من مدرسة ؛ فهائنا تنعكس العلاقة بين الاثنين . ذلك لأن تحصيل اللغة ، يصبح مجرد أداة صعبة تستلزمها مطالعة المصنفات الأدبية . فإذا نتعلم باللاتينية « أيها المائدة » لانستحوز بهذا على ذخيرة لفظية جديدة نعبر بها عن إحساساتنا وقتما يصطدم لإصبع قدمنا فى الظلام بقائمة المائدة . لكن تعلمنا هذه الجملة ؛ هو الخطوة الأولى وأقصرها ، صوب الهدف البعيد لقراءة أعمال فرجيل Virgil وهوراس Horace وبقية المصنفات الأدبية اللاتينية القديمة . وبالأحرى ؛ لا يقصد بتعلم اللغة اللاتينية ، التحدث بها . وعندما نحاول كتابتها ، فنحن لانفعل ذلك ، إلا لزيادة تقديرا لأعمال الجهابذة الأقدمين .

ولعل الخطوة الأولى لتلك ناصية أدب قديم دارس ؛ تتطلب العمل على تعبئة الموارد السياسية لإمبراطورية على قيد الحياة بالفعل .

والنموذج الرائع لحركة بعث أدبي في مرحلتها الأولى ، مائل في :

وضع مختارات شعرية ، أو مجموعة نصوص ، أو كتاب يضم عدة موضوعات ، أو موسوعة يُصنّفها فريق من الأساتذة تلبية لطلب أمير .  
والأمير الذي ينهض لرعاية هذه الأعمال التي تقتضى تعاوناً في البحث ؛ غالباً ما يكون حاكماً لدولة عالمية فتية ، كانت - هي نفسها - نتاج حركة بعث ، على الصعيد السياسي . ومن بين الحكام الخمسة البارزين الممثلين لهذا النموذج :

آشور بانيبال Asshur Banipal قسطنطين بورفيروجنيانس Propyrog- nitus ، يونج لو Yung Lo ، كانج همى Kang Hsi ، تشين لونغ Chien Lung ؛ مجد الأربعة الآخرين ، من النوع الذي ذكرنا . فقد بزّ أباطرة الدولة العالمية الصينية التي بُعثت في الشرق الأقصى ، منافسهم جميعاً ، فيما قاموا من جمع الأعمال الأدبية القديمة المدرسة ، وتحقيقتها والتعايق عليها ونشرها .

حقاً ؛ خفيت على علماء الآثار المحدثين ، حقيقة إتساع مكتبتى آشور بانيبال ( وكانت تتكون من الألواح الطينية وتضم الأعمال الأدبية السومرية والأكادية الكلاسيكية ) . وإن علموا نبأ تجمع هاتين المجموعتين الأشوريتين الكبيرتين وتبدهما ، بفضل استخلاص طائفة من هذه الألواح أثناء أعمال التنقيب التي مارسوها في موقع مدينة نينوى Nineveh . وسبب ذلك ؛ أنه في خلال فترة - اعلمها لاتزيد على ستة عشر عاماً - منذ وفاة هذا الملك العالم ؛ تفرقت ببدأ محتويات هاتين المكتبتين على خرائب تلك المدينة البغيضة التي أُجْتِيحَتْ واستبيحت عام ٦١٢ ق . م .

ولقد تكون مجموعة آشور بانيبال أضخم حجماً من مدونة كنفوشبوس ،  
وهي عماد المصنفات الأدبية الكلاسيكية الصينية ودعامتها . ولم تُطبع أعمال  
هذا الفيلسوف بسهولة على الطبع الرقيق ؛ بل حُفرت بجهد بالغ على الحجر  
الصلد بمدينة سينجان Si Ngan للعاصمة الإمبراطورية لأسرة تانج Tang ،  
بين عامي ٨٣٦ و ٨٤١ ميلادية . ثم طبعت بعد ذلك بمائة عام - مع التعليق -  
في طبعة تقع في مائة وثلاثين مجلداً . ومع ذلك ، ففي وسعنا أن نحرز بشيء  
من اليقين ، أن عدد الحروف في مجموعة آشور بانيبال ، كان يقل كثيراً  
عن عدد الحروف الصينية التي تحتويها المجموعة التي جمعها - خلال أعوام  
١٤٠٣ - ٧ ميلادية - يونج لو Yung Lo ، ثاني أباطرة أسرة مينج : فإن  
هذه المجموعة ، لا تقل عن ٢٢٨٧٧ كتاباً تقع في ١١٠٩٥ مجلداً ، عدا  
فهرس المحتويات . فإذا قورنت بها مجموعة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين  
بورفيروجينيس ( حكم ٩١٢ - ٥٩ ميلادية ) لبدت المجموعة الأخيرة شيئاً  
تافهاً ، وإن أسرت ألباب الغربيين .

فإذا انتقلنا من هذه الجهود المبتدئة ، إلى خيلاء طالب العلم بقدرته على  
إنتاج مُصنّفات يحاكي بها المصنّفات الكلاسيكية التي كرّس لدراستها جهوده ،  
فأجلد بنا ترك الأمر إلى الإحصائيين ليقرروا ما إذا كان عدد المقالات التي  
حررها بالأسلوب الصيني القديم ، المرشحون لإمتحانات الحكومة الإمبراطورية  
للصينية في غضون ١٢٨٣ سنة ؛ تقع بين إعادة نظام الامتحان عام ٦٢٢ ميلادية  
والغائه عام ١٩٠٥ ميلادية ، أكثر أو أقل من عدد تمارين النثر والشعر  
الثلاثيني واليوناني ، التي كتبها الباحثون وتلاميذ المدارس في الغرب خلال  
فترة تقع بين القرن الخامس عشر وتاريخ كتابة هذه السطور .

على أنه ليس في وسع للغرب أو الشرق الأقصى ، أن يُقاس مجهودها  
في استخدام اللغات القديمة التي بُعثت في الأغراض الأدبية الجادة ، بالمجهود  
الذي بذله المؤرخون البيزنطيون . ومنهم أساطين في فهم مثل : ليو دياكونوس

Lao Diaconus مؤرخ القرن العاشر ، وأنا كومنيننا Anna Comnena مؤرخة القرن الثاني عشر ؛ اللذين جعلنا من لغة آتيكا اليونانية ، أدامها في الإبداع الأدبي .

ولربما يقرّ في ذهن القارئ أن ملاحظتنا عن حركات بعث المصنفات الأدبية ، لا يتأتى تطبيقها على حالة البعث الأدبي البحت . وحركة البعث في هذا المقام ؛ هي التي تشغل مكان الصدرة في تفكيره . وبقينا ؛ كانت حركة البعث الإيطالية للآداب اليونانية خلال فترة العصور الوسطى - في جوهرها - حركة بعث تلقائية غير مُدبّرة . ولا تُنكر الرعاية التي أسبغها عليها كبار الساسة من أمثال لورنزو دي ميديشي ؛ وإن كان لا يمكن بنحس قيمة رعاية بابوات القرن الخامس عشر لها ، وبالأخص البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ٥٥ ميلادية) . ولقد استخدم هذا البابا مئات من الباحثين في الآداب القديمة ونسّاخ المخطوطات القديمة ، ومنح عشرة آلاف جولدن Gulden<sup>(١)</sup> لترجمة أعمال هوميروس إلى الشعر اللاتيني ، كما جمع مكتبة ضمتّ تسعة آلاف مجلّد .

ومع ذلك ؛ فلو تركنا لمتكرنا العنان ليعود القهقري عبر التاريخ الغربي - خلال عدة قرون سابقة لعصر النهضة - فإننا لو وجدنا أمثلة تشابه كثيراً تلك التي ما برحنا ندرسها . سنجد شارلمان باعث الحياة لدولة عالمية متممة للحضارة بادت ؛ وهو يسعى لأن يقف جنباً إلى جنب مع : آشور بانيبال ، ويونج لو ، وقسطنطين بورفيروجينيس .

ولقد كانت المحاولة العقيمة الأولى لبعث التراث الأدبي اليوناني في الغرب المسيحي ، معاصرة لميلاد الحضارة المسيحية الغربية . وتدين الكنيسة الإنجليزية بأسلوب تنظيمها في نهاية القرن السابع ، إلى لاجي يوناني من أرض مسيحية أرثوذكسية شرقية غزاها الأتراك العثمانيون . ذلك هو رئيس الأساقفة

(١) الجولدن : عملة ذهبية ، كانت تستخدم في ألمانيا وهولندا . ( المترجم )

تيودور الطرسوسى : أما الداعية لبعث التراث اليونانى فى الغرب ؛ فكان من نورثمبريا<sup>(١)</sup> وهو الأب « بيد » ( ٦٧٣ - ٧٣٥ ميلادية ) . وحمل نورثمبرى آخر : آلكوين من يورك Alcuin of york ( ٧٣٥ - ٨٠٤ ) البذرة إلى بلاط شارلمان . وقبلما تُسحق هذه البذرة قبل الأوان على يد المتبربرين الوافدين من اسكتلنداوه ، لم يكن غارسوها قد اقتصروا على بدء إحياء الأدبيات الهلينية فى ثوبها اللاتينى ؛ بل كانوا قد حازوا أيضاً قسطاً من اللغة اليونانية . إن آلكوين Alcuin كان من الجرأة ، بحيث راح يحلم بأن فى وسعه - معتمداً على رعاية شارلمان - أن يستحضر شيخ أئنا على أرض الفرنجة ؛ وكانت تلك الفكرة ، رؤيا عابرة ؛ وعندما أخذ الغرب المسيحى يخرج من غمار ما كان يُدعى بـ « ظلمة القرن التاسع » ، لم يكن الطيف المنشود ؛ طيف الأدبيات اليونانية الكلاسيكية ، ولكن كان طيف أرسطو وفلسفته . وحل عصر « المدرسين » وانتهى ، قبل أن تتحقق رؤيا آلكوين Alcuin :

فإذا وقفنا عند هذه النقطة لندرس الأسباب التى أحرّت تحقيق آمال « آلكوين » وأصدقائه عدة قرون ؛ تبين لنا اختلاف بين المتلاقين فى المكان - وهو ما كررنا له المبحث السابق من هذه الدراسة<sup>(٢)</sup> - واختلاف آخر بين المتلاقين فى الزمن ؛ وهو موضع بحثنا الحاضر :

إن تلاقياً فى المكان ، هو تصادم فى المكان ؛ والمصادمات هى - عادة - أحداث عارضة . إن البسالة العسكرية أو الحدق فى خوض المحيطات أو تجفيف السهوب ؛ قد تكون عوامل ثقافية غير مباشرة تؤدى

( ١ ) نورثمبريا : مقاطعة كانت تقع فى إنجلترا شمال نهر همبر Humber الذى يقع بدوره

على الساحل الشرقى لإنجلترا بين يوركشير شمال ولينكولنشاير جنوباً . ( المترجم )

( ٢ ) انظر صفحات ٢٦٥ - ٢٣٨ ؛ من الجزء الثالث من هذه الترجمة . ( المترجم )



إلى اصطدام مجتمع بآخر . مع ما يترتب على ذلك من نتائج ثقافية ، سبق لنا وصفها<sup>(١)</sup> .

ومن الناحية الأخرى ؛ فإن تلاقيا في الزمان ( ومداره حركة بعث ) ؛ نوع من « العرافة » يقوم على استحضار « طيف » : ولم ينجح العراف في استحضار الطيف حتى يحذق مهارات حرفته : وبكلمات أخرى ؛ ما كان في وسع الغرب المسيحي استقبال طَيْف ( أو ضيف ) يوناني ، إلا بعد أن يُعِدَّ داره لاستقبال الزائر . لقد كانت المكتبة اليونانية - من الناحية المادية - قائمة في جميع الأوقات ، لكن لم يكن في وسع الغرب الإفادة منها بصورة فعّالة ؛ إلى أن أصبح كفوًّا للاطلاع على محتوياتها . ومن قبيل المثال : كان المجتمع المسيحي في الغرب - حتى في أحلك أيام العصور الوسطى - يملك فعلا أعمال فرجيل . وكان يحتفظ من اللاتينية بقدر يمكنه من تفسير عبارات الشاعر . لكن مضت ثمانية قرون - على الأقل - من السابع إلى نهاية القرن الرابع عشر ؛ كان شعر فرجيل خلالها فوق أفهام أعلى الدارسين المسيحيين في الغرب ، كعباً . وذلك إذا اتخذنا مقياساً للفهم ؛ القدرة على إدراك المعنى الذي قصد فرجيل تضمينه شعره ، والذي كان مفهوما لدى المعاصرين من لدناته ولدى الأعتاب التالية ، حتى جيل القديس أوغسطين ، فحتى دانتي Dante - الذي لاح على روجه أول بصيص لحركة بعث إيطالية للثقافة اليونانية - وجد في فرجيل شخصية ، لا يعتبرها فرجيل الحقيقي تمتُّ إلى شخصه ، لكنها تمتُّ إلى شخصية أخرى أسطورية مُهيبية ، مثل شخصية أورفوس Orpheus .

وبالمثل ؛ أتى على المجتمع الغربي حين من الدهر جهل فيه أعمال

( ١ ) انظر صفحات ٤٠٧ - ٤٥٥ ؛ من الجزء الأول من هذه الترجمة ، و صفحات ١ -

١٤٠ من الجزء الثاني منها .

أرسطو الفلسفية ، حتى ترجمها إلى اللاتينية - ترجمة مقتدرة - آخر علماء الأدبيات الهلينية « بويثيوس Boethius » ( ٤٨٠ - ٥٢٤ ميلادية ) . ومع ذلك ؛ فقد أتى حين من الدهر بلغ ستة قرون - تبدأ من وفاة بويثيوس - أصبحت ترجماته فوق مستوى أفهام أعظم المفكرين المسيحيين الغربيين حدقا . وعندما أصبح المسيحيون الغربيون - في النهاية - على استعداد لفهم أرسطو ، وصلوا إلى فلسفته عن طريق غير مباشر : عن طريق التراجم العربية . وكان « بويثيوس » عندما قدّم إلى الغرب المسيحي في القرن السادس ترجمة لاتينية لأعمال أرسطو ؛ كان بمثابة عمّ خير ، ولكنه لا يحسن تقدير الأمور . فكأنه يقدم أشعار ت . س . أليوت T.S. Eliot إلى ابن أخيه هدية في عيد ميلاده الثالث عشر ، فما كان من الصبي - بعد أن ألقى نظرة على الكتاب - إلا أن أودعه أظلم ركن في مكتبته الصغيرة ، ثم نسي تماماً كل شيء عنه . وبعد انقضاء ست سنوات - وهي في حياة الصبي المراهق تعدل ستة قرون في عمر الأمم - يعود الشاب ( وقد تخرّج من أكسفورد ) إلى الإنصال بهذه الأشعار مرة أخرى ، فيقع أسير فتنها ، فيشتريها من السادة ب . ه . بلاكويل B.H Blackwell (١) . ثم تمتلكه الدهشة ، إذ يكتشف عند عودته لمنزله في أجازته السنوية ، أن الكتاب ظل قائماً على رفوف مكتبته طوال هذا الوقت .

وكما كان الحال مع فرجيل وأرسطو ؛ كان كذلك بالنسبة لروائع الأدب اليوناني التي تكدّست في المكتبات البيزنطية ، ثم كانت الغذاء الأساسي لحركة البعث الإيطالية للثقافة الهلينية . فقد ظل الغرب المسيحي على اتصال وثيق بالعالم البيزنطي طوال فترة بدأت على الأقل من القرن الحادى عشر وما تلاه . وكان الغزاة الفرنجة في النصف الأول من القرن

(١) من أكبر دور النشر البريطانية . ( المترجم )

الثالث عشر ، يحتلون فعلا القسطنطينية واليونان . ولكن ذلك الاحتلال لم يتمخض عن مؤثرات ثقافية في ذلك الوقت . إذ كانت الأدبيات القديمة - إذ ذاك في عرف الغرب - ترفا ، غاية الترف . وقد يقال في تفسير هذه الظاهرة : أن اتصال الغرب بالإمبراطورية الشرقية - وقتذاك - كان اتصالا عدائيا ، لم يكن من شأنه أن يُعزى الغرب بالاهتمام بالمكتبة البيزنطية الحافلة بالأدبيات اليونانية . على أنه يرد على هذا الرأي بأن الاتصالات السياسية والكنسية ، لم تكن بأقل عداء في القرن الخامس عشر ؛ أي حينما كانت « حركة النهضة » في أوج إزدهارها . والسبب واضح ؛ في تباين النتائج الثقافية . فإن بعث ثقافة بائدة ؛ لا يتم إلا عندما يترقى مجتمع - يمت إلى مجتمع سابق بصلة النسب - إلى المستوى الثقافي الذي كان عليه سلفه ، حين حقق تلك الروائع التي أصبح بعثها من جديد ، موضع اهتمام .

فإذا ما تطلعتنا إلى الثقافات الدفينة التي بعثها حركات النهضة الأدبية في الغرب المسيحي والصين ؛ وجدناها تتمتع بنفوذ عارم دون مقاوم ، جرّدها منه عنصر دخيل أجنبي أثبت تفوقه . وتمثل هذا الدخيل في هيئة حضارة غربية حديثة سيطرت على روح الغرب المسيحي خلال القرن السابع عشر الميلادي ، وعلى روح الصين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وقد تُرك المجتمع الغربي يصارع وحده « طَيْف » الثقافة اليونانية الذي ( استحضره ) المتشبهت به ، دون تدخل من أحد . ولكن « حرب الدعاية » التي نُشبت في نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر ، أظهرت الطريق الذي تهب منه الريح . وهي حرب أطلق عليها « سويفت

Swift<sup>(١)</sup> « حرب الكتب . وكان المتنازعون خلالها يتجادلون حول فضائل «القدماء» وفضائل «المحدثين» . ويبدو أن القضية موضع الجدل ، تهور حول ما إذا كان قد قُدِّرَ للثقافة الغربية أن تظل في موضعها ثابتة لا تريم ، يشلّ تطورها إعجاب بالماضي ونزعة إلى محاكاة القدامى ؛ أو قدّر لها أن تمضي قدماً نحو المجهول ، مخلّقة وراءها آراء الأقدمين .

هذا السؤال بهذه الصيغة ، لا يحتمل إلا رداً واحداً معقولاً : لكن السؤال نفسه قد ادعى صحة أمر سابق ، بغير إقامة البرهان على صحته : ومداره ما إذا كان الإعجاب بالماضي ومحاكاة القدامى ( وهو ما يمكن تسميته بالتعليم التقليدي الغربي الحديث في أوسع معانيه ) قد عوّق بالفعل حركة التطور الحديث .

وضح أن الإجابة عن هذا السؤال ، في مصلحة القدامى . ومما له دلالته ؛ أن بعضاً من رواد الدراسات الهلينية — كـ Petrarch و بوكاشيو Boccaccio — كانوا طلائع في الآداب الإيطالية الدارجة . وبدلاً من أن يعوّق بعث الدراسات اليونانية نمو هذه الآداب الإيطالية الدارجة . أمدتها بقوة دافعة جديدة . ومصداقاً لهذا الرأي ؛ إن تملك إرازمس Erasmus لللاتينية على أسلوب شيشرون ، لم يفتر رفاقه في الغرب عن العناية بلغاتهم الوطنية . ويستحيل — إطلاقاً — تقويم الرباط الثقافي — مثلاً — للعلّة والمعلول بين الدراسات الإنجليزية للأدبيات الهلينية خلال القرن السادس عشر ، وتفجّر شعر إنجليزي لا مثيل له في تألقه ؛ في نهاية القرن نفسه . فهل عاونت شكسبير على تأليف مسرحياته ، حصيلته الضئيلة من اللاتينية وبضاعته الأضال منها من اليونانية ؟

(١) جونانان سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) : كاتب إنجليزي ساخر . وفي طليعة مؤلفاته « حرب الكتب » وألفه عام ١٦٩٨ . وفي عام ١٧٠٥ نشر كتابه « قصة البرميل » . وأشهر ما كتبه « رحلات جوليفر » التي نشرها عام ١٧٢٦ . ( المترجم )

من سيقول بهذا ؟

لعله يُظن أن ميلتون قد استحوذ على قدر أعظم من اللاتينية واليونانية ؛ ولكن ؛ لولم يُقيِّض له قسط من اللغتين ، ما قدّر أن يكون عندنا « الفردوس المفقود ولا « آلام شمشون » .

## ٦ - بعث الفنون المرثية

من الظواهر المألوفة ، حركة بعث نوع أو آخر من الفنون المرثية المنتمية لحضارة بائدة ، في تاريخ الحضارة التي تخلفها . وفي وسعنا أن نسرّد كأمثلة :  
١ - بعث أسلوب « الدولة القديمة » في النحت والتصوير ، بعد انقضاء ألفي سنة ؛ وذلك خلال العصر الصاوي في أواخر أيام التاريخ المصري ، إبان القرنين السادس والسابع قبل الميلاد .

٢ - بعث الأسلوب السومري في الحفر خلال القرون : التاسع والثامن والسابع قبل الميلاد ، في العالم البابلي ؛

٣ - بعث الأسلوب الهليني للرسوم المحفورة - على صورة مصغرة - خلال القرون : العاشر والحادي عشر والثاني عشر الميلادية . وكانت أدق أمثلتها ، الطرائف التي صنعت في آتيكا خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . وكان أن استُخدم هذا الأسلوب في الحفر على العاج البيزنطي ذي الطبقتين .

على أن هذه الحركات الثلاث ؛ لا يمكن مقارنتها - سواء في مدى إتساعها أو في قوة تجرّدها من تأثير العناصر السابقة - ببعث الفنون المرثية اليونانية في الغرب المسيحي . وقد ظهرت للمرة الأولى في إيطاليا في أواخر العصور الوسطى ، ومنها انتشرت إلى سائر أنحاء العالم الغربي ؛

وتجلى هذا الاستدعاء لطيف الفنون المرثية اليونانية في مجالات ثلاثة :

العمارة ، النحت والرسم . وبلغ من قوة اكتساحها في كل مجال ، أنه - حتى عندما استنفدت طاقته - تلا ذلك نوع من الفراغ الجمالي<sup>(١)</sup> . فوقع الفنانون الغربيون في حيرة في كيفية التعبير عن عبقريتهم الوطنية التي ظلت مغمورة أمداً طويلاً .

ونفس القصة العجيبة لدار نظمها وزخرفتها الأيدي القوية لأطياف زائرة ، يجب ذكرها عند ورود سيرة هذه المجالات الثلاثة للفنون المرئية الغربية . لكن أعظم قصة خارقة للعادة من تلك القصص الثلاث ؛ تتمثل في انتصار التأثير اليوناني على عبقرية الغرب الوطنية في مجال النحت ( من كل الجوانب ) . في هذا المجال ؛ أنتج الفنانون الفرنسيون الشماليون من القرن الثالث عشر - الذين كانوا يعبرون عن الأسلوب الغربي الأصيل - روائع تقف ندماً لخير ما أنتجته مدارس النحت اليوناني والمصري والمهاباني البوذي ، ولكن لم يُقيِّض للفنانين الغربيين في مجال الرسم ، أن يتخلصوا من القوامة التي فرضها عليهم فن الرسم الأسبق الذي اعتنقه المجتمع المسيحي الأرثوذكسي ؛ شقيق المجتمع المسيحي الغربي . أما في ميدان العارة ؛ فإن الطراز الروماني ، لم يكن - كما تدل عليه علامته المميزة في أخريات أيامه - إلا إنحرافاً عن منهج موروث عن العصر الأخير لحضارة هليينية سابقة . وقد تغلب عليه طراز قوطي دخيل ، نشأ - كما قررنا من قبل - في العالم السوري : عالم الخلافتين العباسية والأندلسية .

وما يزال ساكن لندن من المستنيرين في القرن العشرين ؛ يؤمن في قرارة نفسه بأن الصراع الدراي - في ميدان الفن - بين الفن المرئي الغربي الوطني الذي مُمِّي بالهزيمة مرتين ، وبين الفن المرئي السوري والهليلي ؛ هذا الصراع لا يزال قائماً ماثلاً - وإن تحوّل إلى الحجر - في عمارة الكنيسة

(١) الجمال : ذو العلاقة بجمع الجمال . ( المترجم )

التي أضيفت إلى كاتدرائية وستمنستر برعاية الملك هنري السابع ، وما تحويه تلك الكنيسة من تماثيل :

- ١ - يدل السقف المقبب على انتصار أخير لطرز قوطي مختصر .
- ٢ - في الكنيسة حشد من الوجوه الحجرية تنتصب في أعلى مكان بها ؛ وتحديق تجاه شعار يصطبغ بالصبغة الإيطالية ، ويمثل الثالوث الأقدس .
- ٣ - أُقيمت بأسفل الشعار ، تماثيل مستقلة على قبور تحمل طابعا فنياً يونانياً .

٤ - نجد تماثيل بجعة تشدو بأغنية صامتة تصدر عن شفتين جامدتين ؛ وهذه تمثل - بدورها - مدرسة فنية تنتسب إلى العمارة الوطنية في الغرب المسيحي ؛ وهي مدرسة وفدت من بلاد ما وراء الألب .

٥ - تستأثر روائع « توريجياني Torrigiani » ( ١٤٧٢ - ١٥٢٢ ميلادية ) ذات الصبغة الطلينية ، بوسط المسرح الفنى :

وكان هذا الفنان المهاجر من فلورنسا ، قد تطلع في همة وثقة ، إلى تنفيذ عمله الكفء المهدّب - متجاهلا في لإزدراء الوسط الفظ الذى تواضع بالعمل فيه - راجيا أن تغدو أعماله من بعده ، مطمح جميع أنظار الناس فيما وراء الألب . ذلك لأننا نعلم من السيرة التي وضعها بنيفينتو سيليني Benevento Cellini لنفسه ، أن توريجياني هذا كان « شخصا متعجرفا حريصا على التباهي بين أولئك الإنجليز الوحوش <sup>(١)</sup> .

وصفوة القول ؛ استمرت العمارة القوطية محتفظة في لندن بمركزها المرموق حتى الربع الأول من القرن السادس عشر ، وفي أكسفورد حتى النصف الأول من القرن السابع عشر . وكانت قد أقصيت عن الميدان

(١) صفحة ١٨ من الفصل السابع من الكتاب الأول - Benevenuto Cellini : Auto-biography - English Translation by J . A. Symonds .

قبل ذلك بوقت طويل في شمال إيطاليا ووسطها ، حيث لم تنجح قط نجاحها حاسماً ؛ كما نجحت في أوروبا فيما وراء الألب ، في إزاحة طراز البناء الروماني عن مكانته .

وإن الإجداب الذي أصاب العبقرية الغربية بتأثير بعث الطراز اليوناني في ميدان العمارة ؛ ظهر في فشل هذه العبقرية في الإفادة من نتائج الثورة الصناعية ؛ على أن التغيير المفاجئ في الأسلوب الفني الذي اقترن بالثورة الصناعية ، قد استولد الرافدة الحديدية : فكان أن وقعت في يدي مهندس البناء الغربي ، مادة بناء تتعدد أوجه استعمالها ، تعدداً لا يقاس إليه شيء آخر . وتمّ هذا وقتما استنفد أسلوب البناء الهليني التقليدي بشكل واضح . ومع ذلك ؛ فإن المهندسين المعماريين الذين مثّلهم الحداد مع عارضة حديدية ، لم يفكروا في وسيلة للمء الفراغ في الوقت المناسب ، أفضل من تنويع حركة بعث هليني بـ « حركة إحياء فنية قوطية » .

وكان أول من فكّر من الغرب - صراحة - في الإفادة من العارضة الحديدية - دون أن يُضفي عليها شكلاً قوطياً يخفي غلاظتها - هاويّاً رُزق سعة الخيال ؛ ولم يكن مهندساً محترفاً . ورغمما عن كونه مواطناً أمريكياً ، وكان البوسفور - لا ضفاف المهدسون - هو الموقع الذي شاد عليه بنيته التاريخية : تلك هي « قائمة هاملين » التي كانت النواة التي قامت حولها كلية روبرت التي تُشرف على قلعة محمد الفاتح على الجانب الأوربي ؛ وقد شيدها سيروس هاملين Cyrus Hamlin خلال أعوام ١٨٦٩ - ٧١ . على أن هذه البكرة التي وضعها « هاملين » لم تبدأ تؤتي ثمرتها في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية ، إلا في غضون القرن التالي .

ولم يكن إحمال العبقرية الفنية الغربية بأقل وضوحاً في ناحيتي الرسم والنحت :

ففي خلال فترة تزيد على الخمسمائة عام - تبدأ من جيل جيوتو



Giotto ( توفي عام ١٣٣٧ م ) معاصر دانتي Dante - استخدمت مدرسة حديثة للرسم في الغرب ، المرة بعد الأخرى ؛ أساليب متعددة لنقل الانطباعات البصرية التي يُحدثها الظل والضوء . ولا شبهة في أن هذه المدرسة تقبلت الفن الهليني في مرحلة تطوره الأولى ، أي وقما استوحى من الطبيعة مُثله العليا . ولما تيسر اختراع الفوتوغرافيا ، تزعزت قيم الجهود المضنية التي بذلها رسامو النهضة لإبراز التأثيرات الفوتوغرافية عن طريق استعانتهم بأساليب الرسم الفنية .

وهكذا ؛ بعد أن مادت الأرض تحت أقدام الرسامين الينويين بسبب مستحدثات العلم الغربي ؛ لجأوا إلى إحياء أسلوب فني ، كان قائماً قبل عصر رافاييل . وكان هذا الأسلوب شائعاً إبان العصر البيزنطي ، وتبرأ منه فنانونه منذ وقت طويل . وتلك مرحلة فنية طرقتها الرسامون المحدثون قبل تفكيرهم في ارتياد عالم النفس الجديد . وقد هيا لهم علم النفس مرحلة فنية اقتحموها فعوضتهم عن عالمهم القديم : عالم الهيئة الطبيعية ، الذي اختلسه منهم المصور الفوتوغرافي ؛ وقدمه للناس .

وبهذا برزت إلى الوجود مدرسة ملهمة تضم بين طياتها المصورين الذين ابتكروا فناً أصيلاً ؛ قوامه استخدام الرسم - بلا موازنة - للتعبير عن التجارب الروحية - وهم في نطاق الحدود التي تجعلهم وسطاً بين تطور العمارة والرسم - فقد بدأوا يرتادون تلك التجربة المثيرة نفسها .

## ٧٧١ - بعث النظم والمثل العليا الدينية

يقدر ما كانت العلاقة بين المسيحية واليهودية واضحة لليهود وضوحاً يلغونونه ؛ كانت غامضة للضائر المسيحية غموضاً مربكاً .

وبعبارة أوضح ؛ كانت العقيدة المسيحية في أعين اليهود ، نحلة يهودية مارقة . ويقررون أنها - بشهادة الإضافة التي أقحمت على

التوراة<sup>(١)</sup> ؛ قد ارتكبت إثمًا ضد تعاليم الفريسي الجليلي الضال السيئ الطالع ، الذى اتخذ الخونة للفريسية<sup>(٢)</sup> اسمه باطلا . وينظر اليهود إلى بلحاج المسيحية فى السيطرة على المجتمع الهلنسى - بما يشبه المعجزة - على أنه ليس بأى حال من الأحوال ، من فعل الرب . وإن الانتصار الذى حازه حاخام يهودى بعد وفاته - على قول اليهود - وكرمه أتباعه بأسلوب الاممين<sup>(٣)</sup> كإبن الله من أم بشرية ؛ كان هذا الانتصار فكرة وثنية من نوع الانتصارات الأولى لأنصاف الآلهة الأسطوريين المتشابهين من أمثال ديونيسوس<sup>(٤)</sup> وهرقل<sup>(٥)</sup> .

(١) الإضافة من الإنجيل الذى لا يعترف اليهود به إطلاقاً . ( المترجم )  
 (٢) الفريسي الجليل : من طائفة الفريسيين من مقاطعة الجليل بفلسطين . ويعنى اليهود به السيد المسيح . والخونة هو الاسم الذى يخلمه اليهود على المسيحيين باعتبارهم خانوا الرسالة اليهودية . ( المترجم )

(٣) أسلوب الاممين : أى أسلوب غير اليهود . والحاخام اليهودى فى هذه الفقرة هو السيد المسيح . إذ يؤمن اليهود بأن عيسى عليه السلام لم يكن سوى رجل دين يهودى « حاخام » كرمه أتباعه ( من غير اليهود ) بتأليههم إياه وجعله ابن الله . فألصقوا به الأساطير التى كانت شائعة عن البشر المؤطرين أو الآلهة ذوى الصفات البشرية أمثال أوزيريس فى الأساطير المصرية القديمة وديونيسوس فى الأساطير اليونانية . ( المترجم )

(٤) ديونيسوس : هو باخوس Bacchus فى الأساطير الرومانية ، اعتبر فى العصور المتأخرة رب الخمر ، لكنه فى الأصل : الروح التى تنحكم فى مصائر الإنبات وتسيطر على الزراعة . ( المترجم )

(٥) هرقل : أشهر أبطال الأساطير اليونانية القديمة . وتقرر أنه ابن زيوس كبير أرباب الأوثان من أم بشرية تدعى آييين Alemene من مدينة طيبة . وتخلع عليه الأساطير صفة القوة الخارقة منذ ولادته . وكان والده زيوس يحبه باستمرار من المخاطر التى كانت تدبرها له زوجة أبيه هيرا Hera . وتنتهى أسطوره بالقول إنه بعد أن أوشك أن يحرق مرت سحابة أمطرت فأطفأت النيران ، ثم حملته السحابة إلى السماء فأصبح إلهاً كاملاً . ( المترجم )

وتخادع اليهودية نفسها بأنه كان في وسعها أن تحرز انتصارات المسيحية في استهواء العالم الهلننى ؛ لو أنها أحنت رأسها لفكرة التوسع ، فنزلت إلى مستوى المسيحية .

أما المسيحية ؛ فإنها لم تُنكر إطلاقاً شرعية كتاب اليهود المقدس ؛ بل إنها قد أدجمته في كتابها المقدس ذاته . واستطاعت المسيحية - وفقاً للوجهة النظر اليهودية - إنجاز فتوحاتها في يسر وسهولة ، بفضل إعراضها عن مبادئ أساسيين تضمنتهما الوصيتان الأولى والثانية من الوصايا العشر : «الوحدانية ، ونبذ عبادة الصور والتماثيل .

وتستطرد اليهودية قائلة بأن عقيدتها إذ تواجه وثنية عاتية ظاهرة بوضوح تحت قشرة المسيحية ، غداً واجباً عليها أن تظل صامدة متمسكة بأداء رسالتها في حمل كلمة الرب السرمدية .

وهذا الترفّع العميق الثابت الذى ما فتئت اليهودية تنظر به إلى النجاح المثير الذى حققته المسيحية ؛ كان يتيسر أن يصبح أقل حداثة ، لو لم تكن المسيحية نفسها قد مزجت بين ولائها الصادق - من الناحية النظرية - لتراث اليهودية بالنسبة للوحدانية ومناهضة تقديس الصور والتماثيل ، وبين المظاهر العملية المقتبسة من شرك الهيلننيين المهتمدين للمسيحية وعبادتهم الأوثان ؛ وهو ما يتهمها به نُقادها اليهود<sup>(١)</sup> . ولا شك أن إعادة الكنيسة

(١) إن الإخلاص التام للوحدانية وتحريم تقديس الصور والتماثيل تحريماً لا هوادة فيه ؛ لم يخل بين اليهود وكرهية الإسلام كراهة عيابه والكيد للمسلمين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الآن . وفي هذا يقول الله تعالى في محكم آياته « لتجدن أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » .

وفي اعتقادي أن عداة اليهود للمسيحية له عاملان أساسيان :

الأول - روحانية المسيحية . فإنها تنادى بأن ملكة الرب تقع في الآخرة وليست الدنيا . وهذا هو عكس ما تنادى به اليهودية من أن ملكة الرب في الدنيا وأنه تعالى =

المسيحية تشييد كتاب اليهود المقدس في شكل « العهد القديم » للعقيدة المسيحية ؛ لمو نقطة ضعف في دفاع المسيحية نفذت منه سهام النقد اليهودى إلى الضمير المسيحى . إن العهد القديم كان أحد الدعائم التى استقرت عليها صرح المسيحية .

لكن هناك كذلك مذهب التثليث<sup>(١)</sup> وعبادة القديسين ؛ ورسم القديسين - بل والأقانيم الربانية الثلاثة فى أعمال فنية مرئية ذات أبعاد ثلاثة أو بُعدين اثنين .

= قد اصطفى اليهود دون بقية البشر فوعدم بإقامة دولة عاصمتها أورشليم تتحكم فى أنحاء العالم بأسره ويكون فيها اليهود السادة والأسيون ( أى غير اليهود ) العبيد .

الثانى - اعتقاد اليهود بأن الخلاص ( أو النفران ) يمنحه الرب لليهود وحدهم - وهذا الخلاص - كما سلف القول - له صورة دنيوية تعنى تملك اليهود رقاب البشر ، وأخرى أخروية تعنى استئثار اليهود بجنة الله وحدهم . فى حين أن الخلاص عند المسيحية للبشر جميعاً ، وصورته روحية .

ويكره اليهود الإسلام لأنه سلهم إحتكار مبدأ الوحدانية ، ولأن الإسلام يتسامى فى مبادئه على اليهودية بما لا يقاشر . بالإضافة إلى عالمية الدين الإسلامى . فالإيمان بالله الواحد الأحسد الفرد الصمد ليست نعمة اختص الله بها اليهود وحدهم أى جنس آخر ، بل هى متاحة للبشر جميعاً لا فرق بين عنصر وآخر . ( المترجم )

( ١ ) مدار مذهب التثليث أن الله فى الطبيعة واحد ، لكنه ثلاثة أقانيم مميزة هى : الأب ، الإبن ، الروح القدس . وتقرر دائرة المعارف البريطانية ( جزء ٢٢ صفحة ٤٧٩ - طبعة ١٩٦٤ ) بأنه يتيسر التعبير عن المذهب المسيحى بشأن التثليث بالكلمات التالية :

« الأب إله والإبن إله والروح القدس إله . لكن لا يجوز القول بوجود ثلاثة آلهة ولكن بوجود إله واحد . . . وإذا كان كمال الطبيعة واحداً فى الأب والإبن ، والجوهر والاعتبار واحد فى الحالين ، إلا أن العلاقة بين الأب والإبن هى كالعلاقة بين المعطى ومتلقى العطية . وقد قارن كتاب المسيحية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، العلاقة بين الأب والإبن بالعلاقة بين الالهب والنسياء وبين نبع الماء وتياره . . ( المترجم )

فكيف تسنى للمنافحين عن المسيحية الردّ على دعوى اليهود بأن ما تمارسه الكنيسة من التراث الهليني ، يتفق ونظريتها المستمدة من اليهودية ؟

تطلب الأمر شيئاً من الإجابة يُقنع عقول المسيحيين بأن هذه الحجج اليهودية لا تقوم على أساس ؛ ذلك لأن فحوى هذه الحجج يكمن في الاقتناع - عن استجابة - بالخطيئة ؛ ذلك الاقتناع الذى أثارته تلك الحجج في نفوس المسيحيين .

وبعد تحوّل جماهير العالم الهليني حملة - واسمياً - إلى المسيحية في غضون القرن الرابع الميلادى ؛ جنح الجدال المحلى في قلب الكنيسة ، إلى حجب الجادلات التى كانت قائمة بين المسيحيين واليهود . لكن يبدو أن الحرب اللاهوتية ، على هذه الجبهة القديمة ، قد أثارَت حياً مرة أخرى في غضون القرنين السادس والسابع ، نتيجة لحملة تطهيرية في العالم اليهودى تهدف إلى تنقية كيان المجتمع اليهودى في فلسطين ؛ وقد بدأت في أواخر القرن الخامس . وكان لهذه الحملة الداخلية في داخل نطاق العالم اليهودى ضد ما ظنه اليهود تراخياً - شبيهاً بالتراخى المسيحى - في موضوع تزيين جدران المعابد اليهودية ؛ كان لهذه الحملة آثارها على الجدال الدائر بين اليهودية والمسيحية .

ولكن إذا ما تحوّلنا إلى النزاع الآخر المشابه داخل الكنيسة نفسها ، بين المؤيدين لتقدّيس الأيقونات<sup>(١)</sup> والمناهضين لها ؛ هالنا ما اتسم به من عناد وشمول . ووجدنا هذا « النزاع الذى لا يهدأ » يتفجّر في كل صقع من أصقاع العالم المسيحى ، ويكاد يتصل في جميع أجيال التاريخ المسيحى المتعاقبة ، ولا يقتضى الأمر هنا أن نورد أمثلة في قائمة طويلة تبدأ من

(١) الأيقونات : يُقصد بها هنا الصور ذات القداسة الخاصة . مثل الصور التى تُنسب إلى السيد المسيح أو السيدة المذراء أو القديسين . . . الخ ( المترجم )

القاعدة السادسة والثلاثين لمجمع « ألفا ١ Elvira » ( حوالى عام ٣٠٠ م - ١١٠ ) التى تحرم عرض الصور فى الكنائس .

وفى غضون القرن السابع الميلادى ، جدّ فى النقاش عامل جديد ، كأنه ممثل جديد ظهر على مسرح الأحداث التاريخية على نحو رائع ومؤثر . فقد نشأ حينئذ دين جديد مكتمل النمو : كان الإسلام يتعصّب للتوحيد ويناهض التصوير مثلاً . ينتغى أى يهودى . وبفضل ما حققه أنصاره فى الميدان الحربى من نجاح متوال - وبعد ذلك بقليل فى المجال التبشيرى كذلك - واجه المسيحيون أمراً خطيراً جديداً يشغل تفكيرهم .

وشبهه بهذا ما أثارته الانتصارات الحربية والتبشيرية التى حققها أتباع الشيعية فى نفوس أهل الغرب الحديث ، من إعادة البحث الجدى فى تقييم النظم الاجتماعية والاقتصادية التقليدية فى الغرب .

كذلك فإن انتصارات العرب المسلمين الأولين قد ألقت وقوداً جديداً على المجادلات التى ظلت تدور أمداً طويلاً حول « وثنية » المسيحية :

فى عام ٧٢٦ ميلادية ؛ هبط على مسرح الأحداث ، ذلك الطيّف « اليهودى » الممثل لتحريم تقديس الأيقونات ، بعد أن ظل يحوم زمناً طويلاً . ذلك حين أصدر ليو سيروس الإمبراطور الرومانى الشرقى قانون تحريم الأيقونات . لكن ثبت فشل استخدام السلطان السياسى فى محاولة فرض حركة ترقى إلى حركة بعث فى المجال الدينى . فإن البابوية قد تحمست فى تأييد المعارضة الشعبية لتحريم الأيقونات . وبذلك اتخذت البابوية خطوة طويلة المدى للتحرر من سيطرة « بيزنطة . أما الحركة التالية التى قام بها فى الغرب « شارلمان » فى غير حاسة كبيرة لاقتفاء سياسة الإمبراطور ليو سيروس ؛ فقد لقيت من البابا « هادريان الأول » توبيخاً حاسماً ؛ فكان على الغرب أن ينتظر ثمانية قرون أخرى ليشهد حركة بعث مستمدة من اليهودية . وعندما وقّدت هذه الحركة ؛ سرت فى

المجتمع من أدنى إلى أعلى ، وقام فيها مارتين لوثر بدور الإمبراطور ليو سيروس .

ولم تكن مناهضة الصور والتماثيل في الإصلاح البروتستانتي للكنيسة الغربية ، هي « الطيِّف اليهودي » الوحيد الذي وُقِّعَ إلى إعادة توكيد وجوده . فإن التشدد في المحافظة على الأحكام المتصلة بيوم السبت<sup>(١)</sup> ؛ قد استهوى في نفس الوقت ، المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . وليس من السهل تفسير إحياء هذا العنصر الآخر من التعاليم اليهودية . فإن الإفراط في التزمّت الذي دفع اليهودية - يهودية ما بعد المنفى - إلى التثبُّت بمراعاة أحكام السبت ؛ كانت استجابة معينة من جانب الشعب ، لتحدٍ معين . إذ كان هذا التثبُّت جزءاً من أسلوب « التشتت » الذي اعتنقه اليهود للمحافظة على وجودهم المشترك .

أما البروتستانتية ؛ فكانت تهدف قصداً إلى العودة إلى الممارسة الفطرية لأحكام الكنيسة ، في أيامها الأولى . على أن البروتستانت يتجاهلون هنا تماماً ، فارقاً بين المسيحية الأولى واليهودية ؛ وهو فارق كانت تُصرِّح عليه الكنيسة في بداية عهدهما .

فهل يُعقل أن يكون هؤلاء المسيحيون المتمسكون بحرفية الإنجيل ، غافلين عن الفقرات العديدة الواردة في الأناجيل التي ذكرت أن « يسوع » قد تحدّى الخطر الذي فرضته عقيدة السبت ؟

هل يُعقل أن يكون قد فاتهم أن بولص - الذي يمجّدونه مغتبطين - قد جاب على نفسه سخط اليهود بسبب إنكاره الشريعة الموسوية ؟

(١) لا يعنى هذا أن المسيحيين البروتستانت قد جعلوا من يوم السبت سابع أيام أسبوعهم . بل ظل الأحد هو اليوم السابع لكنهم احتفظوا بجوهر الأحكام التي أمتثلها اليهود على يوم السبت . والكلمة العبرية هي « شبت » وتعنى الراحة . وقد ورد في التوراة أن الرب قد عقد مع اليهود ميثاقاً بمقتضاه يستريحون آخر الأسبوع تشبهاً به عندما خلق الدنيا في ستة أيام ثم استراح في السابع . ويذكر كثير من الدلائل، أن أسطورة السبت بابلية الأصل كثيرها من الأساطير الواردة في التوراة . ( المترجم )

مناطق التفسير : أن هؤلاء المتحمسين الدينيين في ألمانيا وإنجلترا واسكتلندا ونيو إنجلاند وفي غيرها . . . كانوا مأخوذين بسحر حركة من أقوى حركات البعث ، وكانوا يميلون إلى الاستحالة إلى « يهود مقلّدين » مثلما مال الفنانون والباحثون الإيطاليون إلى الاستحالة إلى أثينيين مقلّدين . وإن لجوعهم إلى تسمية أطفالهم وقت العماد ببعض ما يوجد في العهد القديم من أسماء تصكّ آذان التوتون صكّاً شديداً ؛ لظاهرة صارخة لهذا الهوس لبعث عالم مندرس ، إلى الحياة من جديد .

لقد سبق لنا - ضمناً - أن قدّمنا عاملاً ثالثاً في حركة البعث للعالم اليهودية التي قامت بها البروتستانتية في الغرب ؛ أعنى الإغراق في تبجيل الكتاب المقدس ، أي عبادة نص مقدس كبديل لعبادة صور مقدسة . وما من شك في أن أتقياء البروتستانت أو البيوريتان - بل أهل الغرب بوجه عام - قد أفادوا كسباً ثقافياً من ترجمة الإنجيل إلى اللغات الدارجة ، ومن إنكباب أجيال من الناس البسطاء على قراءته ؛ وهم لا يكادون يقرأون غيره . وهذا بدوره ؛ قد أخصب الآداب الوطنية بما لا يقاس ، واستثار الرغبة في التعلّم عند سواد الناس . وغدت قصص الإنجيل - بصرف النظر عن قيمتها الدينية - أفاصيص شعبية ؛ فاقت في أهميتها الإنسانية ، كل شيء آخر أتبح لأهل الغرب من أي مصدر قومي . أما بالنسبة للأقلية من المتحدلقين ؛ فإن الدراسة النقدية للنص المقدس ، كانت بمثابة تدريب على نقد آخر أعلى ؛ قدّر له أن يطبّق بعد ذلك في جميع ميادين البحث .

وفي نفس الوقت ؛ أصبحت النقمة المعنوية والفكرية القائمة على الكتابين المقدسين ، عبودية بروتستانتية تحررت منها الكنيسة الكاثوليكية بعد أن أصلحت من شأنها قرارات « مجمع ترنت »<sup>(١)</sup> ؛ وإن بقيت تحت سلطان للقسس .

(١) مجمع ترنت : عقد بمدينة ترنت خلال أعوام ١٥٤٥ - ١٥٦٣ ، وفيه تقرر إصلاح الكنيسة الكاثوليكية ذاتها . (المترجم)



إن الإصرار على اعتبار العهد القديم كلمة الرب التي لا يأتها الباطل من أمامها ولا من خلفها - على الرغم من أنه ثبت بجلاء أنه ليس إلا تصليفاً أو مجموعاً من إلهاء البشر متفاوت في لقيمتها الدينية والتاريخية - إن هذا الإصرار ، قد أسبغ ثوباً دينياً على هذا العناد الغبي الذي دفع ماتيوارنولد إلى اتهام الطبقة الوسطى في عصره الفيكتوري - التي كانت تحرص على الفضيلة - بأنها تعيش في « غديه عبري » (١) .

---

( ١ ) أي تتأثر في مجريات حياتها بالأساليب اليهودية ، كما وردت في التوراة .  
( المترجم )

الباب الحادى عشر  
القانون والحرية فى التاريخ

## الفصل الخامس والثلاثون

### المشكلة

#### (١) معنى القانون

ما كان الإنسان في الغرب طوال المائة سنة السابقة لعام ١٩١٤ ؛  
ليشغل باله إلا في القليل ، بالمشكلة التي علينا الآن مجابهتها : إذ كان  
يبدو وقتذاك إن كلا الحلين التاليين واف بالغرض :

فإذا كانت مقادير البشر تخضع لقانون أعلى من مستوى البشر ،  
لا بد وأن يكون هذا القانون هو سنة الارتقاء ، التي كانت تنفي تماماً  
بالغرض في ذلك الوقت .

أما إذا لم يكن ثمة - من ناحية أخرى - وجود لمثل هذا القانون ؛  
لأمكن أن يقال - بكل ثقة - أن نشاط الكائنات البشرية التي أوتيت  
الحرية والذكاء ، سوف يحقق نفس النتيجة :

على أن الموقف قد اختلف تماماً بحلول منتصف القرن العشرين ؛  
إذ عُرِف أن حضارات قد انهارت في الماضي . وتكشفت ناطحة  
السحاب الزائفة التي شادها الإنسان الغربي الحديث ، عن صدوع تُنذر  
بتقويضها .

فهل ثمة قانون كذلك الذي استخلصه أوزوالد سبنجلر في مؤلفه  
العظيم «إنحلال الغرب<sup>(١)</sup>» الذي نشره عام ١٩١٩ والذي يذهب إلى أن

هذه الحضارة مقدّر عليها أن تمضي في نفس السبيل الذي سلكته سابقاتها .  
أو هل نحن أحرار في إصلاح أخطائنا وتقرير مصيرنا ؟

تتطلب أولى خطوات بحثنا ، تحديد معنى لفظ « قانون » في هذا المجال . وواضح أننا لا نقصد به تشريعاً يسنّه الإنسان ، أخذ اللفظ منه باستعارة شائعة الاستعمال ، إلى حد أن أحداً لم يعد يانفت إليها . إن « القانون » الذي هو موضوع بحثنا الحالي ، يشبه فعلاً ذلك النظام المعتاد الذي يضعه الإنسان ؛ من ناحية كونه مجموعة من قواعد تحكم شئون البشر . لكنه يخالف ذلك النظام في أنه ليس من صنع الإنسان ، ولا قبيل للإنسان بتعديله .

وهذه الفكرة عن القانون - كما لاحظنا في جزء سابق من هذه الدراسة<sup>(١)</sup> . قد تتباور ، عند نقلها إلى المستوى الميتافيزيقي<sup>(٢)</sup> ، في رأيين يناقض أحدهما الآخر تناقضاً واضح المعالم :

فالعقول التي تنصو ، أن شخصية المشرع البشري أعظم قدراً من القانون الذي يُقيمه ، ترى أن القانون ميتافيزيقي الذي يسوس الكون ، صادر عن إله قادر على كل شيء .

وأما العقول الأخرى التي تنصو أن شخصية المشرع - أو الحاكم - تكيفها فكرة الذي يُقيمه ، ترى أن القانون الميتافيزيقي الذي يسوس الكون ، إنما هو قانون لم يُسنه أحد ؛ قانون منبثق عن طبيعة نمطية صارمة لا تلبس .

وتفصح هاتان الفكرتان - كلتاهما - عن مظهر يبعث الغراء والذعر معا :

(١) انظر صفحة ٣٦٩ - ٣٧٤ من الجزء الثاني من هذه الترجمة .

(٢) الميتافيزيقي : نسبة إلى فلسفة ما وراء الطبيعة . وتعمى بدراسة بداية كل ما في الوجود ، والبحث عن طبيعة الأشياء وكطرتها وإله الكون وخصائصه . . وغير ذلك من الغيبات . ( المترجم )

وتتجلى ظاهرة الذعر من قوانين الطبيعة ، فيما تتسم به من الثبات ؛ وإن كان لهذا الثبات ما يعوّضه . فطالما كانت هذه القوانين ثابتة ، يستطيع العقل البشرى كشفها . فيكون إدراك الطبيعة في متناول العقل البشرى ؛ وهذا الإدراك قوة . ويستطيع المرء معرفة قوانين الطبيعة حتى يُخضعها لأغراضه الخاصة . ولقد أصاب في هذا المجال نجاحاً مذهلاً : فقد شطر الذرة ، وبأية نتائج !!؟

إن النفس البشرية التي ترتكب المعصية وتعتقد أن لا سبيل لخلاصها إلا بنعمة من عند الله ؛ ستكون عرضة - أسوة بداود النبي - للوقوع في يد الله<sup>(١)</sup> .

ولن يتأتى التغلب على صرامة عقاب الإنسان على خطيئته وفضحها - وهو ما يعادل في قوانين الطبيعة يوم الحساب - إلا بقبول حكم القانون الإلهي . أى أن ثمن هذا التحول للولاء للروحى ، هو الخمرمان من تلك المعرفة العقلية النهائية الدقيقة التي تعتبر الأجر المادى والعبء الروحى الذى تناله نفوس البشر التي تقنع بأن تمتلك أسباب السيطرة على الطبيعة ؛ ولو دفعت ثمن ذلك ، أن تغدو في الوقت نفسه عبيداً لها .

« لاشك أنه » مخيف هو الوقوع في يد الإله الحي<sup>(٢)</sup> . لأنه إذا كان الرب روحاً ؛ لما أمكن التكهن بتصرفاته مع الأرواح البشرية ، أو معرفتها ، والنفس البشرية التي تقبل الخضوع لحكم « قانون الرب » إنما تتخلى عن علم اليقين وتعلق بأهداب الأمل والخوف ؛ ذلك لأن القانون الصادر عن إرادة ، إنما ينطوى على حرية روحية ، هي نقيض رقابة الطبيعة النمطية . وقد ينبعث القانون الإرادى : إما عن المحبة ، أو الكراهية . وإن النفس البشرية - إذ تقبل الخضوع لقانون الله - قد تعثر على ما يجلبه هذا القانون لها :

(١) انظر سفر أخبار الأيام ( العهد القديم ) اصحاح ٢١ آية ١٣ . ( المترجم )

(٢) اقتبس الأستاذ المؤلف هذه العبارة من رسالة القديس بولس إلى العبرانيين :

اصحاح ١٠ آية ٣١ . ( المترجم )

ومن ثم فإن فكرة الإنسان عن الله ، قد تراوحت بين : تخيُّله إلهاً أباً رحيماً ، وتخيُّله إلهاً جباراً . ويتفق هذان التصوران - كلاهما - مع تصوير الله على شكل شخصية مستترة في صورة البشر . إلا أن خيال البشر يبدو عاجزاً عن رؤية ما وراء هذا القناع .

## ( ٢ ) اعتناق المؤرخين الغربيين لنظرية القانون الإلهي<sup>(١)</sup>

إن فكرة « شريعة الله » قد خدمتها الجهود التي بذها أنبياء بني إسرائيل وأنبياء أيران استجابة لتحديات التاريخ البابلي والسورى . على حين وضع الفلاسفة الذين شاهدوا تحلل العالمين السندى والهلينى ، العرض التقليدى لفكرة « قوانين الطبيعة » . على أن لا تناقض بين هاتين المدرستين الفكريتين من الوجهة المنطقية . ومن الواضح أن هذين النوعين من القانون يعملان جنباً إلى جنب . فشريعة الله تكشف عن هدف واحد ثابت ، يحدد في طلبه عقل وإرادة شخصية ما

بينما تُفصح قوانين الطبيعة عن حركة منتظمة متواترة ، مثلها مثل حركة تدور حول محورها . فلو أمكن تخيُّل عجلة موجودة لم يتدخل في صنعها صانع مُبدع ، لا تفتأ تدور حول محورها من غير ما هدف ؛ لكانت دوراتها المتكررة ، عبثاً . وقد كانت هذه ؛ هى النتيجة المتشائمة التي استخلصها فلاسفة الهند واليونان ، الذين رأوا « عجلة الوجود الكثبية »<sup>(٢)</sup> تدور في فراغ إلى الأبد .

(١) استخدم الأستاذ المؤلف كلمة Antimonianism - وهو مذهب الذين يقولون بأن المسيحيين غير خاضعين لقانون الأخلاق لاستفادتهم بقانون النعمة والبر . وقد ظهر هذا المذهب لأول مرة في ألمانيا عام ١٥٣٥ . ( المترجم )

(٢) استوحى الأستاذ المؤلف هذا التعبير من قاعدة الديانتين الهندوكية والبوذية . فإنهما تؤمنان بتتابع سير الوجود إلى ما لا نهاية ؛ مثله مثل عجلة دائرة تتابع أوجهها دون توقف . وانبنى على هذه الفكرة الإيمان بالتناسخ ومذهب الحلول . فالروح تنتقل من جسد إلى جسد ومن مظهر حياة إلى آخر . فأنا هى في جسم آدمى وتارة في جسد حيوان أو نبات . . . وهكذا إلى ما لا نهاية . ( المترجم )

ونحن في الحياة العملية ؛ لا نرى عجالات لم يصنعها صانع ، ولا يوجد صانعو عجالات ، ما لم يوجد سائقون بـكَلْفون هؤلاء الصانع المهرة بصناعة العجالات وتركيبها في عربات : حتى تكفل دورات هذه العجالات — المتعاقبة — توصيل العربات إلى حيث يقصد سائقوها .

أى أن قوانين الطبيعة ؛ يُمكن فهمها إذا ما صوّرت كأنها عجالات ركبها الرب في « مركبته » الخاصة .

والاعتقاد بأن حياة الكون تحكمها « شريعة الرب » ؛ إعتقاد موروث عن اليهودية وشاركها فيه المجتمعان المسيحي والإسلامي . وقد ورد هذا الاعتقاد في مؤلفين من أمهات الكتب ؛ نشأها تشابهاً مذهلاً ، لكن لا صلة لأحدهما بالآخر ؛ وهما :

١ — مدينة الرب من تأليف القديس أوغسطين :

٢ — المقدمة التي وضعها ابن خلدون لتاريخه<sup>(١)</sup> .

فأما نظرية القديس أغسطين المستمدة من وجهة النظر اليهودية عن التاريخ ؛ فقد أخذها المفكرون المسيحيون قضية مسلمة طوال حقبة تجاوز الألف سنة ، ووجدت آخر تعبير ثقة لها في كتاب بوسويه Bossuet<sup>(٢)</sup> « مقال في التاريخ العالمى » الذى نشر عام ١٦٨١ ميلادية .

وإذا كان المؤرخون الغربيون المحدثون قد استبعدوا فلسفة التاريخ هذه التى تجعل من الإرادة الإلهية المحور الذى يدور حوله التاريخ كله ؛

(١) اسم مؤلف ابن خلدون بالكامل « كتاب العبر وديوان المتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » . ( المترجم )

(٢) چاك بوسويه ( ١٦٢٧ - ١٧٠٤ ) : أسقف فرنسى اشتهر بمقدرته الخطابية الفائقة . ألف طائفة من الكتب أهمها « موجز تاريخ فرنسا ، السياسة المقدسة ، حديث عن الكون . ويعتبر الأخير أعظم مؤلفاته . انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، وبعد انتخابه ، نشر مؤلفه : استعراض مذهب الكنيسة الكاثوليكية . وقد اشتهر بدفاعه الحارق عن تقاليد الكنيسة الكاثولية ومعارضته لأعدائها مما جعله هدف مطاعن أتباع البروتستانية .

( المترجم )

فذلك أمر يمكن تعليقه ، بل والتماس العذر له ، فلقد تبين بالتحليل ، أن الصورة التي عرضها « بوسويه » لا تتماشى مع المسيحية ولا مع المنطق السليم . ولقد استعرض عيوبها بإسهاب « ر . ج . كولينجود . R. G. Collingwood » وهو أحد كتاب القرن العشرين الممتازين ؛ مؤرخاً وفيلسوفاً ؛ إذ قال :

« إن تاريخياً يكتب وفقاً للمبادئ المسيحية ، هو بالضرورة عالمي ، يستمد من العناية الإلهية وقائم على التنبؤ وموقوت الحساب . . . فلو أن مؤرخاً وسيطاً<sup>(١)</sup> تحدّاه أحد أن يفسّر كيف علم بوجود خطة موضوعية ما في التاريخ ؛ لأجاب بأنه قد عرف ذلك عن طريق الحدس . . . ذلك جزء مما كشف عنه المسيح للإنسان عن الرب . وهذا كشف فوق أنه دليل لمعرفة ما صنعه الله في الماضي ، فهو دليل يبين لنا ما ينتوى صنعه في المستقبل . وبالتالي ؛ أن هذا الكشف - عند المسيحيين - قد قدّم لنا صورة لتاريخ العالم بأسره ابتداء من خلقه في الماضي ، إلى نهايته في مستقبل الأيام ، كما يراه الله في نظره الأزلي الدائم .

« وعلى ذلك كان مؤرخو العصور الوسطى ، ينظرون إلى نهاية التاريخ ؛ كأنها شيء كتبه الله منذ الأزل وعرفه الإنسان عن طريق الوحي . فكانت نظريتهم تتضمن في حد ذاتها « معرفة بأمور الآخرة eschatology » .

« ومناطق التفكير في العصر الوسيط : أن التعارض تام بين غاية الرب الموضوعية ، وهدف الإنسان الشخصي - إلى حد أن غاية الله تبدو وكأنها تفرض خطة موضوعية معينة على التاريخ دون أية مراعاة لأهداف الإنسان الشخصية ، إن هذا التعارض يقود - لا محالة - إلى فكرة أنه ليس

(١) المؤرخ الوسيط ، أي المؤرخ الذي ينتسب إلى عصر العصور الوسطى .  
(الترجم)



لأهداف الإنسان تأثيراً ما على سير التاريخ ، وأن الطبيعة الإلهية هي وحدها القوة التي تحكمه ، (١) .

وهكذا نرى أن المؤرخين الغربيين في أوائل العصر الحديث من المشبَّعين بعقليات القرون الوسطى - إذ شوَّهوا فكرة الوحي المسيحي على هذا النحو ، قد عرَّضوا أنفسهم لهجوم كل من أنصار مذهب الإيمان الجزمى بالعلم (٢) في الجزء الأخير من العصر الحديث ، وأنصار مذهب الشك (٣) في الجزء الأخير من العصر الحديث ؛ القائدين بقصور العقل البشرى عن إدراك شئون الدين .

فهؤلاء المؤرخون - كما يقول كولينجود كذلك - « قد وقعوا في الخطأ إذ ظنوا أنهم يستطيعون التنبؤ بالمستقبل . كما أنهم « بتحمُّسهم لكشف الخطة العامة للتاريخ وبعقدهم أن هذه الخطة من صنع الله وليس من صنع الإنسان ، قد نزَعوا إلى البحث عن جوهر التاريخ ، خارج مجال التاريخ نفسه ، وذلك بأن تحوَّلوا عن أعمال الإنسان ، إلى العمل على الكشف عن خطة الإله . »

« وتبعاً لهذا ؛ باتت - في نظرهم - تفاصيل أفعال الإنسان ، غير ذات قيمة - نسبياً - فكان أن أهملوا واجب المؤرخ الأساسي ، ألا وهو الحرص على تحمُّل مشاق لا حدَّ لها في سعيه لاستقصاء ما حدث فعلاً . وهذا هو سبب ضعف الأسلوب النقدي في علم التاريخ في العصور الوسطى . ولم يأت هذا الضعف عَرَضاً ؛ فهو لا يرجع إلى قلة المصادر والمواد الموضوعية تحت تصرف الباحثين . بل يرجع إلى قصورهم في تحديد ما كانوا

(١) صفحات ٤٩ و ٥٤ و ٥٥ Collingwood, R.O, The Idea of History (Oxford 1946) والكتاب مترجم إلى العربية وقد نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) مذهب اليقينية : dogmatism .

(٣) مذهب الشك ( أو مذهب اللاأدرية ) : يتضمن في جوهره القول بعدم كفاية العقل لفهم الوحي الإلهي ، والشك بالتالي في جميع ما يصدر عن العقل . ( المترجم )

يريدون عمله ، في تحديد ما كانوا قادرين على عمله . فهم قد صدقوا عن إجراء دراسة دقيقة علمية لأحداث التاريخ الفعلية . إذ رنوا إلى إجراء دراسة دقيقة علمية لصفات الله ؛ أى علم لاهوت ، يمكنهم من أن يعرفوا سلفاً ما قد وقع حتماً في الماضي ، وما هو بسبيل أن يقع حتماً في المستقبل خلال عملية التاريخ » .

« ونتيجة ذلك ؛ أنه عند النظر إلى أسلوب التأريخ في العصور الوسطى — من وجهة نظر المؤرخ الباحث — أى المؤرخ الذى لا يعبأ إلا بتحرُّى الدقة في دراسة الوقائع — يبدو أن هذا الأسلوب غير واف بالغرض ، بل إنه يتسم بعناد متمعدٍّ ومنقَرٍ . والمؤرخون الغربيون في القرن التاسع عشر الذين نظروا إلى طبيعة التاريخ نظرة أكاديمية بحتة ، لم يشعروا نحو هذا الأسلوب بأى عطف » (١) .

إن هذا الموقف المعادى لتفكير العصور الوسطى لم يكن وقفاً على جيل من المؤرخين المتأخرين الذين كانت « لأدريتهم » المهذبة ، تعكس وداعة حياتهم البهجة الهادئة . بل إن ذلك للعداء قد أثار — على نحو أشد — أسلافهم هؤلاء المؤرخين وأخلافهم .

فلنبداً أولاً بالأخلاف ، ونعنى بهم جيل للقرن العشرين . فهذا الجيل كان يمرّ بتجربة مرّة . إذ كان يسوقه — يميناً ويساراً — طغاة من البشر ، عقدوا العزم على صبّ رعاياهم في إطار « خطط خمسية » . فثاروا ساخطين على فكرة « خطة فترتها ألف عام » قد فرضها عليهم طغيان مقدّس . أما رجل الغرب في القرن الثامن عشر الذى دفع أسلافه المباشرين ثمن ولائهم لآراء القرون الوسطى ، احتمالهم آلام الحروب الدينية ؛ فلم يكن ليكتفى برفض نظرية « بوسويه » باعتبارها خرافة سخيفة وعتيقة ، لكنه كان يراها

هي العدو<sup>(١)</sup> ، وكانت عبارة « اسحقوا المرذولين »<sup>(٢)</sup> هي شعار جيل فولتير . ولم يكن ثمة في هذا المجال فارق جوهرى بين أنصار الربوبية<sup>(٣)</sup> الذين أبدوا استعدادا للتسليم بوجود إله على شريطة أن يملك ولا يحكم مثل ملوك من هانوفر في بريطانيا العظمى<sup>(٤)</sup> ، وبين الملحدن الذين حذفوا الله من مقدمة « إعلان استقلال الطبيعة »<sup>(٥)</sup> .

فمن هذا الوقت ؛ تحررت قوانين الطبيعة والتزمت بجانب الصرامة المطلقة فأخذت - بالتالى - تتطور لتصبح قابلة للفهم تماما . كان هذا هو عصر نيوتن الذى نادى بأن الكون يقوم نفسه تلقائيا ، وعصر فكرة « بالى Paley » عن صانع الساعات الإلهى الذى إن ملأ زنبرك ساعته تلقائياً ودبر بنفسه شئونه ، أنهى بذلك مهمته .

وهكذا ؛ بُد « قانون الله » لاعتباره نتيجة أوهام الظلام الذى كان إنسان الغرب فى الجزء الأخير من العصر الحديث يخرج من إساره . لكن عندما تقدم رجال العلم ليتسلموا ذلك الميدان الذى أقصى الله عنه ، أدركوا أن ثمة جانباً منه لا يمكن أن يسرى فيه دستورهم : قوانين

( ١ ) كان هذا هو شعار المثقفين الفرنسيين الذين نادوا بالثورة ضد النظم القديمة سواء تمثلت فى النظام الملكى أم فى الكنيسة الكاثوليكية ، وقد صكه فولتير . ( المترجم ) .

( ٢ ) *écrasez l'infame* .

( ٣ ) مذهب يؤمن أصحابه بالله خالق للكون . لكنهم ينكرون صلة الله بالأرض والناس . فيؤمنون بأن ضياء الطبيعة والمقل يكفل هداية الإنسان سواء السبل . فينكرون بالتالى الوحي . وتخصب معارضة أتباع المذهب على المسيحية بصفة خاصة لاستنادها على فكرة فداء الرب - فى صورة الابن - للبشرية . ( المترجم )

( ٤ ) كان جورج الأول هو أول هؤلاء الملوك . وكان فى الأصل أمير ألمانيا من هانوفر . وكان يجهد الإنجليزية مما دعاه إلى الامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء . فكان هذا بداية ابتعاد الملك عن شئون الحكم ، فانبعث بتوالى الأيام مبدأ الملك يملك ولا يحكم . ( المترجم )

( ٥ ) على نزار « إعلان حقوق الإنسان » الذى أصدرته الثورة الفرنسية .

( المترجم )

«الطبيعة» . فقد يستطيع العلم تفسير الطبيعة الغير البشرية ؛ بل قد يكون في مكنته توضيح وظائف الجسم البشرى ( وقد تصادف أن جاء مشابهاً تماماً لأجسام الثدييات الأخرى ) . لكن إذا ما تعرض العلم لأوجه نشاط الكائن البشرى — لا باعتبار صدورها عن كائنات حيوانية ، ولكن عن كائنات بشرية آخذة بأسباب التحضر — هنا ارتد العلم خائباً . وهنا يواجه العلم اضطراباً يستعصى على قوانينه ؛ أحياناً لا معنى لها ، يقفوا بعضها بعضاً ؛ أنماها روائى إنجليزى عاش في القرن العشرين وحصل على عدة جوائز « أودتا ODTAA »<sup>(١)</sup> ، وهى الأحرف الأولى من عبارة إنجليزية تعنى « شىء لعين بعد شىء لعين آخر » . فقد عجز العلم عن فهم هذه الأمور ، ومن ثم تركها لفئة أخرى أقل طموحاً ؛ وهى فئة المؤرخين .

كان فلاسفة القرن الثامن عشر من أهل الميتافيزيقا قد اقتسموا الكون :

فعلى أحد جانبي خط التقسيم الذى وضعوه ؛ وجدوا منطقة مرتبة ، حافلة بشئون غير البشر ؛ واعتقدوا أن قوانين الطبيعة تسرى فيها . ويمكن إذن أن تصبح — تدريجياً — فى تناول استقصاء البشر ، بفضل الجهود المتواصلة التى يبذلها العقل البشرى .

وتركوا وراء الجانب الآخر من خط التقسيم ؛ منطقة من التاريخ البشرى ، تشيع فيها الفوضى . إذ رأوا أن لا شىء يستخلص منها أكثر من قصص مشوقة ، قد يتيسر تسجيلها بدقة متزايدة ؛ لكنها لا تثبت شيئاً . وربما كان هذا هو ما قصده بعضهم ( واعلمه فورد صانع السيارات ) بقوله إن التاريخ هو « سرير فى قطار » .

ولقد كان الطابع الرئيسى للفترة التى أعقبت القرن الثامن عشر — حتى وقت كتابة هذه السطور — هو أن العلم قد كرس نفسه — بدرجات

(١) Odtaa هى كلمة مؤلفة من الأحرف الأولى من عبارة One damned thing

after another

مختلفة من التوفيق - ليضم إليه مجالات عمل متنوعة ، كانت متروكة في الأصل للمؤرخين . ومن قبيل المثال : علم الإنسان ( الأنثروبولوجيا ) ، علم الاقتصاد ، علم الاجتماع ، علم النفس . ولكن المؤرخين ؛ مضوا مطمئنين يواصلون نشاطهم بحثاً وراء الحقائق ، فيما بقي لهم من أرض تتضاءل يوماً بعد آخر ، ولما يضع العلم فيها قدمه بعد .

لكن ما فتئت العقيدة الجوهريّة عند رجل الغرب ؛ تقوم على الإيمان بأن الكون يخضع لقانون ما ، ولم يُترك للفوضى والاضطراب . والشكل الربوبي أو الملحد الذي اتخذته هذه العقيدة في إبان الجزء الأخير من العصر الحديث ؛ أساسه الإيمان بأن شريعة الكون ، عبارة عن مجموعة « قوانين الطبيعة » .

حقاً ؛ إن مجال هذه القوانين يتسع باستمرار . فقد كانت الأسماء اللامعة في تاريخ العلم ، أسماء أولئك الذين رأوا نظاماً متناسقاً يكمن وراء الاضطراب السطحي الظاهر . فلا بدع والحالة هذه ؛ أن يكون السبب في ذبوع صيت بيوتن وداروين وأينشتين مثلاً ، أنهم قاموا بعمل كشفى من هذا النوع .

وبعد ؛ فمن ذا الذي كان في وسعه أن يرسم خطأ لا يتعداه هولاء للرواد المفكرون ؟

إن الإعلان بأن إحدى مناطق الكون - وهي المنطقة التي يشغلها الإنسان الآخذ بأسباب التحضّر - قد خصّصت بأمر سلطة عليا غير محددة ، لتكون هيكلًا للاضطراب ؛ أن هذا الإعلان قد يُرضى المؤرخين من أنصار « قانون الله » ، لكنه يُعتبر كفرةً وتجديفاً في نظر أنصار العلم سليمي التفكير .

وفي الواقع ؛ كان حرباً بالمؤرخين الغربيين في العصر الحديث أن يكونوا أقلّ اتجاهًا مما يدعون بكثير ، إلى الأخذ بقانون الله ؛ على نحو

ما سلّم به رجل ممتاز ممن زاولوا صنعة التاريخ في منتصف القرن العشرين ،  
إذ قال :

« إن قوما ينتسبون إلى جيل معين ؛ لا يُدركون عادة ، الدرجة التي  
يرون بها تاريخهم المعاصر في نطاق إطار مقرر . وينسّقون الأحداث  
وفقاً لأشكال ثابتة ، أو يصبّونها في قوالب معينة يختارونها أحياناً وهم  
في أحلام اليقظة . قد يكون هؤلاء القوم غير واعين على الإطلاق  
للأسلوب الذي تلتزمه عقولهم ، بسبب التكوين الروتيني الذي صاغوه  
للقصة . ولن يظهر ضيق أفق هذا الإطار إلا عند ما تتغير أحوال الدنيا  
وينشق جيل جديد لم يُحجر عليه منذ مولده داخل الإطار التقليدي . . .  
إن كتاب التاريخ وغيرهم من المعلمين ، ليُخطِثون في تصوّرهم أنهم لو لم  
يكونوا مسيحيين ؛ لامتنعوا على التقيّد بأى رأى ، ولعملوا دون التزام  
أى مذهب ، ولناقشوا التاريخ من غير فروض سابقة ؛ ومن بين المؤرخين  
— كما هو الحال في ميادين العلم الأخرى — لتجدنّ أشدهم حماسة ؛ أولئك  
الذين يعجزون عن فحص فروض وضعوها مسبقاً ، فيتصورون — من ثم  
معتبطين — أنهم براء من أى شىء منها » (١) .

هذه هي صورة بيجين لا يشعر بالأغلال التي تقيده . ولا يسعنا في هذا  
المقام سوى الاستشهاد للمرة الثانية بفقرة أصبحت بفضل وجهتها وألمعية  
الكتاب الذي جاءت في مقدمته ؛ إعرافاً تقليدياً بنبذ الاعتقاد بوجود  
قانون الله :

« لقد حُرِّمَتْ . . . من إثارة فكرة واحدة : إن أناساً أكثر منى  
فطنة وأوسع علماً ، قد ميّزوا في التاريخ حبكة موضوعية وترديداً متناسقاً  
ونمطاً مقدّراً ؛ هذه المطابقات خفيت عني . فإني لأرى إلا حدثاً يتلو

(١) مسنحتا ١٤٥ و ١٤٦ Butterfield, Herbert : Christianity and History  
(London 1949, Bell).

الآخر ، كما تقفو الموجة موجة أخرى ؛ ولا أرى إلا حقيقة واحدة ، غير قابلة للتعميم لأنها فريدة في نوعها ؛ ولا أرى سوى قاعدة واحدة يستطيع المؤرخ الاعتماد عليها ، وهي أن عليه أن يعترف ويسلم بالدور الذى تؤديه المصادفة والأحداث غير المنظورة فى تطور مصائر البشرية»<sup>(١)</sup> . ومع ذلك ؛ فإن هذا المؤرخ الذى أعلن جهارا ولاءه لمبدأ أن التاريخ ما هو إلا « شىء لعين يتلو شيئاً لعينا آخر » قد أطلق على كتابه اسم « تاريخ أوروبا » . وبذلك التزم — فى نفس اللحظة تقريبا — بنمط محدد سلفا ؛ تكافأ فيه تاريخ قارة غير مميزة ، بتاريخ الإنسانية جمعاء . وقد وصل المؤرخ إلى هذا المصطلح التاريخى فى الغرب فى الجزء الأخير من العصر الحديث ، باعتناقه — بطريقة لاشعورية — عقائد المذهب التاريخى الدينى السائد وقتذاك فى الغرب . فالعمليات الذهنية اللاشعورية اللازمة للاعتقاد بوجود « أوروبا » ؛ إنما كانت من الصعوبة بحيث اقتضت عددا من المبادئ المقبولة ضمنا ، لا يقل عن تسعة وثلاثين مبدأ .

(١) صفحة ٧ من مقدمة الجزء الأول Fisher, H.A.L. : A History of Europe (London 1935. Eyre & Spottiswoode).

## الفصل السادس والثلاثون

### انقياد شئون البشر لقانون الطبيعة

١ - عرض للدليل

#### (١) شئون الأفراد الخاصة

لنبداً تحقيقاً للهدف من بحثنا ، بالإجابة عن هذا السؤال :

لقوانين الطبيعة مكان في تاريخ الإنسان الآخذ بأسباب التحضر -  
أو لا مكان لها فيه ؟ .

ثم يتعين علينا أن نفحص قطاعات مختلفة من شئون البشر ؛ لنرى هل يتضح من دراسة أعمق لهذه المسألة ، أنها ليست موضع بحث بالقدر الذي نفترضه الآن . ولعل من المناسب ، لإختيار مواضيع الاختبار من بين خضم الشئون العادية للأفراد . وهو موضوع ساهم فيه المؤرخون المحدثون بنصيب موفور تحت عنوان « التاريخ الاجتماعي » .

وواضح أن الصعوبة التي تجابهنا في بحثنا عن قوانين تحكم تواريخ الحضارات ؛ لا وجود لها هنا . إذ أن عدد الحضارات المعروفة في التاريخ من القلة ، إلى حد لا يكفي لاستخلاص قانون عام شامل جامع . فهي تقل عن أربع وعشرين حضارة ، ومعلوماتنا عن بعضها محدودة جداً . أما الأفراد العاديون ، فإنهم يُعدون بالملايين . وفي ظل الأحوال السائدة في الغرب في العصر الحديث ؛ خضع سلوكهم لتحليل إحصائي معقد ؛ وعلى أساسه استنبط بعض رجال الأعمال بعض التنبؤات ، وجازفوا - إيماناً بصحتها - لاسمعتهم الحميدة فحسب ، ولكن بأموالهم كذلك . فأولئك الذين يهيمنون على الصناعة والتجارة ، افترضوا واثقين ، أن هذه السوق أو تلك قد تستوعب هذا القدر



من هذه السلعة أو تلك . ويحتمل أن تُخطئ تقديراتهم أحياناً ، لكنها تكون سليمة في أغلب الأحيان ؛ وإلا اضطروا إلى الخروج من ميدان العمل .  
 والتأمين ؛ هو ذلك الجانب من النشاط في دوائر الأعمال الذي أظهر بأجلى صورة ، قابلية « قانون المعدلات » للتطبيق في شئون الأفراد . على أن الأمر يقتضى منا - بلاريب - الحذر من التورط في اعتبار جميع أشكال التأمين ، دليلاً على قابلية « قوانين الطبيعة » للتطبيق على شئون الأفراد ؛ بالمعنى الذي نقصده بهذه العبارة . إذ يعنى التأمين على الحياة باحتمالات الجسم البشرى ؛ وهو موضوع يقع في نطاق الفسيولوجيا ، الذي هو بدوره من صميم اختصاص العلم .

ولا يجوز - في نفس الوقت - إنكار أن للنفس البشرية دوراً في هذا المضمار . إذ يمكن إطالة الحياة المادية بالتزام الحكمة ؛ كما يمكن تقصير الأجل بأشكال مختلفة من سوء التدبير تتراوح بين التهور والحماقة ، ثم البهيمية . كما يتضمن التأمين البحري على السفن وحمولاتها ، دراسة علم الأرصاد الجوية ، وهو بالمثل أحد قطاعات العلم . وإن كان لا يزال في الوقت الحاضر لا ضابط له . ولكن إذا ما انتقلنا إلى فرع التأمين ضد السرقة أو الحريق ، اتضح لنا أن شركات التأمين تقامر بقوانين المعدلات المطبقة على الصفات البشرية الخاصة ، من إجرام وإهمال .

### (ب) الشئون الصناعية لمجتمع غربي حديث

ظهرت المعدلات الإحصائية التي يمكن استخلاصها من تقلبات العرض والطلب في الصفقات المعقودة بين الموردین وعمالهم ؛ ظهوراً واضحاً ، على شكل مجموعة متلاحقة من دورات الرواج والكساد . إلا أن المعدلات الخاصة بالدورات سألقة الذكر في دوائر العمل ؛ لم تحدد - حتى وقت كتابة هذه السطور - بدقة كافية ، من شأنها أن تشجع شركات التأمين على افتتاح فرع جديد لأعمالها ؛ ولتحديد أسعار للتأمين ضد الأخطار الجسيمة التي تنشأ

عن تلك الدورات . ومع ذلك ؛ فإن الباحثين من أهل العلم قد عرفوا الكثير عن هذا الموضوع .

وفي التاريخ الفكري لمجتمع غربي صناعي ؛ تمّ - بالتجربة - كشف ظاهرة الدورات الاقتصادية ، من طريق الملاحظة الاجتماعية المباشرة ، قبلما تؤكد الإحصائيات ؛ وكان مراقب بريطاني يدعى س . ج . لويد S. G. Loyd الذي عرف بعد ذلك باسم اللورد أفرستون Overstone ، أول من وصف تلك الدورات في بحث نشره عام ١٨٣٧ ميلادية . وفي عام ١٩٢٧ ؛ أعلن و . س . ميشل W. C. Mitchell - وهو باحث أمريكي ببحث الدورات الاقتصادية - إيمانه « بتوقع تغيير خواص الدورات الاقتصادية ، كلما ارتقى التنظيم الاقتصادي » . وعلى أساس « الوقائع التجارية » التي جمعها باحث أمريكي آخر هو و . ل . ثورب W. L. Thorb من أدلة غير إحصائية ؛ استخلص دارس أمريكي ثالث هو ف . س . ميلز F. C. Mills أن متوسط طول الموجة لدورة اقتصادية « قصيرة المدى » بلغ ٨٦ سنة إبان مراحل التصنيع الأولى و ٤٠٩ سنوات إبان العصر التالي ، عصر الانتقال السريع و ٦٣٩ سنوات خلال الفترة التالية ، فترة الثبات الاقتصادي النسبي التالية .

وعرض اقتصاديون آخرون دورات أخرى ، ساد الاعتقاد بأن بعضها ذات موجات أطول مدى بكثير . وارتأى فريق آخر ؛ أن هذه « الموجات » قد أظهرت ميلا إلى الانحسار لتقوم حالة من التوازن . إلا أنه لم يكن هناك اتفاق عام بينهم حول هذا النوع من الأزمات الدورية ؛ إذ كانت دراستها ما تزال - في الحقيقة - في طفولتها . ولسنا بحاجة إلى متابعة البحث أبعد من ذلك . إذ أن النقطة التي يهمننا إبرازها ؛ هي أنه في خلال مائتي سنة منذ شوب الثورة الصناعية في بريطانيا ، ما فتئ رواد علم الاقتصاد في الغرب يجهدون في أن يستخلصوا من ركام المعلومات التي قدمها لهم التاريخ

الاقتصادى ، مجموعة قوانين تحكم هذا القطاع من نشاط للبشرية الاقتصادية الذى برزت فيه الصفات المميزة للبشر .

### (ج) تنافس الدول الإقليمية (توازن القوى)

أما وقد تبين لنا أن الاقتصاديين قد استخدموا نتائج أبحاثهم لاستكشاف أثر القوانين القابلة للتطبيق فى التاريخ الاقتصادى ؛ فطبيعى أن نولى وجوهنا شطر القطاع السياسى للنشاط ، لئرى ما إذا كان من الممكن حدوث أى شىء من هذا القبيل فى هذه الناحية كذلك . وسنختار كميدان لعملنا فى هذا القطاع السياسى ؛ التنافس والحروب التى قامت بين الدول الإقليمية فى الغرب فى العصر الحديث . ولعل من الممكن القول إن العصر الحديث من التاريخ الغربى قد بدأ حوالى نهاية القرن الخامس عشر ، مع حركة إصطناع الدول الأوربية ما وراء الألب ، لنظام الدولة كما عرفته إيطاليا . فيصبح فى متناول أغراض بحثنا الحالى ، أكثر من أربعة قرون .

« يعلم كل تلميذ - وفقا لتقدير ماكولى Macoulay المتفائل - أنه فى أربع مناسبات تفصل بين الواحدة والأخرى : فترة تجاوز بقليل مائة عام ؛ استغل الإنجليز (أو البريطانيون) المناعة النسبية التى هياها لهم منعة جزيرتهم فى صدء عدوان دولة من دول القارة فى بداية الأمر ، ثم تدميرها بعد ذلك . وكانت تلك الدولة تسعى إلى تزويد العالم المسيحى الغربى بدولة عالمية . أو كانت على أية حال - وحسب التعبير التقليدى - تهدد بالإخلال بميزان القوى .

فى المناسبة الأولى - تمثلت الدولة المعتدية فى أسبانيا . وتحطمت الأرمادا الأسبانية فى عام ١٥٨٨ .

وفى المناسبة الثانية - تمثلت العدوان فى فرنسا على عهد لويس الرابع عشر . وقد هزمت فى موقعة بلنهام Blenheim عام ١٧٠٤ .

وفي المناسبة الثالثة - كان المعتدى هو فرنسا الثورة و نابليون . وهزمت  
في موقعة واترلو عام ١٨١٥

وكانت ألمانيا في عهد غليوم الثاني ، هي الدولة المعتدية في المناسبة الرابعة ،  
وتمت هزيمتها يوم الهدنة عام ١٩١٨ : ثم عادت مرة أخرى في عهد هتلر ،  
فكان أن هزمت في معركة نورماندى عام ١٩٤٤ .

فهنا أنموذج لا يخطئ لدورية الحروب - من وجهة نظر أهل الجزيرة -  
يتجلى في مجموعة من أربعة حروب ؛ يفضل بين الواحدة والأخرى مسافة  
تتنظم بشكل عجيب . وتفوق كل واحدة سابقها سواء في شدة القتال ؛  
وفيما سندعوه ، إتساع نطاق النزاع . ودارت أولى هذه الحروب بين دول  
الأطلسي : أسبانيا ، فرنسا ، هولندا ، إنجلترا .

وفي ثانيا : تدخلت دول أوروبا الوسطى ، بل روسيا أيضا (إن اعتبرنا  
الحرب الروسية السويدية حرباً متفرعة عن حرب الوراثة الإسبانية) .

وثالثة الحروب هي الحروب النابليونية . وقد جرت معها روسيا كدولة  
محاربة رئيسية . وفي الإمكان إلحاق الولايات المتحدة الأمريكية بها ،  
إن اعتبرنا حرب ١٨١٢ حرباً متفرعة عن الحروب النابليونية .

وفي الحرب الرابعة ؛ تدخل أميركا كدولة محاربة رئيسية . ويظهر  
الطابع العام لهذه الحرب من أن معاركها المتلاحقة سميت الحربين العالميتين  
الأولى والثانية .

وهذه الحروب الأربعة التي نشبت للحيلولة دون إقامة دولة عالمية غربية  
حديثة ؛ فصلت بين كل منها ، فترة من الوقت تبلغ حوالى القرن . فإذا ما تقدمنا  
لبحث القرون الثلاثة الواقعة بين هذه الحروب ، وجدنا في كل حالة ،  
ما يمكن أن يُطلق عليه حرب أو مجموعة من الحروب الوسطى أو المكتملة ؛  
وفي كل منها نجد صراعاً على السيادة ، لا يقع في أوروبا الغربية في مجموعها  
ولكن في المنطقة الوسطى منها ؛ أى ألمانيا .

وإذ كانت هذه الحروب تنشب في أوروبا الوسطى قبل غيرها - لم تشبك بريطانيا في أية واحدة منها ، بينما صدفت عن التدخل إطلاقاً في بعض منها . فمن ثم لا تدخل هذه الحروب على الإطلاق فيما « يعلمه كل تلميذ » ( ونعني بالطبع كل تلميذ بريطاني ) . وكانت حرب الثلاثين عاماً ( ١٦١٨-١٦٤٨ ) أولى تلك الحروب الوسطى . وتآلف الجانب الأعظم من الحرب الثانية من حرب فرديريك الأكبر ملك بروسيا ( ١٧٤٠-١٧٦٣ ) ؛ واقتربت ثالثها باسم بسمارك ، وإن كانت قد تضمنت كثيراً غيره ولهذا ينبغي أن يؤرخ باسم السنوات ( ١٨٤٨-١٨٧١ ) .

وأخيراً ؛ فلعله يقال إن هذه المأساة ذات الفصول الأربعة ، كانت لها فاتحتها . فهي لا تبدأ بفيليب الثاني ملك اسبانيا ، ولكن بالحروب الإيطالية التي نشبت بين أسرتي هابسبرج Habsburg و فالوا Valois قبل ذلك بجيلين . ولقد بدأت هذه الحروب بغزو تافه لإيطاليا - وإن كان مشثوما - قام به الملك شارل الثامن ملك فرنسا . وما برحت المصادر التعليمية تستخدم تاريخ الغزو - وهو عام ١٤٩٤ - كخط صريح حاسم يفصل العصور الوسطى المتأخرة عن الفترة الأولى من العصر الحديث . وهذا التاريخ ؛ يقع بعد عامين من فتح المسيحيين لآخر أرض إسبانية بقيت في حوزة المسلمين ، ومن أول رسو لكولمبوس في جزائر الهند الغربية .

ويمكن وضع هذا كله في شكل جدول . فإذا فحصنا دورات الحرب والسلم في التاريخ الهليني الذي أعقب الإسكندر ، وفي التاريخ الصيني خلال العصور التالية لكونفوشيوس<sup>(١)</sup> ، لوجدنا تماذج تاريخية تماثل تماثلاً مذهلاً مع ما تم كشفه في سياق التاريخ الغربي الحديث . وذلك سواء في تركيب هذه التماذج ، أو وحدتها .

(١) إذا أراد القارئ الكريم التوسع ؛ فليرجع إلى المجلد التاسع من كتاب الأستاذ توينبسي « دراسة التاريخ » في صورته غير المختصرة .

## تفاعلات دورات الحروب والسلام في تاريخ المغرب

المرحلة	الفترة	الدورة المتنامية الأولى	الدورة المتنامية الثانية	الدورة المتنامية الثالثة	الدورة المتنامية الناتجة	الدورة المتنامية الرابعة
	١٤٩٤ - ١٥٦٨	١٥٨٥ - ١٦٧٢	١٦٧٢ - ١٦٦٧	١٦٦٧ - ١٦٦٨ (١)	١٧٩٢ - ١٧٩٢	١٩١٤ -
	١٥٥٩ - ١٥٦٨	١٦٤٨ - ١٦٧٢	١٦٦٧ - ١٦٦٨	١٦٦٨ - ١٥٦٨ (٤)	١٨٧١ - ١٩١٤	١٩١١ - ١٩١٢ (٢)
	١٥٣٦ - ١٥٢٥	١٦٠٩ - ١٦١٨	١٦٠٩ - ١٦١٨	١٥٦٨ - ١٤٩٤ (٣)	١٨١٥ - ١٧٩٢ (٦)	١٩١٤ - ١٤٤٥ (١٠)
	١٥٣٦ - ١٥٥٩ (٧)	١٦١٨ - ١٦٤٨	١٦١٨ - ١٦٤٨	١٥٢٥ - ١٥٣٦	١٨١٥ - ١٨٤٨	٠٠٠٠
	١٥٥٩ - ١٥٦٨	١٦٤٨ - ١٦٧٢	١٦٤٨ - ١٦٧٢	١٥٥٩ - ١٥٦٨	١٨٧١ - ١٨٤٨ (٩)	٠٠٠٠
				٠٠٠٠	١٨٧١ - ١٩١٤	١٩١١ - ١٩١٢ (٥)
				٠٠٠٠	١٧٩٢ - ١٧٩٢	١٩١١ - ١٩١٢ (٥)
				٠٠٠٠	١٧٩٢ - ١٧٩٢	١٩١١ - ١٩١٢ (٥)
				٠٠٠٠	١٧٩٢ - ١٧٩٢	١٩١١ - ١٩١٢ (٥)
				٠٠٠٠	١٧٩٢ - ١٧٩٢	١٩١١ - ١٩١٢ (٥)

- (١) هجوم لويس الرابع عشر على الأراضي المنخفضة الإسبانية .  
 (٢) الحرب التركية الإيطالية عام ١٩١١ - ١٩١٢ - الحرب التركية البلقانية ١٩١٢ - ١٩١٣ .  
 (٣) ١٤٩٤ - ١٥٠٣ - ١٥١٠ - ١٥١٦ - ١٥٢١ - ١٥٢٥ .  
 (٤) ١٥٦٨ - ١٦٠٩ - قف الأملوك الإسبانية الأسرة هابسبورج ١٥٦٢ - ١٥٩٨ في حرب .



## (د) تحلل الحضارات

إذا ما عدنا برهة إلى أتمودجنا الدوري عن حروب المجتمع الغربي الحديث ؛ فلعنا نرتاع لحقيقة مبناها أن دورة الحروب هذه ، ليست مجرد عجلة تدور في فراغ أربع مرات ، وتعود في كل مرة إلى الوضع الذي بدأت منه دوراتها . إذ لا يقتصر الأمر على ذلك ؛ فالعجلة تتحرك إلى الأمام قُدُها ، في طريق مشئوم .

ففي ناحية ؛ نجد أربع حالات لدول تتحالف سوياً زياداً عن حياضها؛ ضد جارات جبار ؛ لتثبت له حين يجد الجدد ، أن كبريائه قد ساقه نحو الهاوية .

وفي الناحية الأخرى ؛ نقطة لا يوضحها أتمودج الحرب الدورية ، لكن تُظهرها أية معرفة أولية للتاريخ . وتتم كل دورة من دورات الحروب لأربع هذه ؛ بكونها أوسع من سابقتها شمولاً وأشد عنفاً وأفظع تدميراً ، من الناحيتين المادية والمعنوية على السواء . ولقد انتهت دورات الحروب هذه في تواريخ المجتمعات الأخرى - كالمجتمعات الهلينية والصينية - باكتساح جميع الأطراف المتنازعة ؛ عدا طرف واحد ، هو الذي يُقيم بعد ذلك دولة عالمية .

ولقد عرض لنا خلال دراستنا لتحلل الحضارات ، هذا الاستهلاك الذاتي الذي ينشأ من هذه الدورة الرتيبة ، والذي يعتبر المظهر الغالب للصراع الناشب بين الدول الإقليمية في سبيل البقاء . فلا بدع والحالة هذه ؛ أن يتوافر هذا الشبه بين إيقاع عمليتين ترتبط إحداهما بالأخرى ارتباطاً لا شبهة فيه<sup>(١)</sup> ،

(١) انظر الفصل الحادى والعشرين « إيقاع التحلل » الوارد بصفحات ٤٥٩ - ٤٧٠ « من الجزء الثانى من هذه الترجمة . ولقد عبر الأستاذ المؤلف عن إيقاع التحلل تعبيراً عسكرياً على النمط التالى : كسرة - نهضة - كسرة - نهضة - كسرة . ومصداقاً لهذا ؛ يعتبر عصر الاضطرابات الذى يتلو انهيار بمثابة « كسرة » ؛ وإنشاء الدولة العالمية بمثابة « نهضة » ؛ وتعتبر فترة الفراغ التى تستتبع انقسام الدولة العالمية بمثابة الكسرة النهائية . ( المترجم )



وأظهرت دراستنا الانهيار الحضارى - الذى تولدت فيه حالة التحلل - أن كثيرا ما تكون مناسبة أو أعراض (أعراض التحلل) : ويسفر الانهيار عن اندلاع حرب عنيفة، عنفاً لا مثيل له بين الدول الإقليمية التى يتألف منها المجتمع :

وقد يعقب عملية إحلال إمبراطورية عالمية محل الدول المتصارعة ؛ لا وقف حركات العنف تماماً، ولكن عودة ظهورها فى أشكال جديدة كحروب أهلية أو ثورات اجتماعية . ومن ثم ؛ فإن عملية الانحلال وإن كانت قد توقفت مؤقتاً ، فهى مستمرة فى طريقها .

ولاحظنا كذلك<sup>(١)</sup> أن عمليات التحلل - كحروب الدول الإقليمية - قد دارت دورتها فى مجموعات مضت فى طريقها فى شكل تقلبات رتيبة . وبفحص عدد من الأمثلة ، ثبت لدينا أن الدورة الرتيبة لـ « الكسرة » و« النهضة » تتغلب فيها نزعة التحلل فى معركتها الطويلة الأمد ضد حركة مقاومة لها . وقد استطاع أن يدق ثلاث دقات ونصف دقة : كسرة ، نهضة ، نكسة ، نهضة ، نكسة ، نهضة ثم نكسة ، وهو فى سبيل استكمال رحلته التاريخية من إنهيار الحضارة إلى تحللها النهائى . وعلى ذلك ؛ تدفع الكسرة الأولى المجتمع المنهار إلى عصر اضطراب تخفف من حدته النهضة الأولى التى لا يطول أمدها ، إذ تفاجئ المجتمع حركة أشد عنفاً تصل إلى الذروة ، وتتلو هذه النكسة نهضة ثانية أطول أمداً تبلور فى تشييد دولة عالمية ، تكابد هى بدورها نكسة ثم تحرز انتعاشاً يتلوه التحلل النهائى ،

ويظهر من ذلك ؛ أن مأساة التحلل الاجتماعى - إن حكم عليه بما حدث حتى الآن - هى حبكة أكثر دقة وانتظاماً من حبكة مأساة توازن القوى . ومن دراسة جدولنا عن الدول العالمية<sup>(٢)</sup> ؛ سنجد أنه فى الحالات التى لم يختل

(١) انظر صفحتى ٤٦٠ و ٤٦١ من الجزء الثانى من هذه الترجمة .

(٢) مكانه آخر هذا الجزء .

فيها سير الأحداث بتأثير هيئات اجتماعية غربية ، قد تستغرق الحركة : كسرة - نهضة - نكسة - نهضة أنجع أثرا ؛ فترة أربعائة سنة تبدأ من الانهيار الأول إلى تشييد الدولة العالمية . كما تستغرق الحركة التالية المكونة من النكسة الراجعة ثم نهضة أخيرة ثم نكسة نهائية ؛ تستغرق مدة مساوية تقريبا تبدأ من تشييد الدولة العالمية حتى تحللها .

لكن لإنقضاء أجل الدولة العسالمية ، لا يتم في يسر وسهولة . فإن الامبراطورية الرومانية وقد تمزقت إربا في المقاطعات الغربية المتأخرة اجتماعيا غذاة كارثة أدرنة عام ٣٧٨ ميلادية ( أى بعد مئضى أربعائة سنة بالتمام على تشييد أغسطس Augustus لها ) لم تسلك نفس الطريق في المقاطعات الوسطى والشرقية ، إلا بعد وفاة يوستينيان عام ٥٦٥ ميلادية . وشييه بذلك إمبراطورية هان Han ( الصينية ) التي لقيت ضربتها الثانية عام ١٨٤ ميلادية والتي تمزقت - من ثمت - إلى ممالك ثلاث توصلت إلى إعادة تشكيل كيائها - لفترة قصيرة في إمبراطورية تسين Ts'in ( أعوام ٢٨٠ - ٣١٧ ميلادية ) قبلما تنهار نهائيا .

### ( هـ ) نمو الحضارات

إذا ما تحولنا باهتمامنا من التحلل الاجتماعي إلى النمو الاجتماعي ؛ سنستعيد ما اهتمدنا إليه في مرحلة سابقة من هذه الدراسة<sup>(١)</sup> : ألا وهو أن نمو الحضارة - مثل تحللها - حركة رتبية في دوريتها . إذ يتخذ النمو الحضاري سبيله كلما أثار أحد التحديات استجابة ناجحة ، تُثير هي بدورها تحديا آخر مختلفا . ولم نعر على أى سبب أصيل يحول دون تكرار هذه العملية نفسها إلى ما لا نهاية . هذا على الرغم من أن جمهرة الحضارات التي إنبعثت إلى الوجود حتى وقت كتابة هذه السطور ؛ قد أخفقت - وهذه حقيقة

( ١ ) بسط الأستاذ المؤلف آراءه في شأن نمو الحضارات في صفحات ٢٧٥ - ٤٠٦ من الجزء الأول من هذه الترجمة .

تاريخية مقررة - في مواصلة نموها ، لأنها عجزت - إلا في حالات قليلة -  
عن تقديم استجابة هي رد ناجح على التحدى الذى أثارها ؛ وهى في نفس  
الوقت مصدر خصب لتحدي جديد يتطلب استجابة مختلفة :

فمن قبيل المثال : شاهدنا في تاريخ الحضارة الهلينية<sup>(١)</sup> أن التحدى  
الأول الذى أثارته البربرية الفوضوية ، قد استثار استجابة فعّالة ، اتخذت  
شكل بناء سياسى هو دولة المدينة . كما لاحظنا أن نجاح هذه الاستجابة  
قد استثار تحدياً جديداً ، كان هذه المرة على الصعيد الاقتصادى في هيئة  
ضغط تزايد السكان على موارد المعيشة المتاحة . واستثار هذا التحدى الثانى  
عدداً من الاستجابات البديلة تباينت في فعاليتها :

- ١ - كانت هناك كارثة الاستجابة الاسبرطية التى قامت على الاستيلاء  
عنوة على أراضى جيران اسبرطة الهيلينيين المنتجين للمواد الغذائية .
- ٢ - وكانت ثمة استجابة أثمرت - حيناً ما - في كورنث وخالقدونيا  
وتقوم على الاستعمار . ويعنى استيلاء الهلنيين على حقول جديدة بحرثونها  
فيما وراء البحار ، في أراضٍ تُغتصب من الشعوب الأكثر تأخرًا القاطنة  
في الحوض الغربى للأبيض المتوسط .
- ٣ - وهناك الاستجابة الأثينية ذات التأثير المستديم الناجع . ومناطقها  
زيادة الطاقة الإنتاجية المتجمعة لهذا العالم الهلبنى الموسّع ؛ بعدما  
أوقفت إمتداده الجغرافى ، مقاومة منافسيه من الفينيقيين والإترسك  
( الأثوريون ) . وكان أساس الاستجابة لإحداث ثورة استعيسى فيها عن  
إنتاج المحصولات للاستهلاك ، بإنتاج محاصيل تباع نقداً ، وإنتاج صناعى  
يصدر في مقابل مواد غذائية ، وخامات تستورد .

(١) انظر صفحتى ٣١٥ و ٣١٦ ثم صفحتى ٣١٩ و ٣٢٠ من الجزء الأول من

هذه الترجمة .

وهذه الاستجابة الناجحة لتحدّي اقتصادى ؛ قد استثارت - كما رأينا - تحدياً آخر ، برز على الصعيد السياسى . لأن العالم الهلبنى بعد أن ظهر أن أصقاعه قد أصبحت معتمدة بعضها على بعض ؛ مسّت حاجتها إلى تنظيم سياسى يكفل القانون والنظام على مستوى عالمى . فإن النظام العام المستند على أوضاع دولة المدينة ذات الطابع المحلى . وهو الذى فرض قيام اقتصاد زراعى ذى اكتفاء ذاتى فى كل رقعة منعزلة من الأرض المنبسطة - لم يعد صالحاً لقيام بناء سياسى يلائم المجتمع الهلبنى ، الذى أصبح نبياؤه الاقتصادية - وقتذاك - يقوم على الوحدة . ولم يُجابه هذا التحدّى الثالث فى الوقت المناسب حتى يتيسر إنقاذ نمو الحضارة الهلبنية من الانهيار السريع .

ونستطيع كذلك أن نطلع فى نمو الحضارة الغربية على سلسلة من تحديات متعاقبة استثارت استجابات موفّقة . وتمتاز هذه السلسلة من التحديات بكونها أطول أمدأ من التحديات الهلبنية ؛ من ناحية أن التحدّى الثالث قد جوبه باستجابة موفّقة مثلما جُوبه التحديان الأول والثانى :

١ - تمثّل التحدّى الأول فى نفس البربرية الفوضوية التى قامت فى فترة انتقالية ، كتلك التى جابهت الهلبيين من قبل ؛ ولكن مع اختلاف نمط الاستجابة . ففى حالة الغرب تجلّت الاستجابة للتحدّى فى قيام نظام كنسى عالمى فى هيئة البابوية التى أقامها البابا هيلدبراند .

٢ - استثار هذا تحدياً ثانياً . إذ ألفت المسيحية الغربية الإنامية نفسها - وقد حققت وحدة كنسية - مفتقرة إلى نظام وطيد للدولة الإقليمية ، يكون ناجماً من الناحيتين السياسية والاقتصادية . فكان أن جوبه التحدّى بإعادة الحياة لنظام دولة المدينة الهلبنى ، فى كل من إيطاليا والأراضى المنخفضة .

لكن هذا الحل الذى أجدى تماماً فى بعض المناطق أخفق فى الوفاء باحتياجات الدول الملكية الإقطاعية ذات الأقاليم الواسعة . فهل كان من

شأن الحل الذى توصلوا إليه فى إيطاليا وهولندا عن طريق نظام دولة المدينة ، أن يصلح للتطبيق فى بقية أنحاء العالم الغربى ، باصطناع هذه الكفاءة التى تحققت فى إيطاليا وهولندا فى نطاق أوسع هو نطاق الأمة الكبيرة (١) ؟

حلّت هذه المشكلة - كما رأينا - فى إنجلترا ، على الصعيد السياسى - فى البداية - عن طريق تلقيح النظام البرلمانى الذى كان شائعاً فى أوروبا ما وراء الألب إبان العصور الوسطى ، تلقيحه بالكفاية . ثم حلّت المشكلة بعد ذلك على الصعيد الاقتصادى ، بفضل الثورة الصناعية . إلا أن هذه الثورة الصناعية الغربية - مثل الثورة الاقتصادية الأثينية فى التاريخ الهلنى - أدت إلى الاستعاضة عن اقتصاد إقليمى أساسه الاستكفاء الذاتى ، بتكافل اقتصادى عالمى الطابع .

٣- ألفت الحضارة الغربية نفسها ، نتيجة لاستجابتها الموفقة لتحدٍ ثالث ، تجابه نفس التحدى الجديد الذى سبق أن واجه الحضارة الهلينية عقب استجابتها الموفقة لتحديها الثانى . فحتى كتابة هذه السطور - فى منتصف القرن العشرين - لم يظهر فى الأفق أن الإنسان الغربى قد جابه هذا التحدى السياسى بنجاح . لكنه أصبح شديد الإدراك لخطورته ، وما ينطوى عليه من تهديد .

وفى هذه النظرات العابرة على نمو حضارتين ؛ ما يكفى لإظهار انتفاء المشابهة بين تاريخهما ؛ فيما يتصل بعدد الحلقات فى تسلسل دورات التحدى والاستجابة المترابطة ، التى تحقق عن طريقها النمو الاجتماعى . كما أن درس تواريخ جميع الحضارات - التى تتوافر وثائقها توافراً كافياً - يؤكّد تلك النتيجة .

وهكذا ؛ يبدو أن حاصل بحثنا الحالى قد تبلور فى أن أثر « قوانين

(١) بدلا من قصره على المدينة فقط . (المترجم)

الطبيعة ، غير واضح في تواريخ نمو الحضارات ، وضوحه في تواريخ  
إخلالها ، وسنجد في فصل تال أن هذه النتيجة ليست من قبيل المصادفة ؛  
لكنها سمة تلازم التباين الأصيل ، بين عملية النمو وعملية الانحلال :

### ( و ) لا درع يقي من القدر

استبان لنا من دراستنا أثر « قوانين الطبيعة » في تواريخ الحضارات ؛  
أن الرتبة التي تبدى فيها هذه القوانين ، قد تتولد عن صراع بين نزعتين  
تتفاوتان شدة وقوة :

إحدهما نزعة مسيطرة تتغلب على مدى الزمن ، على تحركات مضادة  
متكررة تقوم بها النزعة المناهضة إثباتاً لوجودها : ويقدم هذا الصراع نوع  
الإيقاع ، أو الرتبة :

أولاً : فإن إصرار النزعة الضعيفة على رفض التسليم بالهزيمة ، يفسر  
تكرار حدوث الصدام المرة بعد الأخرى ؛ في سلسلة من الدورات المتعاقبة .  
ثانياً : تثبت النزعة القوية ، سلطانها بوضع حد لتلك السلسلة ؛  
إن عاجلاً أو آجلاً :

وفي ضوء هذه الخطوط الرئيسية ؛ لاحظنا ضروب الصراع بين الدول  
الإقليمية في سبيل البقاء : خلال ثلاث أو أربع دورات من الحروب  
خاضها أحد الطرفين بقصد تحطيم مبدأ توازن القوى ؛ بينما كان الطرف  
الآخر يهدف إلى المحافظة على هذا التوازن ؛ وكان الأمر ينتهي في كل  
حالة ؛ إلى تحطيم توازن ميزان القوى . كما شاهدنا أيضاً ؛ الصراع بين اتجاه  
المجتمع المنهار نحو الانحلال ، وبين جهد مضاد يقوم به هذا المجتمع . وهو  
أسلوب كان ينتهي بالتردى في الانحلال ، في كل حالة .

وفي دراستنا « أثر قوانين الطبيعة » في الشؤون الاقتصادية لمجتمع  
صناعي غربي ، ظهر لنا أن الخبراء الباحثين في الدورات الاقتصادية ،

قد حدموا بأن هذه الحركات المتكررة قد تكون موجات تندافع على سطح مياه ، ما فتئت تندفق طوال الوقت في تيار متصل ؛ لا بد أن ينتهي إلى وضع حد لهذه التقلبات الرتيبة . ولعلنا نذكر في هذا الصدد النتيجة التي وصلنا إليها ؛ من أنه عندما - وحيثما - ينشب صراع بين حضارة متحللة ، وعصابات من البرابرة المتمردين رابضة وراء حدودها ؛ وينتقل هذا الصراع من حرب الحركة إلى حرب ثابتة ، على طول حدود الدولة العالمية ؛ يصبح الوقت - عادة - ضد المدافعين عن تلك الحدود ؛ ويتحول إلى مصلحة من المتبررين المهاجمين لها . ويظل الضغط قائماً حتى ينفجر السد ويكتسح طوفان البربرية أمامه الكيان الاجتماعي - الذي كان قائماً<sup>(١)</sup> .

هذه كلها أمثلة للنتيجة الأعم التي اهتدينا إليها . ومدارها أن للحركات الدورية في التاريخ البشري - مثل الدورات العادية لعجلة العربة - القدرة على أن تبعث - بفضل حركاتها الدائرية المتكررة الرتيبة - حركة أخرى أطول رتابة ، يمكن - عن طريق مقارنتها بسابقتها - أن تكون تقدماً متجمعاً مطرداً في اتجاه واحد ، يدرك هدفه في النهاية . حتى إذا بلغ هدفه ؛ وضع أهدأ للحلقة كلها . على أنه ليس ثمة ما يؤكد اعتبار انتصارات اتجاه على آخر ، كشواهد على « قوانين الطبيعة » . فقد لوحظ - بالتجربة - أن الحقائق ، ليست بالضرورة نتيجة قدر صارم . ويقع عبء الإثبات هنا على عاتق القائل بمذهب الجبر ، لا على اللاأدرى<sup>(٢)</sup> - وهذه وجهة نظر فشل شينجلر

(١) يراجع في تفصيل هذا الرأي مبحث « تجمع الضغط الوارد في صفحات ٢٢٥ - ٢٣٦ من الجزء الثالث من هذه الترجمة .

(٢) أي المعتق للفلسفة اللاأدرية أو الأغسطية . وهي حركة دينية نشأت والمسيحية في بدايتها . وهي محاولة لتكوين مزيج من اللاهوت المسيحي والفلسفة اليونانية وعناصر مأخوذة من النحل السرية التي شاعت في منطقة الأبيض المتوسط ، وفي مصر بالذات حيث نشأت فيها عبادة سيرابيس وإيزيس وحورس التي سادت منطقة الأبيض المتوسط قبل نشوء المسيحية . -

Spengler بفلسفته الحتمية القطعية والتي تخلو من السند - في أن يأخذها مأخذ الاعتبار .

على أنه - دون الإخلال بمسألة الخلاف بين « القانون والحرية في التاريخ التي لم يستقر فيها الرأي بعد - نقترح قبل مواصلة مناقشتنا أكثر من ذلك ؛ أن نسجل طائفة من الأحداث الأخرى ، ظهرت فيها نزعة ما ، وعادت تؤكد وجودها في وجه ثورات متتابعة نشبت ضدها . وشبنجلر لا يرى فيما تسفر عنه هذه القوى المتصارعة إلا يد « القدر » ، وسواء أكان مذهبه عن « الحتمية » صحيحاً ، أم فاسداً ؛ فهو لم يحاول إثباته .

وسنبداً بالموقف الذي نشأ عن سيطرة اليونان بالقوة العسكرية على جنوب غرب آسيا .

فعلى الرغم من أن هذه السيطرة الهلينية قد طال أمدها حتى بلغ أقل من الألف سنة بقليل عندما اكتسحتها جيوش المسلمين إبان القرن السابع الميلادي ؛ فإن الهلينية لم توفق قط في الأقاليم الواقعة جنوب جبال طوروس ، في أن تصبح شيئاً أكثر من ثقافة نقيلة أجنبية تبعث شعاعها الباهت - على بقاع ريفية - سررية أو مصرية - متمسكة بأصلها ؛ وذلك من عدد قليل من مراكز متقدمة هليينية أو مهلنة<sup>(١)</sup> . ولقد دأب الملك السلوقي أنطيوخس أيبفانس Antiochus Epiphanes ( حكم من ١٧٥ إلى ١٦٣ ق . م . على السعي لصيغ البلاد التي خضعت لحكمه بالصيغة الحضارية الهلينية ) . وقد وضع قدرة الثقافة الهلينية على استمالة الجماهير إليها ، موضع الاختبار . وذلك عندما شرع في جعل أورشليم مدينة هلينية ، مثلما كانت أنطاكية . وكانت الهزيمة المنكرة الطنانة التي أصابت هذه المغامرة العسكرية والثقافية في وقت واحد ؛

= ويرى اللاأدريون ( أو الأوغنسطيون ) أن لهم علماً باطنياً بجوهر الديانة ولبائها . وهذه المعرفة ، يتيسر لهم بلوغ الاستنارة والخلاص ( الغفران ) . ( المترجم )

( ١ ) أى تصطبغ بالصبغة الثقافية الهلينية . ( المترجم )



كانت نذيراً بالأفول النهائى الكامل لتلك الثقافة الدخيلة . غير أن هذه الثقافة قد امتد بها الأجل - رغم وهنها المتواصل - عدة قرون أخرى ، بفضل حقيقة معروفة ؛ وهى أن الرومان انتزعوا السلطان السيامى من السلوقيين والبطالمة الآخذين فى الضعف .

إن قوة السلاح ؛ هى التى فرضت سيطرة اليونان على المجتمعين السورى والمصرى ، واستبقتهما . وما فتئ المجتمعان المهووران يحتضنان الهزيمة ؛ طالما أبديا استجابة للحضارة الغربية من نوعها . ولقد بدا أثناء الفصل التالى لهذه القصة ، أن تحول جماهير سكان الولايات الشرقية إلى المسيحية خلال القرن الثالث الميلادى - قد يؤدى للثقافة الهلينية - بطريق غير مباشر - ما حاول أنطيوخس أن يحققه لها ، وعجز عن تحقيقه ؛ فلقد استهوت الكنيسة المسيحية الكاثوليكية طبقة أهل الريف إلى صفها ؛ مثلما بهرت ألباب طبقة حضرية هلينية تسيطر على تلك الطبقة الريفية . وإذ كانت المسيحية فى طريقها المظفر متشحة برداء هلىنى ، بدا كما لو أن أهل الشرق قد تلقوا مع المسيحية فى نهاية الأمر ، ثقافة لفظوها من قبل وصدفوا عنها بعنف ؛ وقما قدّمت إليهم سافرة غير مقنعة .

على أن هذا تقدير قد استبان ضلاله !!

فإن الشرقيين ما أن يعملوا المسيحية المصطبغة بالصبغة الهلينية ؛ حتى آلوا على أنفسهم تجزيدها من العناصر الهلينية ، باعتراقهم بدعاً دينية متوالية ؛ وكانت النسطورية<sup>(١)</sup> أولها . وعلى ذلك ؛ فإن أهل الشرق بمواصلتهم

(١) مذهب مسيحي أسسه نسطوريوس Nestorius السورى ( مات حوالى عام ٤٥٠ ميلادية ) . وقد اختاره الإمبراطور البيزنطى عام ٤٢٨ بطريركا للقسطنطينية . وينكر نسطور على السيدة مريم لقب « أم الإله » ويقتصر على تلقيها بأب المسيح الإنسان . ولا يعتبر نسطور السيد المسيح إلهاً ولكن مجرد بشر ؛ ويؤله « الكلمة » لأنها صدرت عن الله وبها خلق السيد المسيح . وعلى الرغم من معارضة جبهة رجال الدين المسيحي لنسطور فإنه ثبت على مرقفه لا يترحزح ، وأحدث بلبلة شديدة فى أنحاء العالم المسيحي . فكان أن عقد =

مقاومة الثقافة الهلينية ، في صورة مجادلة لاهوتية بعيدة عن القوة العسكرية ، قد ابتدعوا أسلوباً جديداً يقوم على الحرب الثقافية التي كانت كلمتهم فيها كى العليا ؛ في نهاية الأمر .

واتخذ هذا الهجوم الثقافي المناهض للتأثيرات الهلينية - طوال عدة قرون - النمط الدائرى الذى ألقناه من قبل . فقد علت موجة التنسطورية ثم هبطت ، لتتلوها موجة مذهب الطبيعة الواحدة<sup>(١)</sup> . وهذه بدورها ؛ تبعها الموجة الإسلامية التي اكتسحت أمامها كل شيء .

وقد يقال إن الانتصار الإسلامى ؛ كان عودة لأسلوب الفتح الحربى . للصراف . حقاً إنه لن يتأتى - من غير شك - اعتبار الجماعات العسكرية للحرية الإسلامية ، إرهاباً للمذهبى تولوستوى وغاندى القائمين على نبذ العنف والعزوف عن المقاومة . بيد أن العرب وإن كانوا قد « فتحوا » سوريا وفلسطين ومصر خلال سنوات ٦٣٧ - ٦٤٠ ميلادية ؛ إلا أن هذا الفتح كان شبيهاً بما حققه غاريبالدى Garibaldi عندما غزا صقلية و نابولى عام ١٨٦٠ بقوة تتألف من ألف متطوع من ذوى القمصان الحمراء يعززهم مدفعان صغيران يجرّونهما وراءهما مجرد الاستعراض دون أية ذخيرة .

ولقد استطاعت البعثة العسكرية لجماعة وحدة إيطاليا Italia Una فتح مملكة الصقليتين ، لأن هذه المملكة رغبت في أن تفتح . وما كانت مشاعر سكان الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية تجاه جماعات العرب المسلحة ، تختلف تماماً عن مشاعر الصقليين تجاه غاريباندى .

---

= عام ٤٣١ بمدينة أفسوس مجمع لتسوية النزاع بين رجال الدين . وقد انتهى المجمع بتكفير نسطور وتجريده من وظيفته . وينحصر اتباع المذهب النسطورى في الوقت الحاضر في أقلية تنتشر بالعراق وسوريا وفارس وروسيا ( القوقاز ) وأميركا . ( المترجم )

( ١ ) مذهب الطبيعة الواحدة ( المذهب المينوفيسى ) . السيد المسيح وفقاً له إله على الأرض وفي السماء . عكس المذاهب المسيحية الأخرى التي تعتقد بأن للسيد المسيح طبيعتين : بشرية خلال وجوده على الأرض وانتهت بموته على الصليب فداء للبشرية ، وإلهية بانتقاله إلى السماء بعد الصلب . ( المترجم )

وهكذا ؛ نرى في المثال الذى أوردناه آنفا ؛ حلقة متتابعة من الاحتجاجات الهرطقية ، ضد نظام من التجانس غير مرغوب فيه ، انتهت بفوز الاحتجاج الثالث .

ويبدأ تاريخ فرنسا منذ القرن الثانى عشر الميلادى ، نفس النمط . ولكن في ظروف مختلفة .

إذ كانت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في فرنسا مشتبكة - منذ ذلك القرن - في صراع - لم يحرز في أى وقت من الأوقات إلا نصرا وقتيا - لتوطيد دعائم وحدة فرنسا الدينية - كبلد مسيحي كاثوليكي - في مواجهة دافع نحو الانفصال ؛ يؤكد وجوده في شكل جديد ، كلما أخذت الحركة المرة بعد الأخرى . ومن ذلك ؛ أن الثورة التى نشبت ضد المسيحية الكاثوليكية ، قد اتخذت شكل « الكاثارية Catharism <sup>(١)</sup> . واندلعت لأول مرة في جنوب فرنسا إبان القرن الثانى عشر ثم أخذت في تلك المنطقة في القرن السادس عشر في شكل الكالفينية Calvinism <sup>(٢)</sup> . فلما قضى على الكالفينية ؛ سرعان

---

( ١ ) كاثارى Cathari : مذهب دينى مسيحي انتشر في غضون العصور الوسطى انتشاراً واسعاً بين طائفة اللادريين . وكلمة « كاثارى » مشتقة من اللغة اليونانية ، وتعنى « التطهر » وظلت هذه الحركة قائمة حتى منتصف القرن الرابع عشر . ومناطق عقيدة الطائفة إنقسام البشر إلى طبقتين : الصفوة والمؤمنين . ويعتبر الصفوة قديسين على الأرض وتجب طاعتهم على المؤمنين دون مناقشة . ويؤمن أتباع طائفة الكاثارية بأن الشيطان هو حاكم هذه الدنيا التى تعتبر نوعاً من المطهر أو الجحيم . على أنهم آمنوا بالخلاص النهائى للبشرية بأسرها وبعودة الإنسان إلى الدنيا أكثر من مرة في أشكال شتى قبل تسالمة - في نهاية المطاف - مع السيد المسيح . واعتنق بعض أفراد الطائفة فكرة التقمص ، أى انتقال الروح إلى موجود آخر بعد الموت . ( المترجم )

( ٢ ) الكالفينية : مناط آراء المذهب ما يتصل بموضوع «القضاء والقدر» . ومداره أن الله قد اختار نفوساً معينة يمنحها الخلاص ( الغفران ) ونفوساً أخرى أوجب عليها اللعنة الأبدية . ولا عاصم البتة من قضاء الله وقدره . ويبه الله أفراد الطائفة الأولى رحمته والطاقة على الاحتمال . ومن الكالفينية ؛ انحدرت طوائف البروتستانت في فرنسا وسويسرا ، كما انحدرت كذلك طوائف المطهرين ( البيورتان في إنجلترا وأميركا وغيرها . ( المترجم )

ما استعادت الحركة الانفصالية كيانها في شكل الجانسينية Jansenism<sup>(١)</sup> ؛ وكان المذهب الجديد أقرب المذاهب للكالفينية - في نطاق الكنيسة الكاثوليكية . ولما قضى على حركة مناهضة الكاثوليكية في شكلها الجانسيني ، عادت إلى الظهور في شكل مذاهب أخرى كـمذهب التآليه والمذهب العقلي<sup>(٢)</sup> و « اللأدرية » و « الإلحاد » .

ولقد لاحظنا في مواطن أخرى من بحثنا كيف قدر لمذهب التوحيد عند اليهود أن يغلب المرة بعد الأخرى أمام المذاهب التي تقوم دوما داعية إلى تعدد الآلهة . كما بينا كذلك ما كُتِب على الفكرة اليهودية المتصلة بالوحدانية ؛ وهي تسمى الإله الواحد الحق<sup>(٣)</sup> - من الانتكاس بسبب الاشتياق إلى إله متجسد<sup>(٤)</sup> .

( ١ ) الجانسية : نخلة دينية مسيحية تنسب إلى جانسين كورنيولوس ( ١٥٨٥ - ١٦٣٨ ) . وكان عالماً دينياً هولندياً درس اللاهوت بباريس . وبعد عامين من وفاته ، نشر أصدقاؤه آراءه في مؤلف يدعى أوغستينوس Augustinus . وتبين منه أن جانسون وإن عارض البروتستانتية معارضة شديدة ، إلا أن كثيراً من آرائه شابهت آراء أتباع كالفين ؛ مما دعى إلى تحريم الفاتيكان لها عام ١٦٤٩ . ويعتبر جانسون « الخطيئة الأزلية » ليست مجرد تذبذباً بالخطيئة ، لكنها غواية الطبيعة . والشهوة لديه هي لوثة الخطيئة في الجسم والنفس . وعنده أن خشية الله والخوف من العقاب الأبدى لا يترعان الشر من القلب ؛ إذ يتعاطم الخوف في للنفس الضعيفة وليس منه شيء ينتسب إلى الله . وتخالف تعاليم جانسون الكنيسة الكاثوليكية - بخاصة - في ناحية إزدراثة الفارق بين النظام الطبيعي والنظام القدسي ؛ لإيمانه بأن جميع العطايا القدسية ليست منحة من الله للإنسان - لكنها حق مقرر له على الله . ( المترجم )

( ٢ ) الممزية ( أو المذهب العقلي ) : لا يقر إلا ما يطابق العقل الحر . ( المترجم )

( ٣ ) يقرر العلامة فرويد ( وهو يهودي ) بأن اليهودية قد أخذت جوهر التوحيد عن اخناتون الفرعون المصري الفيلسوف ( من الأسرة الثامنة عشر - أنظر مؤلف فرويد موسى والوحدانية Moses and Monotheism ) وكتاب المؤلفة الهنانية سافيتيري ديفي « ابن الشمس Savetiri Davi : Son of the Sum » . ( المترجم )

( ٤ ) إذ يؤمن اليهود بتجسد « ياهوى » ( وهو أقدس أسماء الرب في اليهودية ) في شخصية بشرية هي المسيح المنتظر . وتتولى هذه الشخصية تشييد دولة عالمية تقم العالم بأسره وعاصمتها أورشليم ، وتجعل من اليهود الجنس المسيطر باعتبارهم شعب الله المختار . وهذا هو -

إن مذهب التوحيد لم يجب عبادة « بعلى » و « عشروت » ؛ إلا ليجد أمامه منافسى « يا هوى » الغيور المنبوذين ، يعودون بدهاء إلى حظيرة المعتقد اليهودى الأصيل ، وقد تنكروا في صورة تجسيم لكل من « كلمة الله » و « حكمة الرب » و « ملاك الرب » . ثم يستقرون بعد ذلك داخل حظيرة العقيدة المسيحية الأصيلة في عقيدة « الثالوث الأقدس » ، وفي الطقوس الدينية المتصلة و « جسد الإله ودمه » و « أم الإله » و « القديسين » .

ولقد استثارت عودة طغيان الشرك توكيدا صادقا لوحداية الله في الإسلام ، وتوكيدا أقل كما لا في البروتستانتية . بيد أن حركتى التطهير هاتين في الإسلام وفي البروتستانتية — قد نكبتا بدورهما باشتهاء النفس البشرية ، لفكرة تعدد الآلهة ، التى تعكس التعدد الظاهر لقوى الطبيعة فى الكون<sup>(١)</sup> .

٢ — التفسيرات محتملة لسريان « قوانين الطبيعة » فى التاريخ متى سلّمنا بأن حالات التكرار والانتظام التى ميزناها فى سياق هذه الدراسة ، حقيقة واقعة ؛ بدا لنا أن ثمة تفسيرين محتملين لها .

إذ قد تكون القوانين التى تسوسها :

= ما دفع اليهود إلى معارضة عيسى عليه السلام لأنه نادى بملكوت الرب فى السماء ، لا على الأرض ؛ وأن الخلاص للبشر جميعاً ولا يستأثر به شعب أو طائفة دون الناس جميعاً ، وأن الخلاص روحانى وليس مادياً . ( المترجم )

( ١ ) لا أتفق مع الأستاذ المؤلف فى قوله بانزلاق المسلمين إلى فكرة الشرك بالله . وأعتقد أنه مسير فى مثاله هذه بما سبق أن ذكره فى مواضع من كتابه بشأن نزوع طوائف من المسلمين إلى التعصب لبعض الشخصيات الإسلامية ورفعها إليها إلى مراتب قدسية ، متأثرة بلا ريب بعقائدها الأصيلة قبل هدايتها إلى الإسلام ، أو لاعتبارات سياسية . ومن الناحية الأخرى يتأثر الأستاذ توينبى بما هو سادى فى معظم البلاد الإسلامية من تقديس العامة للأولياء ونسبة الأعمال الحارقة إليهم ، وهى لا تصدر إلا عن الله تبارك وتعالى . لكن هذه الخرافات فى طريقها إلى الزوال بفضل انتشار التعليم وشيوع الثقافة وارتقاء الوعى الاجتماعى . ولم يتأثر جوهر الإسلام إطلاقاً بنزعات العامة وشطحات الجهال ، إذ ما تزال تعاليمه تقوم على التمسك التام بمبدأ التوحيد وتبذد الشرك فى شتى صورده منذ ظهوره ولم تؤثر أحداث الزمن فى نمو مبادئه ، فى قليل أو كثير . ( المترجم )

إما قوانين جارية في البيئة غير البشرية للإنسان ، وتفرض نفسها من الخارج على سير التاريخ .

وإما قوانين فطرية كامنة في التركيب النعسي للطبيعة البشرية نفسها وفي عملها .

فلنبداً بفحص الفيض الأول :

فن قبيل المثال ؛ يؤثر تعاقب الليل والنهار — بكل جلاء — في الحياة اليومية للناس ؛ ومع ذلك نستطيع استبعاد هذه الظاهرة من تقديرنا في هذا البحث . إذ كلما عظم ترقى الإنسان من الحياة البدائية ، عظمت قدرته على « تحويل الليل إلى نهار » كيفما ووقتما شاء .

وثمة دورة فلكية أخرى هي دورة الفصول السنوية ، كان الإنسان — في زمن مضى — عبداً لها . فقد أصبحت مدة الصوم الكبير موسماً للصيام المسيحي . وتفسير ذلك ؛ أنه قبلما تطلع المسيحية على العالم بأحقاب عديدة لا حصر لها ، كانت نهاية أيام الشتاء ، فترة تنقص فيها موارد الإنسان بانتظام ، سواء أكان ذلك مفيداً له من الناحية الروحية أم غير مفيد . على أن أهل الغرب — ومن اعتنق الأساليب الغربية — قد حرروا أنفسهم — في هذه الناحية أيضاً — من ربة « قانون الطبيعة » . فبفضل مخازن التبريد ووسائل النقل السريع المنتشرة على سطح البسيطة التي وحدتها الأساليب التكنولوجية ؛ أصبح في وسع أى إنسان بيده نقود — في أى جزء من العالم — أن يشتري اللحم والخضر والفاكهة والزهور ، في أى فصل من فصول السنة .

ولعل الدورة السنوية المألوفة ؛ لم تعد هي الدورة الفلكية الوحيدة التي يخضع لها عالم النبات على الكرة الأرضية ، والتي كانت تستعبد — بدورها — الإنسان بطريق غير مباشر ؛ طالما كان يعتمد على الزراعة في معاشه . وقد كشف علماء الأرصاد الجوية المحدثون عن دلالات لدورات مناخية ذات ترديد زمني أكثر طولاً . وعند بحث هجرات البدو من « الصحراء » على « الأراضي المنزرعة » ؛ استخلصنا دليلاً غير مباشر ينم عن وجود دورة

مناخية ، تتردد كل ستائة سنة . وتتكون كل دورة من هذه الدورات من نوبات متعاقبة من الجذب والرطوبة . وقد بدت هذه الدورة الافتراضية - وقت كتابة هذه السطور - أقل ثبوتا عن بعض الدورات الأخرى التي من نفس النوع ، تلك هي ؛ التي لا تتألف أطوالها التوجية من أكثر من رقمين - بل وربما من رقم واحد فقط - وهي دورات بدا أنها تهيمن على تقلبات المحاصيل الزراعية التي تزرع وتحصد لإصطناعيا في ظل الظروف الحديثة .

ولقد قبل بأن ثمة صلة توافق ؛ بين دورات المناخ والمحصول هذه ، وبين الدورات الصناعية الاقتصادية التي قال بها بعض الاقتصاديين . ولكن استقر الرأي السائد في الأيام الأخيرة بين الخبراء على خلاف ذلك النظر فأبدي ستانلي جيفونز Stanley Jevons - وهو رائد من رواد ميدان هذا البحث في العصر الفيكتوري - رأيا برفاق مؤداه أن الدورات الصناعية قد تكون نابعة عن فعل ذبذبات في النشاط الإشعاعي للشمس - على نحو ما يبدو في ظهور البقع الشمسية واختفائها . إلا أن هذا الرأي ، قد انطفا بريقه ؛ ولم يعد أحد يأخذ به . وقد وافق جيفونز نفسه خلال السنوات التالية ؛ على أن « دورات الكساد الصناعي تتصل بالفعل في طبيعتها إذ تتوقف على ما يعتبر للناس من تقلبات في نزعات القنوط والأمل والإخفاق والفرح » (١) .

وفي عام ١٩٢٩ ، أبدي ا . س . بيجو A. C. Pigou - وهو اقتصادي من جامعة كمبردج - الرأي القائل بأنه مهما بلغت أهمية عامل تقلبات المحصول في تعيين ذبذبات النشاط الصناعي ؛ فإنها كانت وقت كتابة مؤلفه ، أقل بشكل حاسم مما كانت عليه قبل ذلك الوقت بـخمسين أو مائة سنة . وانضم ج . هاربلر J. Harbeler لنفس الرأي وقما كتب

(١) صفحة ١٨٤ Jevons, W. Stanley : Investigations in Currency and Fiance 2n ed (London, 1909 Macmillan

مؤلفه بعد انقضاء اثني عشرة سنة على كتابة بيجو Pigou . ونورد هذا الرأي هنا ، كأ نموذج للرأى الاقتصادى الراجح وقت كتابة هذه السطور :

« إن تضاول الرخاء - مثل تعاضمه - لا بد وأن يُعزى إلى عمليات تجرى داخل دنيا المال والأعمال ذاتها ، ولا علاقة لها بتأثير عوامل الاضطراب التى تفد من الخارج .

« إن الشئ الغامض بصدد هذه التقلبات ، أنه لا يتأتى تحليلها بمثل الأسباب الخارجية التى تفسر بها المحاصيل السيئة الراجعة إلى أحوال الطقس والأمراض والاضطرابات الشاملة وتوقف العمال عن العمل والزلازل والوقف الفجائى لمجريات التجارة الدولية . . . وما إلى ذلك . إذ يندر أن يؤثر الهبوط الحاد فى حجم الإنتاج وفى الدخل الحقيقى أو فى مستوى العمالة - كنتيجة لسوء المحاصيل والحروب والزلازل وما إلى ذلك من العوامل الطبيعية التى تحل بعمليات الإنتاج - يندر أن يؤثر فى النظام الاقتصادى فى جملته . ولا يترتب عليه بالتأكيد ، الكساد الاقتصادى بمعناه الفنى فى نظرية الدورة الاقتصادية . فإننا نعنى بالكساد - فنياً - ذلك الهبوط الظاهر الطويل الأمد ، فى كل من حجم الإنتاج والدخل الحقيقى والعمالة ؛ والذى لا يتأتى تفسيره إلا بفعل عوامل نابعة من داخل النظام الاقتصادى نفسه ، وللهولة الأولى بفعل عدم كفاية الطلب النقدى ، وبعدم وجود فرق كاف بين الثمن والتكلفة .

« ولأسباب متعددة ؛ يبدو من المرغوب فيه - عند تفسير الدورة الاقتصادية - تعليق أقل ما يمكن من الأهمية على تأثير عوامل الاضطراب الخارجية . . إن استجابات النظام الاقتصادى تبدو من النظرة الأولى أكثر أهمية فى تشكيل الدورة الاقتصادية ، من الصدمات الخارجية . وثانياً يبدو أن التجربة التاريخية توضح أن للحركة الدورية ميلاً قوياً للاستمرار ،



حتى حيث لا توجد مؤثرات خارجية بارزة تعمل فيها ؛ وقد يكون السبب في استمرارها . ويوحى هذا بوجود عدم استقرار طبيعي يلزم نظامنا الاقتصادي ، أى ميل للتحرك في اتجاه معين أو في آخر <sup>(١)</sup> .

وثمة دورة طبيعية أخرى تختلف اختلافاً بيناً ، ولا يمكن إغفالها . ألا وهي دورة الحياة البشرية ، من الميلاد ونمو وإنجاب وشيخوخة وموت ؛ ولقد برز مغزى هذه الدورة في ناحية تاريخية معينة لكاتب هذه الدراسة ، من حديث جرى خلال مأدبة غداء عام ، أقيمت في سنة ١٩٣٢ بمدينة طروادة من أعمال ولاية نيويورك :

فلقد أتى الكاتب نفسه جالساً إلى جانب المدير المحلى للتعليم العام ؛ فكان أن سأله عن أشد جوانب مهنته المتعددة تشويقاً وإثارة ، فأجاب على الفور « تنظيم دروس اللغة الإنجليزية لأجداد الطلبة . فسأله الزائر البريطاني دون تفكير :

« كيف يتأتى في بلد يتحدث الإنجليزية أن تتقدم بأحد الناس السن حتى يصبح جداً دون أن تتسنى له إجادة الإنجليزية ؟ ! » .

فأجاب المدير « حسناً ، إنك ترى أن طروادة هي المركز الرئيسي لصناعة الياقات الكتانية في الولايات المتحدة . وقبل صدور قوانين تقييد الهجرة عامي ١٩٢١ و ١٩٢٤ ؛ كانت جمهرة القوة العاملة هنا تأتي من بين المهاجرين الأجانب وأفراد أسرهم . إلا أن المهاجرين الوافدين من كل بلد من البلاد الرئيسية المصدرة للمهاجرين ، اعتادوا الاستمسك بماضيهم الخاص إلى أقرب مدى في استطاعتهم ، وذلك بأن يجتمعوا بأبناء بلدتهم . فكان المهاجرون من الأصل القومي الواحد لا يقنعون بالعمل جنباً إلى جنب في ذات المصانع ؛ بل لقد كانوا يحرصون على السكنى متجاورين في الحي الواحد .

(١) صفحة ١٠ ، Prosperity and Depression (Geneva 1941 Haberler G. : League of nations).

حتى إذا حان وقت اعتزالهم العمل ؛ ما كان معظمهم ليدرك من الإنجليزية أكثر مما كان يعرفه وقتما وصل إلى الشواطئ الأمريكية للمرة الأولى . ولم ترغبهم الظروف على معرفة مزيد من اللغة الإنجليزية في هذا الطور الأمريكي من حياتهم ، نظرا لاستعانتهم بترجمين من نشأوا في أوطانهم . أما أطفالهم فقد وصلوا إلى أميركا صغارا في سن مكنتهم من الالتحاق بالمدارس العامة قبل انخراطهم بدورهم في المصنع ؛ فترتب على جمعهم بين تعليم أمريكي وطفولة إيطالية - مثلا - أن أصبحوا يجيدون اللغتين إجادة تامة . فهم يتحدثون الإنجليزية في المصنع والشارع والحانوت ويتكلمون الإيطالية في دور والديهم ؛ من غير أن يدركوا - غالبا - أنهم ينتقلون دوما من لغة إلى أخرى . فكانت ثنائيتهم اللغوية المطواعة البريئة من الإحن ؛ ملائمة إلى أقصى حد لوالديهم الشيوخ . وحقا ؛ شجعت هذه الثنائية ميل والديهم - بعد تقاعدهم عن العمل - إلى نسيان حتى تلك الكلمات الإنجليزية التي كانوا قد التقطوها في الماضي خلال فترة عملهم بالمصنع . إلا أن هذه القصة لم تتم فصولها ، فبمرور الوقت ؛ تزوج أبناء المهاجرين ، وأنجبوا هم بدورهم أطفالا ؛ فكان أن أصبحت الإنجليزية لهؤلاء الأفراد من الجيل الثالث من المهاجرين ، لغة البيت كما هي لغة المدرسة . ولما كان الوالدان قد تزوجا بعد تلقي تعليمهما في الولايات المتحدة ، فقد يكون أحدهما منحدرأ من أصل غير إيطالي - كما هو الغالب - فتصبح الإنجليزية « اللغة المشتركة » التي يتحدث بها الأب والأم ، فيما بينهما . وهكذا ترى الأطفال المولودين أمريكيين من والدين يتحدثان لغتين يجهلون لغة الجدّين الأصلية وهي اللغة الإيطالية ؛ وفوق هذا فإنهم لا يجيدون لاستعمالها مجالا ، إذ ما هو الداعي إلى تكليف أنفسهم عناء تعلم لغة أجنبية ، تفصح عن أصلهم غير الأمريكي ؛ وهم حريصون على أن ينفلتوا من هذا الأصل ويسدلوا عليه ستار للنسيان ؟

وهكذا وجد الجدّان أن ليس في وسعهما إغراء أحفادهما بالتحدّث معهما باللغة الوحيدة التي في مكنتهما التحدّث بها في يسر وسهولة ، وبذلك يجابهان بغتة - في غضون شيخوختهما - ذلك المصير المفجع وهو عجزهما عن إقامة أى نوع من الاتصال الإنساني مع ذراريهم أنفسهم : وهذا مصير لا يمكن أن يحتمله الإيطاليون وغيرهم من الأوروبيين سكان القارة - غير الناطقين بالإنجليزية - الذين تقوى لديهم نزعة التكافل العائلي . فأصبح لديهم للمرة الأولى في حياتهم ، حافز يدفعهم للتمكّن من لغة البلد الذي استوطنوه ، تلك اللغة التي لم يكن وقتذاك ثمة ما يفرّجهم على تعلمها . فكان أن تقدّموا إلى في العام الماضي طالبين مدّ يد المساعدة إليهم . وكنت تواقاً بالطبع إلى تنظيم فصول خاصة لهم : ورغماً عما هو معروف من صعوبة مشكلة تعلم لغة أجنبية كلما تقدم العمر بالإنسان ، ففي استطاعتي التأكيد بأن فصول اللغة الإنجليزية التي افتتحت لتعليم الأجداد ، تعتبر من أكثر الأعمال نجاحاً من بين الأعمال التي اضطلعت بها إدارتنا .

تبدى قصة « طروادة » الأمريكية هذه ، كيف تستطيع سلسلة تتألف من ثلاثة أجيال أن تحقق عن طريق التأثير التجميعي لحلقتين متتابعتين ، تحوّلًا اجتماعيًا لا يستطيع تحقيقه أبناء جيل بمفرده في غضون حياته وحدها . وليس في المستطاع تحليل العملية التي بمقتضاها حوّلت أسرة إيطالية نفسها إلى أسرة أمريكية ؛ أو وصفها تحليلًا أو وصفًا واضحًا على أساس حياة فرد واحد . فالمد اقتضى الأمر تفاعلاً بين ثلاثة أجيال للوصول إلى هذه النتيجة .

وعندما تنتقل من التحول في مجال الجنسية - إلى التحول في مجال الدين والطبقة - نجد بالمثل ، أن الأسرة - لا الفرد - هي وحدها الوحدة التي يمكن اكتناها فاعليتها .

ففي إنجلترا الحديثة على أيام الوعي الطبقي في إنجلترا هذه التي كانت في سنة ١٩٥٢ تتحلل سريعاً تحت بصر كاتب هذه الدراسة ؛ كان تحول أسرة تنحدر من أسلاف من الطبقة العاملة أو من الطبقة الوسطى السفلى إلى « كرام » القوم يستغرق في العادة ثلاثة أجيال .

وفي مجال الدين ؛ يبدو أن معدل طول الموجة ، كان كذلك ثلاثة أجيال . ففي تاريخ استئصال الوثنية في العالم الروماني ؛ جاء الإمبراطور ثيوديسيوس الأول Theodosius - المسيحي المولد والشديد التدين إلى حد التعصب - بعد قسطنطين الأول الذي نشأ وثنياً ثم تنصّر . لكنه لم يأت بعده مباشرة في الجليل التالي ، ولكن في الجليل الذي تلا ذلك . وفي تاريخ القضاء على البروتستانتية من فرنسا خلال القرن السابع عشر ؛ كان ثمة نفس الفاصلة بين لويس الرابع عشر الكاثوليكي المولّد والشديد التدين إلى حدّ التعصب ، وبين جدّه هنري الرابع الذي كان قبلاً من أتباع مذهب كالفيني . وقد تطلبت عملية التحوّل في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ؛ نفس العدد من الأجيال ، لإنتاج كاثوليكين أصلاء متدينين ، أحفاد أفراد الطبقة البورجوازية المتوسطة المتنصرين رسمياً فقط والذين كانوا فيما مضى يدينون باللاأدرية أو الإلحاد . ثم عادوا إلى الكاثوليكية ؛ لأن الكنيسة قد أصبحت تعني بالنسبة لهم قيمة جديدة كنظام تقليدي يمكن استخدامه كسند منيع ضد موجة الاشتراكية العارمة ، وغيرها من الأيديولوجيات التي كانت تهدد بمحو التفاوت الاقتصادي بين البورجوازية والطبقة العاملة .

كذلك اقتضى الأمر في العالم السوري - في عهد الخلفاء الأمويين - ثلاثة أجيال حتى يتكون مسلمون مخلصون متدينون أصلاء ؛ من بين ذراري الأجداد من ذوى الأصل ، وحتى يتكون المسيحي أو المجوسي الذين اعتنقوا الإسلام تقريباً إلى الطبقة العربية الإسلامية الأصلية الحاكمة . وكانت مدة حكم الدولة الأموية - التي نافحت عن سيادة العرب - هي نفسها تلك الأجيال الثلاثة

التي اقتضاها ظهور أولئك الأحفاد المسلمى المولد للمؤمنين الأول ، على مسرح التاريخ . ثم دالت دولة الأمويين أنصار السيادة العربية ، وتلاهم فى الحكم العباسيون الذين نادوا بالمساواة بين المسلمين : وكان ذلك عند ما حاول الأحفاد المسلمون المؤمنون لأولئك الذين اعتنقوا الإسلام — عندما حاولوا باسم العقيدة الإسلامية — الاتفاق مع الأحفاد المسلمين — الخراسانيين — لأولئك المسلمين العرب الأولين الذين فتحوا خراسان :

وإذا كان قد ثبت أن تعاقب أجيال ثلاثة هو — كما سلف — الوسيلة النفسانية العادية للتغيير الاجتماعى فى ميادين ثلاثة هى : الدين والطبقة والقومية ؛ فليس من المستغرب أن نرى تعاقب أربعة أجيال ، يؤدى دورا مشابها فى ميدان السياسة الدولية :

فلقد وجدنا بالفعل — فى مجال التلاقى بين الحضارات — أن الفترة الزمنية بين قيام طبقة مثقفة ثم تمردها على صانعيها ؛ يبلغ طولها حوالى ١٣٧ سنة فى المتوسط . وقد تحققنا من ذلك ، فى مجموعه من ثلاثة أو أربعة أمثلة . وليس من العسير أن نرى كيف أن تعاقب أربعة أجيال ، قد يحدد كذلك طول موجة دورة الحرب والسلام : وذلك إن سلمنا بأن أوجاع حرب عامة تُحدث أثراً عميقاً فى النفس البشرية ، أشد مما تحدثه بها دورة معتدلة — نسبياً — من الحروب الجائنية :

على أنه إذا ما طبقنا هذه النظرة على دورات الحرب والسلام فى أوروبا الغربية الحديثة ، لاصطدمنا بعقبة كأداء . إذ نجد أن إحدى تلك الحروب الجائنية — وهى حرب الثلاثين عاماً — رغم أنها اقتصرت من الناحية الجغرافية على أوروبا الوسطى ، لربما كانت فى نطاق مجالها الجغرافى الضيق أشد — وليست أقل — تدميراً من الحروب ، العامة « التى سبقها ، والتي أعقبها :

ولست دورة الحرب والسلام هذه بأخر الدورات والمعاداة المنتظمة ،  
الحقيقية في الظاهر ( وإن لم تكن صحيحة ) التي يتعين علينا إيجاد تفسير لها ،  
كما أنها ليست أطولها : فإن كلا من هذه الدورات التي تستغرق مائة سنة  
أو ما في حكمها ، ما هي إلا حلقة في سلسلة تولف في مجموعها ما سبق أن  
أطلقنا عليه « عصر اضطراب » يتلو إنهار حضارة ما ، ويستمر بدوره كما  
حدث في التاريخين الهليني والصيني - مثلا - حتى يكون دولة عالمية ، تقدم  
هي الأخرى نفس الإيقاعات التي سبق أن لاحظناها .

إن العملية بأسرها من بدايتها إلى نهايتها تستغرق - بصفة عامة -  
فترة تتراوح بين ثمانمئة سنة وألف سنة .

فهل يُجدينا هنا التفسير النفساني للدورات المنتظمة في الشؤون البشرية ،  
وهو التفسير الذي أفادنا حتى اليوم بما فيه الكفاية ؟

ستكون إجابتنا بالنفي ؛ لو كان المظهر العقلي والإرادة البشرية هما -  
في نظرنا - قوام النفس البشرية بأثرها .

وفي العالم الغربي - في الجيل الذي عاش فيه كاتب هذه الدراسة -  
كان علم النفس ما يزال في طفولته ؛ لكن رواد هذا العلم ، كانوا قد  
بدأوا إرتياد آفاقه ؛ بحيث مكنوا ك . ج . يونج (1) من القول بأن  
لُجّة اللاشعور التي يطفو على سطحها العقل الواعي والإرادة الواعية لكل  
شخص ؛ ليست خليطا غير مميّز المعالم ، بل إنها عالم مترابط ، يمكن أن  
تميز فيه طبقة من النشاط النفساني تحت أخرى . وبدا أن أقرب طبقة إلى  
السطح ، هي « لاشعور شخصي » أودعته تجارب الشخصية الفردية في مجرى

(١) كارل جوستاف يونج ( ولد عام ١٨٧٦ ) : عالم نفساني سويسري وأخصائي في  
العلاج النفسي Psychotherapy . وقد تعاون مع فرويد الملامة النفساني الذائع الصيت في  
تطوير نظام تحليل العمليات الذهنية المعروفة باسم « التحليل النفسي » . لكن انغمس تعاون العالمين  
بسبب اختلافهما في الرأي . فعاد يونج إلى زيورخ لينشئ مدرسة للطب النفساني . ( المترجم )

حياة الفرد : رجلا كان أم امرأة ، حتى اليوم الذى يعيش فيه . كما انضح أن أعمق طبقة بلغها رواد النفس ؛ هي لاشعور عنصري لا يخلص فردا بذاته ، لكنه مشاع بين جميع الكائنات البشرية . على نحو ما تعكس الصور الأولى الكامنة فى اللاشعور ؛ تجارب البشر مجتمعين ، ترسبت فى أعماق النفس البشرية ، إبان طفوأة الجنس البشرى ؛ بل ربما خلال مرحلة سبقت اكتمال الإنسان بشرا سويا .

وعلى هذا الأساس ؛ لربما لا يجافى العقل ، تصوّر أنه ما بين طبقتى العقل الباطن ( اللاشعور ) العُلْيَا والدُنْيَا اللّتين وفُتق علماء الغرب - حتى الآن - إلى اكتشافهما ودراستهما ، قد توجد بينهما طبقات وسطى لم ترسبها التجربة العضوية ولا التجربة الشخصية . لكن رَسبها تجربة جماعة تعلق فوق مستوى الشخص ، لكنها لا تصل إلى مستوى العنصر ؛ فلقد تكون هناك طبقات من التجربة ؛ مشتركة : لأسرة ما ، أو جماعة ما ، أو مجتمع ما . وإذا ثبت أنه يوجد فى المستوى التالى فوق « الصور الذهنية الأولى » التى تمتّ إلى الجنس البشرى بأسره ؛ صور ذهنية تعبّر عن كيف<sup>(١)</sup> معين لمجتمع معين ؛ فلربما كان انطباع هذه الصور فى النفس ، هو السبب فى طول المدد التى قد اقتضتها طائفة من عمليات التحوّل الاجتماعى حتى يتم مفعولها .

ومن قبيل المثال ؛ إن إحدى هذه الصور الاجتماعية التى وضح انطباعها - بعمق - فى الحياة النفسية الباطنة لأطفال حضارة فى طور النمو : إن هذه الصورة كانت هذا الوثن الذى يدعى الدولة الإقليمية ذات السيادة . ويمكن - توا - أن يتصوّر أنه حتى بعد إن بدأ هذا الوثن يفرض على عبّاده تقديم قرابين بشرية بلغت فى بشاعتها ما كان

(١) الكيف Ethos : فى الأخلاق أو الأدب أو الاجتماع . ( المترجم )

يؤديه القرطاجنيون إلى إلههم بعل عمون<sup>(١)</sup> أو ما كان يقدمه البنغاليون إلى يواجرنوت Juagernot<sup>(٢)</sup>. فإن ضحايا هذا الشيطان الذي استحضروه هم أنفسهم ؛ إنما كانوا في حاجة إلى هذه التجربة المرّة - لا تجربة فترة حياة فرد واحد - بل ولا تجربة دورات متعاقبة من ثلاثة أجيال ؛ ولكن تجربة دامت فترة لا تقل عن لأربعمائة سنة ، حتى استطاع هؤلاء الضحايا ، إقتلاع عبادة هذا الوثن الخبيث من قلوبهم واطراحه بعيداً عنها . بل إنه من الممكن أن نتصور أنهم قد احتاجوا لا إلى أربعمائة سنة فقط ، بل إلى ثمانمئة أو ألف سنة حتى يخلصوا أنفسهم تماماً من كل

(١) بعل : المعبود المذكر الرئيسي للأمتين الفينيقية والكنعانية . وقد بدأت عبادة « بعل » كإله للشمس ، لكن عابده جعلوا منه الإله الأعظم مدبر الكون ومسير الخلقوات . وانحصرت طقوسه في بداية الأمر في عبادته على الجبال وخاصة جبل سيناء حيث كان يجتمع أهل مدين . وكان بعل هو جانب الخير في عبادة القوم بينما كان الصنم « مولوخ » جانب الشر . وعلى توالى الأيام اتحد رب الخير « بعل » مع رب الشر « مولوخ » . في إله واحد دعاه القوم « ملكارت » الذي غدا معبود الفينيقيين الرئيسى . ويدخل اسم بعل في كثير من الأسماء الفينيقية خاصة والسامية عامة : يزبعل ( إيزابيل ) وهى بعل ( هنيبال ) . الخ ( المترجم )

(٢) يواجرنوت أو بورى Puri : مدينة على شاطئ أوريسا في البنغال بالهند . وهى من أهم أماكن الهند المقدسة . وتشتهر بوجود صنم ذهبي للبوذا . كما أن بها معبداً يضم صنماً للرب الهندوكى فيشنو ( ويشغل المكان الثانى في التثليث الهندى : براهما - فيشنو - شيفا ) ويقوم فيشنو بدور الإله الحافظ . ويطلق على هذا الصنم اسم يواجانات Jugannath ( أى سيد العالم ) . وتقام سنوياً طائفة من الاحتفالات تكريماً له وتستمر عدة أيام . ويحج إليه الكثيرون ؛ ويموت عدد كبير من الحجاج في طريقهم إلى مكان الاحتفالات وفى أثناءها ، الأمر الذى دفع الكهنة إلى ترويض فكرة أن الميت خلال الاحتفالات ينعم بالأجر الأخرى والثواب الإلهى . فكان أن راجت الفكرة وأصبح المتحمسون من معبّاد الصنم يضحون بأنفسهم إلتاماً للمثوبة والأجر . على أن هذه العادة في طريقها إلى الزوال بفضل تدخل الحكومة الهندية وتعاظم الوعى الاجتماعى ( المترجم )



جهاز الحضارة ، التي أبرز عصرُ الاضطرابات إنهارها وتحللها ؛ ولتفتتح قلوبهم لتلقى طابع مجتمع آخر من نفس النوع الحضارى ، أو من نوع حضارى يخالفها ، مما تمثله الديانات الأعلى مرتبة . ذلك لأنه يحتمل أن الصورة الذهنية لحضارة ما قد تكون أشد جاذبية للعقل الباطن ، من الصورة الذهنية لأية دولة من الدول الإقليمية التي قد تترابط فيها الحضارات على الصعيد السياسى ؛ ما لم - وإلى أن - تنخرط تلك الدول فى نهاية المطاف فى دولة عالمية .

وفى وسعنا بالمثل ؛ إدراك كيف أن الدولة العالمية - وقد تألفت من عدة دول إقليمية - قد تنجح بدورها فى بعض الأحيان - بعد توطيد دعائمها - فى استبقاء سلطانها على رعاياها السابقين . بل قد تُوفّق فى المحافظة على إعتبارها فى قلوب أولئك الذين تولّوا تقويض دعائمها ؛ وذلك لعدة أجيال - بل لعدة قرون - بعد أن فقدت أسباب نفعها وقوتها ، وغدت كابوساً ثقیل الاحتمال ، مثلما كانت الدول الإقليمية التي سبقتها ، والتي أقيمت الدولة العالمية لتصفيتها .

« إن العلاقة بين المصوم الخارجية التي يحسّ بها ممثلو جيل بلغ أشده ؛ وهى مخاوف تنكيف - مباشرة - بالوضع الاجتماعى للناس الذين يحسون بها . إن العلاقة بين هذه المصوم الخارجية وبين الداخلية - التي تعمل عملها بطريقة آلية الناس من أبناء الجيل الصاعد - هذه العلاقة ؛ هى بلا جدال ، ظاهرة ذات أهمية على نطاق واسع . . . إن الطابع الذى يضعه ركّب الأجيال المتعاقبة على كل من نمو الفرد نفسانياً ، ويجرى التحوّل التاريخى ؛ هو شىء لن نبدأ فى تفهّمه بأكثر دقة مما هو حاصل فى الوقت الحاضر ، إلا عندما نصبح أقدر - مما نحن عليه حالياً - على

تسجيل ملاحظتنا وإعمال تفكيرنا التاريخي على أساس حقب طويلة من الأجيال» (١) ،

وإذا كانت القوانين الاجتماعية التي تؤثر في تواريخ الحضارات هي حقاً ، إنعكاسات للقوانين النفسانية التي تنظم طبقة من العقل الباطن واقعة أسفل الطبقة الشخصية ؛ فلا بد وأن هذه الظاهرة تفسر لنا أيضاً لماذا يجب أن تكون هذه القوانين الاجتماعية - كما هي فعلاً - أكثر وضوحاً بكثير ، وأعظم دقة في إنظامها في طور الإنحلال ، من تاريخ الحضارة المنهارة ؛ منها في طور نموها السالف .

ورغماً عن إمكان تحليل طور النمو - وكذلك طور الإنحلال - إلى سلسلة من نوبات التحدى والاستجابة ؛ فلقد ألقينا أنه من المحال تعيين أى معدل لطول الموجة يكون مشتركاً بين النوبات المتعاقبة التي يحدث النمو الاجتماعى في خلالها . ولم نحالفنا التوفيق ؛ في قياس الفترات الفاصلة بين عروض التحديات المتعاقبة ، أو الفاصلة بين صدور الاستجابات الفعلية المتعاقبة ؛ كما تبين لنا أن هذه التحديات المتعاقبة - وهذه الاستجابات المتعاقبة - متباينة في طور النمو إلى غير حد . وعلى النقيض ؛ تتسم المراحل المتتالية لطور الإنحلال ، بمظاهر متكررة لتحد مطابق يواصل معاوداته بسبب عجز المجتمع المنحل عن مواجهته . كذلك تبين لنا أثناء بحث جميع حالات الإنحلال الاجتماعى الماضية التي استعرضناها : إن نفس المراحل المتعاقبة تتوالى بنفس النظام بصورة لا تتغير ، وأن كل مرحلة تدوم - على وجه التقريب - نفس الفترة الزمنية بحيث يقدم طور الإنحلال - في مجموعه - صورة عملية مطردة الحدوث تستغرق نفس المدة في كل حالة .

(١) صفحة ٥١ ؛ Elias, N. Über den Prograss der Zivilisation, voll II

wandungen der Gesellschaft : Entwurf Zu einli Theorie der Zivilisation (Basel 1939, Hans Zum Falken).

وفي الواقع : بمجرد حدوث إهيار إجتماعى ، فإن النزعة صوب التنوع والتباين - وهى سمة طور النمو - تختفى وتحل مكانها نزعة نحو التماثل . وتسفر النزعة الأخيرة عن قوتها ، بإنتصارها - إن عاجلاً أم آجلاً - على التدخل الوافد من الخارج ، وعلى المقاومة المنبعثة من الداخل .

ومن قبيل المثال : لاحظنا كيف أنه عندما إختزلت - قبل الأوان - الحضارة الهلينية الداخلية حياة الدولة العالمية السورية ثم حياة الدولة العالمية السندية - قبلما تستكمل كل منهما الدورة العادية لحياة الدولة العالمية - لم يستطع المجتمع المتردى المغمور أن يزول - أو أنه لم يُرد ذلك - إلا بعد ما استكمل فى الوقت المناسب وبالرغم من أثر عامل إضطراب متمثل فى نظام إجتماعى غريب ، السبيل الرتيب الذى يسلكه المجتمع المهار فى غمار الانحلال . وقد تم ذلك عن طريق عودة ذلك المجتمع إلى الدخول فى الطور الذى انتقع ، وإنتظامه فى نطاق دولة عالمية عاودت الظهور ، إلى أن تمت قصة عمره العادى .

هذا التباين الملحوظ بين إنتظام ظواهر الانحلال الإجتماعى وإطرادها ، وبين عدم إنتظام ظواهر النمو الاجتماعى وتباينها : قد سنُجَلِّ مراراً فى هذه الدراسة كحقيقة تاريخية ثابتة ، دون أن تُبدل لغاية الآن أية محاولة لتعليل دوافعها . وفى هذا القسم من الدراسة الذى يُعنى ببحث العلاقة بين القانون والحرية فى شئون البشر ؛ يقع على عاتقنا واجب دراسة هذه المشكلة . ولعلنا نستطيع الاهتداء إلى مفتاح لحل المشكلة ، فى الاختلاف بين الطبائع الخاصة بال شخصية الواعية على سطح النفس ، وبين طبقات العقل الباطن للحياة النفسية التى تختفى وراءها :

وتتمثل القدرة المميزة التى تنعم بها نعمة الوعى ، فى ممارسة «حرية الاختيار» . فإذا ما أخذ فى الاعتبار أن الحرية النسبية هى لإحدى خواص طور النمو ، فلا بد أن نتوقع أنه ، ما دامت للكائنات البشرية - فى مثل

عذة الظروف - حرية تحديد مستقبلها ؛ فلا بد أن يكون طريق العناد - كما يبدو في الظاهر - هو الطريق الذى تسلكه : والعناد هو طريق التمرد على حكم « قوانين الطبيعة » . وحكم الذى يلجم « قوانين الطبيعة » ، هو - مع ذلك - غير دائم ، لأنه يتوقف على توفر شرطين صارمين :

الشرط الأول - ضرورة توصل الشخصية الواعية إلى إخضاع العالم الحفى الكامن فى العقل الباطن ، لسلطان الإرادة والعقل .

الشرط الثانى - ضرورة محاولة تلك الشخصية الواعية ، أن تعيش - جنباً إلى جنب - فى وحدة مع الشخصيات الواعية الأخرى ؛ التى يتعين عليها أن تتبى معها - وفقاً لوضع أو لآخر - فى الحياة الفانية للإنسان العاقل : والإنسان العاقل ؛ كان حيواناً اجتماعياً قبل أن يغدو كائناً بشرياً ، كما كان جهازاً جنسياً ، قبل أن يصبح حيواناً اجتماعياً .

ولا يتأتى فصل هذين الشرطين اللازمين لممارسة الحرية ، أحدهما عن الآخر . ذلك لأنه إذا صحَّ القول بأنه « عندما يسقط الأوغاد ، يظهر الشرفاء » ، فلا يقل عن ذلك صدقاً أنه عندما يتشاجر الأشخاص ، يفلت زمام حالات النفس اللاشعورية من سيطرتهم كأفراد وجماعات .

وصفوة القول ؛ فإن نعمة الإدراك الواعى - ومناط رسالته تحرير الروح الإنسانية من ربة « قوانين الطبيعة » التى تهيمن على لُجَّة النفس اللاشعورية - كفيلة بإلحاق الهزيمة بذاتها ، بإساءتها إستخدام الحرية التى هى سبب وجودها ؛ كسلاح فى الصراع الناشب بين أخوين : ويكون بناء النفس البشرية وحركتها ، هما السبب فى هذا الانحراف المفجع : وذلك دون حاجة إلى اللجوء لاقتباس الفرض الملحد الذى ذهب إليه « بوسيه Bessuet » ، عن مداخلات خاصة يقوم بها إله قادر على كل شىء - لكنه حقود - للتحقق من أن إرادات البشر سوف تنتهى إلى العجز ، إذ يححو بعضها بعضاً ؟

## ( ٣ ) هل قوانين الطبيعة الجارية في التاريخ : حاسمة ،

أو يمكن السيطرة عليها ؟

إذا كان استعراضنا الآنف الذكر قد أفننا بأن شئون البشر خاضعة لقوانين الطبيعة ، وأنه يمكن تفسير سريان هذه القوانين في هذا المجال — إلى حد ما على الأقل — فعماسانا نستطيع الآن أن نمضى قدماً لنستقصى ما إذا كانت قوانين الطبيعة الجارية في التاريخ البشرى حاسمة لاتلين ، أو يمكن السيطرة عليها . فإن التزمنا هنا الطريقة التي اتبعناها حتى الآن ، بتقديم بحث القوانين غير البشرية في طبيعتها ؛ قبل أن ندفع بقوانين الطبيعة ذات الطابع البشرى إلى مجال البحث : سنجد أنه فيما يتصل بالقوانين ذات الطبيعة غير البشرية ، قد أجبنا عن السؤال فعلا في الفصل السابق .

ومناطق الإجابة ؛ هو بالاختصار ، أنه وإن كان الإنسان عاجزاً عن تعديل أحكام أى قانون ذى طبيعة غير بشرية أو وقف سريانه ، إلا أن في وسعه التأثير في مجال هذه القوانين ، عن طريق توجيه سيره على خطوط تجعل هذه القوانين تعمل في سبيل خدمة أغراضه الخاصة . ذلك هو ما عناه « الشاعر » الذى سبق الاستشهاد بشعره — إذ قال :

عند ما يكشف العلماء عن شىء أعظم .

سنكون أسعد حالاً من ذى قبل .

وإن توفيق أهل الغرب في تعديل مجال تطبيق القوانين ذات الطبيعة غير البشرية على شئونه ؛ قد ظهر أثره على شكل تخفيضات تجريبها شركات التأمين على معدلات أقساط التأمين . إذ ترتب على التحسينات التى أدخلت على الخرائط البيانية — وما تلاها من تزويد السفن بأجهزة اللاسلكى والرادار ، التقليل من خطر غرق السفن ؛ وانبئى على استخدام بوتقات الدخان في

كاليفورنيا الجنوبية والستائر الشفافة في وادي كونيتيكت كوت Connecticut ،  
 لتقليل من خطر التلف الذي يحدثه الصقيع بالمحاصيل . وأدى ابتكار القاح  
 والرش والغمر في سوائل المبيدات الحشرية ، إلى خفض خطر إصابة المحاصيل  
 والأشجار وقطعان الماشية بالضرر بفعل الحشرات . والمثل يقال عن  
 « الكائنات البشرية » ؛ فإن استخدام وسائل الوقاية المختلفة ، قد أنقصت  
 مجال المرض وأطالت فرص الحياة .

وإذ ننتقل إلى حيز القوانين ذات الطابع البشرى ؛ تطالعنا نفس القصة  
 تُروى - نوعاً ما - بنبرات صوتية أشد تلجلجاً . فإن خطر الحوادث على  
 اختلاف أنواعها ، قد اختزلها ما طرأ على التعليم والتهديب من تقدم وتحسن .  
 فلقد وُجد أن خطر حوادث السطو يتغير بالزيادة أو النقصان ، بتغير ظروف  
 البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها قطاع الطرق . فأصبح هذا الخطر يتأثر إذن بتدابير  
 الإصلاح الإجتماعى .

فإذا ما أقبلنا على بحث تلك المظاهر المتعاقبة لمد وجزر النشاط الاقتصادى  
 للغربى التي أُطلق عليها اسم « الدورات الاقتصادية » ؛ وجدنا أن دارسيها  
 الفنيين يرسمون خطأً فاصلاً بين العوامل التي يمكن السيطرة عليها ، وتلك التي  
 لا يتأتى التحكم فيها . بل ذهبت إحدى المدارس إلى حد القول بأن هذه  
 الدورات راجعة إلى فعل رجال المال عن عمد وإصرار . لكن الأغلبية ترى  
 أن دور المالىين أقل بكثير من دور الخيال والشعور اللذين لا تمكن السيطرة  
 عليهما ، واللذين يصعدان من طبقات العقل الباطن الدنيا للنفس البشرية .  
 وهكذا يبدو أن المثل الذى يدل على الاتجاه الذى كانت تتجه إليه أذهان  
 بعض الثقات العليا في هذا المجال ، لم يكن هو المثل القائل « فتش عن البنك »  
 بل كان المثل الأكثر شيوعاً القائل « فتش عن المرأة » .

« إن أحد الأسباب التي تفسر لماذا يعتبر إنفاق المال فناً متخلفاً بالنسبة  
 لكسب المال ؛ هو أن الأسرة لا تزال هي وحدة التنظيم الغالبة لإنفاق المال ؛

أما في مجال كسب المال ، قد حلت محل الأسرة ، وحدة أعظم تنظيمًا . إن ربة البيت التي تقوم بجانب كبير من عملية المشتريات في العالم ، لا تختار في هذا المجال لكفائتها كمديرة عمل ، وهي لا تعزل عن وظيفتها في حالة عدم جدارتها - والفرصة أمامها صغيرة لنشر تأثيرها على ربات الأمر الأخرى - إن ثبتت قدرتها . . . فلا عجب إذن إذا كان ما حذقه العالم من فن الاستهلاك لا يعود إلى المستهلكين ، بقدر ما يعود إلى إقدام المنتجين الذين يكفون للفوز بسوق لسلمهم<sup>(١)</sup> .

وتوحى هذه الاعتبارات بأن التقلبات في حجم النشاط الاقتصادي ، قد تظل مستعصية على السيطرة عليها ؛ طالما بقيت وحدات الاستهلاك هي الأسر ، في حين بقيت وحدات الإنتاج في أيدي أفراد أو مؤسسات أو دول ينافس بعضها بعضاً ؛ وتختلف إرادتهم المتنازعة الميدان الاقتصادي مفتوحاً ، تعمل فيه قوى العقل الباطن الكامنة في النفس .

وأما منا الأسلوب الذي اتبعه النبي العبري يوسف كوزير اقتصاد لفرعون مصر في أواخر أيام الهكسوس ، وأدى إلى نجاحه الخارق . ويقوم هذا الأسلوب على تخزين المؤن طوال السنوات السمان لمواجهة السنوات العجاف القادمة . فليس ثمة ما يحول دون إصطناع هذا الأسلوب أخيراً ، في عالم تأثر بالاقتصاد الغربي واتسع حتى شمل الكون بأسره ؛ وليس ثمة من سبب يمنع ظهور « يوسف أمريكي » أو « يوسف روسي » ؛ ليضع جماع حياة الإنسان الاقتصادية تحت هيمنة مركزية - خيرة أو مفسدة - تفوق بالتأكيد أشد شطحات الخيالة الموسوية أو الماركسية تهوراً ؛

(١) صفتا ١٦٥ و ١٦٦ Mitchell, W.C. : Business Cycles : The Problem and its Setting (New York 1927, National Bureau of Economic Research, Inc.

وإذا ما تحوّلنا من الدورات الاقتصادية التي لا تستغرق إلا بضعة سنين ؛ إلى دورة تستغرق جيلاً ويتراوح طول موجتها بين ربع وثلاث قرن ، لاستطعنا أن نرى أن الضياع الذي يتعرض له أى تراث ثقافى ، قد اختزل على الصعيد المادى بفضل الطباعة والتصوير الفوتوغرافى وغيرهما من الأساليب الفنية . كما اختزل على الصعيد الروحى ، بفضل انتشار التعليم .

إلى هنا ؛ تبدو نتائج بحثنا الحالى مشجّعة . لكننا إذ نتقل إلى العمليات الاجتماعية ذات الموجة البالغة الطول - مثل « الساقية ذات الأنين » التي تدور بين تضاعيف ثمانية أو عشرة قرون من الانهيار والانهيار - نجابه سؤالاً ما برح يتبدى بلحاح فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لعدد متزايد من الأذهان فى العالم الغربى ، فى غضون جيل واحد :

فهل هو مقدّر سلفاً على الحضارة المهارة ، أن تسير فى الطريق الخاطئ الذى يقودها حتماً صوب النهاية المرّة ؟

أو هل فى استطاعتها أن تعود أدراجها ؟

ولعل أقوى دافع عملى للاهتمام الذى ما فتئ معاصرو الكاتب من أهل الغرب يبدونه - دون شك - لدراسة شاملة مجردة لتاريخ الإنسان وهو فى طوره الحضارى ؛ لعل أقوى دافع لذلك ، تلهفهم على تحديد موقفهم التاريخى فى لحظة من تاريخ حضارتهم ، أحسّوا هم أنفسهم بأنها نقطة تحوّل . وفى غمار هذه الأزمة ؛ أدركت الشعوب الغربية - ولربما الشعب الأمريكى بصفة خاصة - عبء المسؤولية . وإنها إذ تنكفئ إلى تجارب الماضى بحثاً وراء ضوء ينير السبيل أمامها ؛ فإنها تعود إلى مصدر الحكمة البشرى الوحيد ، الذى كان دوماً تحت تصرف البشرية :

إلا أن هذه الشعوب ؛ ما كانت لتستطيع العودة إلى التاريخ لينير



أمامها سبيل معرفة ما يجب عليها أن تفعل دون أن تضع نصب عينها  
- أولاً - الإجابة على هذا السؤال التمهيدى :

هل أتاح لها التاريخ عهداً بأنها تتألف - حقاً - من عاملين يتصرفون  
بمطلق حريتهم ؟

فقد يتضح - بعد - أن درس التاريخ ليس أن اختيار طريق قد يكون  
أفضل من اختيار طريق آخر ؛ بل أن إعتقاد هذه الشعوب بحريتها في  
الاختيار ، ما هو إلا وهم وسراب ، وأن الزمن الذى كان فيه اختيار المرء  
أمرأً فعلاً - إن كان هذا الزمن قد وُجد فعلاً - قد مضى وانقضى . وأن  
جيل هذه الشعوب قد انتقل من طور : A.A.L. Fisher . ل . ا . ا . ل . فيشر  
- حيث قد يتبع أى شيء الآخر - إلى عصر عمر الخيام الذى يقول :

إن القضاء لأمر لا يرد وما نصيب ذى الهم إلا السقم والألم  
إن تقضى عمرك مهموم الفؤاد فلن تزيد شيئاً إلى ما خطه القلم<sup>(١)</sup>

إن نحن حاولنا الإجابة عن السؤال فى ضوء الدلالة التى تتيحها - حتى  
الآن - تواريخ الحضارات ؛ فأحرى بنا أن نقرر بأنه من حالات الانهيار  
الأربع عشرة الواضحة ، لن نستطيع أن نشير إلى حالة واحدة أمكن فيها  
التخلص من « داء الحرب بين الأخوة » بأية طريقة أقل خشونة ، غير إبادة  
جميع الدول نفسها التى شهدت الحرب ، ما خلا واحدة منها .

لكننا إذ نتقبل هذا الكشف الرهيب ، لا يجب أن نسمح لأنفسنا بأن يتملكنا  
القنوط بسببه : ذلك لأنه معروف عن أسلوب المنطق الاستقرائى أنه  
أداة ناقصة لاستطيع إثبات صحة قضية سلبية . وكلما قل عدد الحالات

(١) من ترجمة السيد أحمد الصافى النجفى عن الأصل الفارسى . وهى ترجمة اعتمدها  
الحكومة الإيرانية ونشرتها فى مجموعة تضمنت رباعيات الخيام باللغات : الفارسية والعربية  
والإنجليزية والفرنسية والألمانية . ( المترجم )

موضع البحث ، زاد قصور هذا الأسلوب . ولم تُتم تجربة نحو أربع عشرة حضارة خلال مدة لا تزيد على ستة آلاف سنة ، أية قرينة قوية ضد احتمال أنه استجابة للتحدي الذي هزم هذه الحضارات الرائدة ؛ قد يوفق يوماً ما ممثل آخر لهذا الشكل الجديد - نسبياً - للمجتمع ، إلى فتح طريق ما - ما يزال مجهولاً - أمام تقدم روجي لم يسبق لإليه . ويتم ذلك بفضل كشف تدبير أقل كلفة من فرض دولة عالمية - بالقوة العارمة - كعلاج للداء الاجتماعي المتمثل في الحرب بين الأخوة .

فإن نحن عدنا بالنظر - وهذا الاحتمال مائل في أذهاننا - مرة أخرى ؛ إلى تواريخ تلك الحضارات التي وطأت « طريق الآلام »<sup>(١)</sup> بطوله كله ، ابتداء من الانهيار إلى الانحلال النهائي ، للاحتظنا أن بعضاً منها على الأقل ، قد استشفت حلاً بديلاً فيه خلاص البشرية ؛ حتى ولو لم توفق أية واحدة منها في تحقيق هذا الحل .

في العالم الهليني - مثلاً - خطرت فكرة التجانس في الحكم أو الوفاق السياسي ( الذي قد يحقق ما لا تستطيع القوة إتيانه على الإطلاق ) خطرت على بال بضعة نادرة من الهلنيين تحت الضغط الروحي الناجم عن عصر اضطرابات بدأ بإندلاع الحرب الأثينية البلوبونيزية خلال الأعوام من ٤٣١ إلى ٤٠٤ قبل الميلاد . ونفس النظرة المثالية قد تجسّدت في العالم الغربي - خلال حقبة ما بعد الحديثة - في عصبة الأمم بعد حرب ١٩١٤/١٩١٨ ، ثم في منظمة الأمم المتحدة بعد حرب ١٩٣٩/١٩٤٥ .

وفي العالم الصيني - خلال أول تعبئة للمجتمع الصيني بعد انهياره - نجد أن حماسة كونفوشيوس لإحياء سنن السلوك والطقوس التقليدية ، وإيمان

(١) طريق الآلام (via dolorosa) - في الأصل - الطريق التي سار فيها السيد المسيح عليه السلام حاملاً صليبه من ساعة الحكم عليه في قصر الحاكم الروماني إلى « الجلجثة Golgotha » حيث تم صلبه - وفقاً للعقيدة المسيحية . ( المترجم )

لاوتسى Lao-Tse المتجرد ، بضرورة ترك المجال حرا أمام الفعل التلقائي لقوى العقل الباطن ؛ إن هذه الحفاصة وهذا الإيمان قد أوحى بهما ، حين الوصول إلى بناييع من الشعور قد تطلق قوة من التآلف الروحي تنقذ البشرية . ولقد بُدلت في الصين أكثر من محاولة لتضمين هذه الآراء المثالية في نظم طُبِّقت :

وصفوة القول ؛ تمثل هدف البشرية - على الصعيد السياسي - في الاهتداء إلى طريق وسط بين تقيضين عقيمين :

- الصراع الكنيب بين دول إقليمية :

- والسلام الكنيب الذي يفرضه توجيه الضربة القاضية ؛

إن جزاء النجاح في إجتياز المر المنيع الذي كان فكاه المتصادمان يحطمان كل سفينة حاولت العبور من بينهما ، قد يكون هو تجربة جماعة أرجونوت Argonauts<sup>(١)</sup> الأسطورية التي أدت بهم إلى اكتشاف بحر واسع لم يطرقه أى بشر من قبل . على أنه كان من الواضح أنه ما كان ليتأنى لأية وثيقة طلسمية متضمنة دستورا اتحاديا ، أن تحقق هذه النتيجة :

فما كان في وسع أعظم التنظيمات السياسية مهارة - إذ يطبق على الكيان الاجتماعى - أن يقوم بأية حال من الأحوال ، مقام الخلاص الروحي للنفوس . وما كانت الأسباب القريبة للانهار - في حروب الدول أو في الصراع بين الطبقات - بأكثر من أعراض للسقم الروحاني . ومنذ أمد بعيد ؛ أثبتت حصيلة ثرية من التجارب ، عقم النظم في إنقاذ النفوس المتمردة من زج نفسها - وبعضها بعضا - في غمار الأسى .

(١) أرجونوت Argonaut : أبطال أسطوريون كان زعيمهم جاسون Jason . وقد اندفعوا في سفينة تدعى أرجو Argo للبحث عن الديهن الذهبى - وجاسون بطل يوناني أسطورى طرده أخوه بيلاس Pellas من مملكته وأحب التخلص منه فأرسله إلى مكان قصه للبحث عن كنز ذهبى . ( المترجم )

وإذا كانت مصائر الإنسان الذى يسلك طريق الحضارة - وهو فى خضم تسلقه الشاق حافة صخرة منتصبه نحو قمة عالية ، عسيرة المنال لا يدركها البصر؛ إذا كان من الواضح أن مصائره تتوقف على قدرته على أن يسترد سيطرته على هذه الهوة ، فلا يقل عن ذلك وضوحاً ، أن هذه المسألة تتوقف على مسلك الإنسان فى علاقاته مع سواه من البشر لامع نفسه فحسب ، بل أيضاً وفوق كل شيء ، مع مسلك الإنسان فى علاقاته مع الله مخلصه<sup>(١)</sup> .

---

(١) يعود المؤلف هنا إلى تشبيه المجتمعات البدائية بأناس راكدين حاملين على سلسلة مضمورة تقع على جانب جبل - وتحمهم هوة وفوقهم أخرى - وتشبيه الحضارات برفقاء لمؤلاى المهاجرين استيقظوا ثم نهضوا واقفين وشرعوا فى تسلق الجبل فوقهم . وتختلف حظوظ المتسلقين فى النجاح ( انظر صفحتى ٨٤ و ٨٥ من الجزء الأول من هذه الترجمة ) . ( المترجم )

## الفصل السابع والثلاثون

### تمرد الطبيعة البشرية على قوانين الطبيعة

من شأن مثل هذه الشواهد التي جمعناها عن قدرة الإنسان على السيطرة على شئونه الخاصة - سواء بمداورة قوانين الطبيعة أو بتسخيرها لخدمته - من شأن هذه الشواهد أن تثير السؤال : هل توجد ثمة ظروف لا تخضع فيها شئون البشر - مطلقاً - لقوانين الطبيعة .

وعسانا نبدأ استقصاءنا هذا الاحتمال ببحث معدل التغيير الاجتماعي : فإذا ثبت أن هذا المعدل متغير ، لكان هذا دليلاً - إلى المدى الذي يذهب إليه - على أن شئون البشر لا تخضع لقوانين الطبيعة ؛ في البعد الزماني على الأقل .

وإن ثبت - فعلاً - أن المعدل الزمني في التاريخ ثابت في جميع الظروف - بمعنى أنه إذا أمكن بيان أن كل عقد<sup>(١)</sup> أو قرن يولد قدرًا ثابتًا محددًا ومطردًا من التغيير السيكولوجي والاجتماعي - ينبنى على ذلك أنه إذا علمنا معدل التغيير في السلسلة السيكولوجية والاجتماعية ( أو المعدل الزمني في السلسلة الزمنية ) لتيسر لنا حساب مقدار المعدل المقابل المجهول في السلسلة الأخرى .

ولقد اصطنع هذا الفرض ؛ أحد الباحثين ، المتنازين في التاريخ المصري ، أعرض عن إتخاذ التاريخ الزمني الذي يحدده علم الفلك . وكانت حجته في هذا الفرض ؛ أن الموافقة على صحة هذا التاريخ معناها التسليم بصحة قضية غير مستساغة في نظره ، مدارها أن معدل التغيير الاجتماعي في العالم المصري ، كان لا بد أن يكون أسرع بكثير خلال فترة طولها مائتا سنة

(١) العقد : عشر سنوات .

عما كان عليه هذا المعدل خلال المائتي عام السابقة لها مباشرة . ومع ذلك ففي الإمكان إيراد حشد من الأمثلة الشائعة للدلالة على أن القضية التي أجفل عندها هذا الهاحث الكبير في المصريات ، هي في الواقع قضية تاريخية مسلم بها .

فمن قبيل المثال :

نعرفت أن البارثينون Parathenon<sup>(١)</sup> في أثينا قد شُيد خلال القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن معبد هادريان شُيد خلال القرن الثاني بعد الميلاد ، وأن كنيسة القديسة صوفيا بنيت بالقسطنطينية خلال القرن السادس بعد الميلاد ؛ فصدافاً للمبدأ الذي ارتكز عليه عالمنا الأثرى ؛ كان لا بد وأن يكون هناك فاصل زمني أقصر بكثير بين تاريخ تشييد كل من البنائين الأول والثاني - وقد شُيد كل منهما بنفس الطراز المعماري تقريباً - وبين تشييد البنائين الثاني والثالث ، اللذين يختلف كل منهما عن الآخر اختلافاً بينا من حيث الطراز المعماري .

ولكن هذه التواريخ المؤكدة الثابتة القاطعة ؛ تظهر لنا - هنا - بأن أقصر الفاصلين في هذه الحالة ، كان بين البنائين اللذين يتباين طرازهما المعماري .

كذلك ؛ قد نضل الطريق ، إذا بدا لنا أن نضع ثقتنا في نفس المبدأ النظري المسلم به سلفاً ؛ في محاولة لتقدير الفواصل الزمنية « النسبية » الواقعة بين عتاد الجندي الروماني إبان الأيام الأخيرة للإمبراطورية الرومانية في الغرب ، وبين عتاد جندي ساكسوني في جيش أوتو الأول Otto I إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ؛ وبين عتاد فارس نورماندي مرسوم على طنفسية

(١) البارثينون : معبد قديم في أثينا شُيد على الأكروبول . ( المترجم )

« بايو Bayeux »<sup>(١)</sup> . ولما كانت الدروع المستديرة وخوذات المصارع المربعة الحافة ذات القنّة التي تجهز بها جنود « أوتو Otto » ؛ هي مجرد تعديلات طفيفة على أساس عتاد جنود ماجوريان Majorian الإمبراطور الروماني المتأخر ، في حين أن جنود وليم الفاتح زُوّدوا بخوذات مخروطية سرماتية<sup>(٢)</sup> وصدّرات محرشفة<sup>(٣)</sup> على هيئة خطافات : فقد يقودنا هنا — كذلك — فرض ثبات المعدّل الزمني للتغير ، إلى الهروب من مواجهة الوقائع ، بالتخمين بأن الفواصل الزمنية بين أوتو الأول ( حكم من ٩٣٦ إلى ٩٧٣ ميلادية ) وبين وليم الفاتح ( حكم في نوزماندى من ١٠٣٥ إلى ١٠٨٧ ميلادية ) لا بد وإن كانت أكثر طولاً من الفاصل الزمني بين ماجوريان Majorian ( حكم من ٤٥٧ إلى ٤٦١ ميلادية ) وبين أوتو الأول .

مثال آخر :

إن أى فرد يُلْقَى نظرة إجمالية على اللبس العادى الذى كان يرتديه الرجل المدنى الغربى فى عام ١٧٠٠ ميلادية وفى سنة ١٩٥٠ ميلادية ؛ سيرى — بلمحة — أن السّترّة والصّدرة والسّروال والمِظَلّة عام ١٩٥٠ ، ما هى إلا مجرد تعديلات طفيفة على السّترّة والصّدرة والسراويل والسيّف الشائعة جميعاً فى سنة ١٧٠٠ ، وإن كلا اللباسين يختلفان تمام الاختلاف عن الصّدرة

---

(١) طَنْفِيسَة بايو : لغة من الكتان — أطلق عليها اسم طنفسَة تجاوزاً وإن أصبح القنب علماً تاريخياً عليها — عرضها ٢٠ بوصة وطولها ٢٣١ قدم . وهى ما تزال محفوظة فى دار مطرانية بايو Bayeux فى مقاطعة نورماندى بفرنسا . ومرسوم عليها بخيوط الصوف المونّ ، الأحداث المتصلة بغزو وليم الفاتح إنجلترا وفتحها . ويقال إن زوجته « ماتيلدا » هى التى وضعت تصميمها . وقد احتفظ بها « أودو » شقيق وليم الفاتح ومطران بايو .

( المترجم )

(٢) سارماتيا Sarmatia . كانت قديماً بولندا الحالية وجانباً من روسيا . على أن المصطلح عليه فى الوقت الحاضر : إطلاق اسم سارماتيا على بولندا قديماً . ( المترجم )

(٣) المهرشف : نسبة إلى المهراشف — كهراشف السك مثلاً . ( المترجم )

وجورب الساق الشائعين عام ١٦٠٠ ميلادية . وفي هذه الحالة — وهى على نقيض المثالين المتقدمين — كان التعبير الذى حدث ، أبعد مدى بكثير فى الفترة الأولى والأقصر ، عنه فى الفترة الثانية الأطول .

وما هذه الأفاصيص المتسمة بالحيطه ؛ إلا تحذير ضد خطر الاعتماد على النظرية القائلة بثبات المعدل الزمنى للتغير ، باعتباره أساساً لمحاولة تقدير الوقت الذى لا بد أن تكون الطبقات المتعاقبة من أنقاض المساكن البشرية ، قد استغرقت لتتراكم فى موقع ما ؛ موقع مطلوب لإعادة كتابة تاريخه ، بناء على الأدلة المادية وحدها ، التى تكشف خبيثتها بجرفة عالم الآثار ؛ لعدم توافر البيانات ثابتة التاريخ المدونة فى السجلات المكتوبة .

وعسانا . أن نتابع هجومنا الاستهلالى على هذه النظرية القائلة بثبات معدل التغير الثقافى . وذلك بذكر بضعة أمثلة عن : تعجيل التغير ، أولاً ، ثم عن إبطائه . وأخيراً ، عن تعاقب التعجيل والإبطاء .

فظاهرة الثورة ؛ هى المثال المألوف عن عوامل « التعجيل » . فإنها — مصداق لما رأيناه فى سياق آخر من هذه الدراسة — حركة اجتماعية تولدت عن تلاقى جماعتين يتصادف أن تكون إحداهما متقدمة عن الأخرى فى مجال أو فى آخر من مجالات النشاط البشرى المختلفة . فالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ — مثلاً — كانت فى طورها الأول ؛ مجهوداً « ثقافياً » للحاق بالتقدم الدستورى الذى حققته بريطانيا فى بطن ، إبان القرنين السابقين . وبقينا ؛ إن الحركة اللبرالية الغربية فى أوربا ، ألهمت هذا العدد الكبير من الثورات — التى أصيب معظمها بالعقم فى القرن التاسع عشر ، هذه الحركة اللبرالية ، التى أطلق عليها طائفة من المؤرخين اسم « حب تقليد الإنجليز » . ( انجلومانيا ) .

وثمة نموذج مألوف « للتعجيل » ، نجده فى سلوك رجال الحدود القاطنين على هامش حضارة ما ، أو فى سلوك البرابرة الذين يقطنون خارج الحضارة بقليل ؛ إذا ما فكروا — جميعاً — بغتة فى اللحاق بغير أنهم الأعظم منهما تقدماً ،



ويذكر كاتب هذه الدراسة - بجلاء - التأثير الذي أحدثته في نفسه زيارة « المتحف النوردى » في إستكهلم عام ١٩١٠ . فإنه بعد أن اجتاز سلسلة من الحجرات تعرض نماذج من الثقافات الإسكندنافية في غضون العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث وعصر البرونز وعصر الحديد السابق للمسيحية ؛ أخذه العجب إذ ألغى نفسه في حجرة تعرض منتجات حرفت فنية إسكندنافية بأسلوب النهضة الإيطالية . وعجب إذ فاتته مشاهدة منتجات العصر الوسيط . فعاد أدراجه حيث وجد - بكل تأكيد - حجرة خاصة بعرض منتجات العصر الوسيط ، لكن كانت محتوياتها لا يؤبه لها . فعندئذ أخذ يدرك أن بلاد إسكندناوا قد انتقلت - في ومضة - من العصر الحديدي المتأخر الذى بدأت خلاله في إبداع حضارة مميزة خاصة بها ، إلى العصر الحديث المبكر الذى أصبحت فيه شريكا - لا يفرق عن غيره - في ثقافة إيطالية مسيحية غربية ذات معدل واخذ . فكان جزء من ثمن هذا الفعل الفذ المتمثل في التعجيل ؛ هو ذلك الإفقار الثقافى الذى يحمله معاملة ذلك المتحف النوردى .

وكما كان الحال فى بلاد أسكندناوا إبان القرن الخامس عشر الميلادى ، كان الحال كذلك بالنسبة لجميع العالم غير الغربى - وإن كان منهمكا فى إصطناع الحضارة الغربية - أثناء الجليل الذى عاش فيه الكاتب . فإن من الأمور المألوفة : أن تشاهد الشعوب الإفريقية - مثلاً - وهى تسعى إلى أن تُنتج خلال جيل واحد أو اثنين ، تقدماً سياسياً واجتماعياً وثقافياً استغرق من الشعوب الأوروبية الغربية - التى كان الإفريقيون يحاكونها ويقاومونها فى نفس الوقت - ألف سنة أو أكثر . وكانت هذه الشعوب تنزع إلى الإفراط فى تقدير مقدار التعجيل الحقيقى الذى أنجزته أفريقيا ؛ بينما كان المشاهد من أهل الغرب ينزع إلى بخس الجهود التى بذلتها أفريقيا فى هذا المقام .

وإذا كانت الثورات مظهراً درامياً للتعجيل ؛ فإن ظاهرة الإبطاء يمكن مشاهدتها على شكل إعراض بليد عن مسابرة حركة الجسم الرئيسى ، ويمكن العثور على مثال للإبطاء فى عناد الولايات الجنوبية من اتحاد الولايات الأمريكية فى استبقاء نظام الرق طوال جيل كامل ؛ بعد أن تم إلغاؤه فى جزائر الهند الغربية المجاورة ، وهى جزء من الإمبراطورية البريطانية . وثمة أمثلة أخرى تقدمها جماعات من المستعمرين الذين نزحوا إلى بلاد « جديدة » واحتفظوا فيها بمقاييس كانت شائعة فى أوطانهم الأصلية وقتما خلفوها وراءهم ، وظلوا يحتفظون بتلك المقاييس حتى بعد أن نبذها أبناء عمومهم فى الوطن القديم بوقت طويل ، وساروا إلى الأمام قُدماً . وهذه حالة مألوفة ؛ ويكفى ذكر : كوبك ومرتفعات الأبالاش والترنسفال خلال القرن العشرين الميلادى إذا قورنت بكل من فرنسا والصبر Ulster وهولندا - فى نفس القرون - على التوالى .

وتعرض الصفحات السابقة من هذه الدراسة<sup>(١)</sup> أمثلة عديدة عن التعجيل والإبطاء على السواء ، وفى وسع القارئ نفسه استعادتها . وواضح - مثلاً - أن ما دعونا به « المسابرة »<sup>(٢)</sup> هو نزعة مماثلة لما أطلقنا عليه « التعجيل » ؛ وإن ما دعونا به « التزمت »<sup>(٣)</sup> ، نزعة بجانسة لما أطلقنا عليه « التأخير » . وواضح كذلك أنه طالما كان التغيير يعنى الاتجاه إلى الأسوأ أو إلى الأفضل ؛ فإن « التعجيل » ليس بالضرورة حسناً ، كما أن « الإبطاء » ليس بالضرورة سيئاً .

وفى وسعنا أن نرى فى التاريخ الغربى الحديث لفنون الملاحظة وبناء

(١) صفحات ٤٢٣ - ٤٣٤ من الجزء الثالث من هذه الترجمة .

(٢) فى الأصل - الهيرودية Herodianism : شعبة يهودية يضرب بها المثل فى الرياء واصطناع الأساليب الانتهازية والطرق المسالمة ، لبلوغ الأهداف . ( المترجم )  
 (٣) فى الأصل - الزيروتية Zealotism : طائفة يهودية اعتنقت مبدأ العنف لتنفيذ أغراضها ، والتزمت فى معتقداتها الفكرية . ( المترجم )

السفن ، سلسلة من التغيرات المتعاقبة في معدلات السرعة . ويجرى هذا التسلسل ، لا بالنسبة لجيلين اثنين ؛ لكنه يشمل ثلاثة أجيال ، ولربما يصل إلى أربعة أجيال . وتبدأ القصة بتعجيل فجائى يقلب القنون رأساً على عقب خلال فترة الخمسين سنة من ١٤٤٠ إلى ١٤٩٠ ميلادية . وتلا هذا التفجّر ؛ « إبطاء » استمر طوال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . ولكن تبعه بدوره - بعد هذا التوقف الطويل - تعجيل فجائى آخر استمر طوال الخمسين سنة من ١٨٤٠ إلى ١٨٩٠ ميلادية . وفي عام ١٩٥٢ ؛ كان الطور التالى يتسم بالغموض ، إذ كان ما يزال فى طريق التقدم . على أنه يبدو لعين الرجل غير الفنى ؛ كما لو أن أوجه التقدم التكنولوجى التى أحرزت جانباً كبيراً من الرقى ؛ تبدو - على بروزها - أقصر من أن تبلغ ما بلغته المنجزات الثورية التى تحققت فى نصف القرن الفيكتورى :

« خلال القرن الخامس عشر . . . حدث تغيير سريع وخطير فى بناء السفن : . . . فى مدى خمسين سنة ، تطورت المركب الصالحة للملاحة فى البحار ، من مركب ذات سارية واحدة فأصبحت ذات ثلاث ساريات تحمل خمسة أو ستة أشرعة » (١) .

ولم تهيب هذه الثورة التكنولوجية لمبدعيها منفذاً إلى جميع أركان العالم فحسب ، بل لأنها هيأت لهم كذلك تفوقاً على جميع الملاحين غير الغربيين الذين اصطدموا بهم وتمثلت الميزة الخاصة لهذه السفينة الجديدة ، فى قدرتها على البقاء فى البحر إلى أجل لا يكاد ينتهى تقريباً ، دون أن تحتاج إلى أن ترسو فى ميناء ؛ وقد تفوقت فى هذا على ما تلاها وما سبقها من طرز السفائن ؛ فلقد كانت السفينة - كما سميت خلال فترة مجدها بالسفينة

(١) صفحة ٤٦ Basseit-Jowke, J.W., and Holland, O. : Ships and Men (London 1946 Harrap)

المثالية - نتاج تآلف سعيد بين الأساليب التقليدية المختلفة المتصلة ببناء السفن وتجهيزها ؛ وكان لكل منها ميزات خاصة ، لكن كان لكل منها كذلك أوجه النقص الناتجة عن هذه الميزات ؛ فالسفينة الغربية التي ظهرت إلى الوجود خلال الفترة الواقعة بين ١٤٤٠ ميلادية و ١٤٩٠ ميلادية ، قد جمعت بين مزايا السفينة الطويلة التي تسير بالمجاديف ، والتي كانت شائعة زمنًا طويلًا في البحر المتوسط وعرفت باسم القادس<sup>(١)</sup> ؛ وبين مزايا ثلاثة أنواع مختلفة على الأقل من السفن وهي :

١ - السفينة الماخرة عباب البحر المتوسط والمعاصرة للسفينة سالفة الذكر ، وهي سفينة أسطوانية ذات أشعة مربعة ومعروفة باسم « الغليون »<sup>(٢)</sup> .

٢ - المركب الشراعى الكبير ذو الأشعة المثلثة الشكل الذى كان يبحر عباب المحيط الهندى وقد رسم سلفه فى السجلات المرئية المتعلقة ببعثة مصرية إلى أراضي إفريقية الشرقية المعروفة ببلاد « بونت Punt » إبان حكم الإمبراطورة حتشبسوت (١٤٨٦ - ١٤٦٨ ق م) .

٣ - السفينة الضخمة التي كانت تجوب المحيط الأطلسى والتي لفتت نظر يوليوس قيصر عام ٥٦ قبل الميلاد وقما احتل شبه الجزيرة التي أطلق عليها فيما بعد اسم بريتانى Brittany<sup>(٣)</sup> .

ولقد استكمل التصميم الحديد - الذى جمع خير مزايا هذه النماذج الأربعة - قبل أن ينتهى القرن الخامس عشر . ومن ثم ؛ لم تختلف فى أسسها خير السفن التي نخرت عباب البحار - وقتذاك - عن السفن التي كانت شائعة فى عصر نلسون ؛

(١) القادس : galley .

(٢) للغليون : Carrach .

(٣) بريتانى مقاطعة فى شمال فرنسا .

وبعد انقضاء ثلاثة قرون ونصف من « الإبطاء » ؛ ألقى فن بناء السفن الغربي نفسه في بداية مرحلة أخرى من مراحل « التعجيل » . وفي هذه المرة ؛ سار العمل الإبداعي السريع إلى الأمام قُدُماً في إتجاهين متوازيين : فن ناحية - حل المحرك البخارى محل الشراع .

ومن ناحية أخرى اقترن ذلك بصحوة فن بناء السفن الشراعية من رقاده الطويل . فطور طراز البناء القديم إلى درجة من الكمال ، لم يكن يحلم بها أحد حتى ذلك الوقت . وكان من مقتضاها إحتفاظ السفينة الشراعية - في سبيل طائفة من الأغراض - بقدرتها على الصمود أمام منافسة السفينة البخارية ، خلال فترة التطور البناء في الخمسين عاماً ( ١٨٤٠ - ١٨٩٠ ميلادية ) .

فإذا ما تطلعنا الآن إلى تفسير لظواهر « التعجيل » و « الإبطاء » التي هي خروج واضح على رتابة الحركة التي يجب أن نتوقعها في المجتمعات التي تخضع خضوعاً تاماً لقوانين الطبيعة إذا أردنا تفسير هذه الظواهر ؛ فسنعثر على تفسيرنا في قاعدة « التحدى والاستجابة » التي بحثناها ، وقد منا الشواهد عليها بتفصيل في باب سابق من هذه الدراسة .

فلنتناول الحالة الأخيرة التي أوردناها ؛ ألا وهي التعجيلان الكبيران اللذان تفصل بينهما فترة إبطاء طويلة الأمد ، في تاريخ بناء السفن والملاحة في الغرب :

كان التحدى الذى استثار بناء السفينة الغربية الحديثة في غضون نصف القرن من سنة ١٤٤٠ إلى سنة ١٤٩٠ ميلادية ، ميامى الطابع . إذ لم يقتصر فشل المسيحية الغربية عند نهاية العصور الوسطى في شق طريقها صوب المناطق الجنوبية الشرقية نحو دار الإسلام ( جهود تمثلت في الحروب الصليبية ) بل لقد ألفت نفسها مهددة - هي نفسها - تهديداً خطيراً بفعل الهجوم المضاد الذى شنه الأتراك في أعلى الدانوب وعلى طول ساحل البحر

المتوسط . ومما زاد موقف الغرب خطورة في هذا الوقت ، أن المجتمع المسيحي الغربي كان يشغل في ذلك الوقت رأس أحد أشباه جزر القارة الأوراسية . وإن مجتمعا هذا موضعه القلق لا بد - إن عاجلا أم آجلا - أن يُلقي في البحر بفعل ضغط قوى أشد بأسا ، مندفعة إلى الخارج من قلب العالم القديم . اللهم ؛ إلا إذا عمل هذا المجتمع المحاصر على تفادى الكارثة ؛ فانطلق من طريقه المسدود إلى فجاج الأرض الواسعة . وإلا حق له أن يتوقع أن يقاسى على أيدي الإسلام ، المصير الذى أوقعه هو نفسه ( أى المسيحية الغربية ) قبل ذلك بعدة قرون على مجتمع مسيحي عقيم ، كان مركزه في أقصى الحدود الكلتية من العالم المسيحي الغربي .

ففي أثناء الحروب الصليبية ؛ اختار المسيحيون اللاتين ، البحر المتوسط معبرا لعملياتهم الحربية . فعبروه في مراكب من طراز البحر المتوسط للتقليدى ، مدفوعين بنشوفهم إلى الاستيلاء على مهد عقيدتهم المسيحية ؛ ولكنهم فشلوا . وتلا ذلك تقدم التهديد الإسلامى الذى وضع خصومه من أهل الغرب بين نارين : الشيطان والبحر العميق . فكان أن اختاروا البحر العميق ، فابتكروا السفينة الجديدة . وانبثت على ابتكارها ، نتائج جاوزت أعنف أحلام أكثر المتفائلين من مريدى الأمير البرتغالى « هنرى الملاح » .

وإلى النجاح الساحق الذى أحرزته في القرن الخامس عشر استجابة فن تشييد السفن لتحدى الإسلام ؛ تعزى فترة « الإبطاء » الطويلة التى أعقبت ذلك في صناعة بناء السفن الغربية .

وكانت فترة « التعجيل » الثانية في هذا المجال ، راجعة إلى سبب مغاير تماما . ذلك هو الثورة الاقتصادية بالحديد التى بدأت تؤثر في أجزاء من أوروبا الغربية عند نهاية القرن الثامن عشر . وتمثلت الحاصيتان البارزتان لهذه الثورة في :

- ١- زيادة مفاجئة في عدد السكان بمعدل يرتفع ارتفاعا مطردا .
- ٢- رجحان كفة التجارة والصناعة الآلية على الزراعة ؛

ولا نحتاج هنا إلى سرد قصة التوسع الصناعي الغربي في غضون القرن التاسع عشر ؛ وهي قصة معقدة ، لكنها معروفة . وما صاحب هذا التوسع من زيادة عدد السكان ؛ زيادة لم تؤد فقط إلى تضاعف - بدرجات متفاوتة - عدد سكان مختلف البلاد في الجزء الغربي من العالم الغربي الأوربي القديم ، لكنها شرعت كذلك في ملء البقاع الخلاء الواسعة في الأراضي الجديدة التي استحوذ عليها الرواد من أهل الغرب فيما وراء البحار : وواضح أن النقل عبر المحيطات كان يغدو بمثابة « عنق زجاجة » خانقة تعوق هذه التطورات ، لو لم يستجيب صناع السفن إلى هذا التحدي بقلوب صادقة وعزم قوى ؛ على غرار استجابتهم للتحدي منذ أربعمائة سنة مضت .

• • •

وبعد ؛ فلقد اخترنا مثلنا من المجال المادى من شئون البشر . ووقع اختيارنا على اثنين من الاستجابات التكنولوجية المتعاقبة في صناعة معينة لتحديين اثنين :

الأول - سياسى وحربى .

والثانى - اقتصادى واجتماعى .

لكن مبدأ التحدى والاستجابة ، هو نفسه لا يتغير خلال صروف الدهر جميعها ؛ سواء أكان تحدى البيطون الخاوية التي تشتهى الخبز ، أو تحدى النفوس الجائعة التي تتوق إلى الله العلى القدير .  
ومهما يكن من أمر التحدى ؛ فهو في جميع الأحوال ، نعمة حربية الاختيار التي يمنحها الله عباده .

## الفصل الثامن والثلاثون

### ناموس الله

سنحاول في هذا الفصل من هذه الدراسة ، تحقيق قدر من الوقوف على حقيقة العلاقة بين القانون والحرية في التاريخ . فإذا عدنا الآن إلى السؤال الذي يلح علينا ، سنجد أننا قد توصلنا بالفعل إلى إجابة .

فما هي علاقة الحرية بالقانون ؟

وإن تماثلت لدينا ، يفصح أن الإنسان لا يعيش في ظل قانون واحد فقط . إنه يحيا في ظل قانونين اثنين ؛ أحدهما هو ناموس الله الذي هو الحرية ذاتها ، تحت اسم آخر ، أكثر بهاء (١) .

إن « ناموس الحرية الكامل » - كما يدعو القديس يعقوب في رسالته (٢) - هو كذلك قانون المحبة ، لأنه ما من أحد يستطيع منح الإنسان حريته ، غير إله هو بنفسه « المحبة » . ولا يستطيع الإنسان إستخدام هذه الهبة الإلهية ليختار بمطلق حريته الحياة والخير ، عوضاً عن الموت والشر ؛ إلا إذا أحب الإنسان - من جانبه - الله بالقدر الذي يكفي ليدفعه هذا الحب الاستجابي ، إلى التسليم لله ؛ وذلك بأن يجعل إرادة الله ، إرادته هو نفسه .

إن إرادتنا ملك لنا ولكننا لا نعرف كيف

أن إرادتنا ملك لنا ، لنجعلها ملكاً لك (٣) .

(١) يرى الأستاذ المؤلف أن لفظ liberty أكثر بهاء من لفظ freedom .  
(المترجم)

(٢) رسالة القديس يعقوب إصحاح ١ آية ٢٥ وإصحاح ٢ آية ١٢ . (المترجم)

Tennyson : In Memoriam in the Invocation

(٣)



« إن التاريخ هو: . . . قبل كل شيء ، دعوة ، نداء ، قانون ، يجب على الكائنات البشرية الحرة الاستماع إليه والاستجابة له . هو إجمالاً ، تفاعل بين الله والإنسان<sup>(١)</sup> ، لقد ثبت أن القانون والحرية في التاريخ هما شيء واحد . بمعنى أنه من الثابت أن حرية الإنسان هي ناموس الله الذي هو المحبة ذاتها . لكن هذا الكشف لا يحل مشكلتنا : وذلك لأننا عندما أجبنا عن سؤالنا الأصلي ؛ أثرنا موضوعاً جديداً . فبمعرفة أن الحرية تتطابق مع إحدى مجموعتي أحكام القانون ، أثرنا موضوع علاقة كل من المجموعتين بالأخرى . وقد يبدو - للوهلة الأولى - أن الإجابة هي أن قانون المحبة وقانون الطبيعة البشرية اللاشعورية - وظاهر أن لكل منهما ولاية على شئون البشر - ليسا متباينين فحسب ؛ لكنهما متضاربان ، بل إنهما متنافران : ذلك لأن قانون النفس اللاشعورية يهيمن على نفوس دعاها الله للعمل معه ، في حرية ؛ وكلما تعمقتنا في الموازنة بين هذين « القانونين » ظهر لنا اتساع الهوة المعنوية بينهما . فإن قدرنا « قانون الطبيعة » وفقاً لمعيار « ناموس المحبة » ، ونظرنا بعين المحبة جميع ما فعلته الطبيعة ؛ لشاهدنا شيئاً رذيثاً للغاية .

انظر . . . إن السماء العليا والأرض ترتجفان من أساسهما :

جميع الأفكار التي تشق القلب موجودة هنا . . . وجميعها باطل<sup>(٢)</sup> .

إذ أن إحدى النتائج التي استخلصها المشاهدون من البشر ، لما في الكون من شروء معنوية ، هي أن دنيا الأهوال هذه ، لا يمكن أن تكون من صنع الله .

فالأيبيوريون<sup>(٣)</sup> ذهبوا إلى أنها النتيجة التلقائية لالتقاء مفاجئ بين ذرات لا تفتنى .

Lampert, E : The Apocalypse of Historns (London 1948, Faber) (١)

Housman, A. E : Shropshire Lad xiviii (٢)

(٣) نسبة إلى الفيلسوف أبيقور . ( المترجم )

أما المسيحي ، فيجد نفسه مكرهاً على اختيار أحد رأيين يبلبل كلاهما  
فكرة بلبلة مفرجة .

فإما أن الله - وهو محبة - لا بد أنه خلق كوناً ظاهر الفساد :

وإما أن يكون خالق الكون لهاً آخر غير إله المحبة !!

ولقد اعتنق الملحد « مارسيون Marcion »<sup>(١)</sup> في بداية القرن الثاني الميلادي  
والشاعر بليك Blake<sup>(٢)</sup> في بداية القرن التاسع عشر الميلادي - اعتنق كلاهما -  
الرأى الأخير . إذ قام الحل الذى ذهباً إليه لهذا اللغز المعنوى ؛ على  
نسبة خلق الكون إلى إله « لاحاب ولا محبوب » . فعلى حين يجذب الإله  
المخلص النفوس بالمحبة ؛ فإن الإله الخالق ليس فى وسعه إلا أن يفرض قانونا  
ويوقع عقوبات وحشية على من يخرق هذا القانون شكلاً . وهذا الإله  
السوداوى المزاج الفارض نفسه سيداً - الذى رأى فيه مارسيون « يهوى  
Jehevah »<sup>(٣)</sup> الموسوى ودعاه بليك بـ « يوريزين Urizen » وأطلق عليه  
تهكما « أباً غير كائن - لا بد أن يكون شيئاً بما فيه الكفاية ؛ إذا كان كفواً على  
أداء واجباته بما يتفق ووجهة نظره المحدودة . لكن هذا الإله اشتهر بأنه يفسل  
فى أداء واجباته بكفاءة ، ولا بد أن يترد فشله : إما إلى عدم كفايته ، أو إلى  
سوء نيته !! . ولا شك أنه ليس ثمة علاقة مفهومة - أبا كانت - بين آثام  
العالم وآلامه !!

وعلى حين أن مارسيون قوى الحججة من ناحية توكيده ارتباط عملية خلق

(١) مارسيون : مؤسس شيعة المارسونية . ومن رأيه أن بشارة السيد المسيح تتألف  
من المحبة الطليقة للخير ، وأن النظام الموسوى - بما يضمه بين ثناياه من ثواب وعقاب -  
هو مجرد قانون وضعى لا صلة له بالله . ومن ثم ينكر « مارسيون » جميع ما ورد فى العهد  
القديم والعهد الجديد على السواء ، إلا بضعة رسائل قليلة وجانب من إنجيل لوقا . ( المترجم )  
(٢) بليك - ولهم بليك ( ١٧٥٧ - ١٨٢٧ ) : شاعر ونقاش إنجليزى . وكان  
يعتقد بأن الملائكة توحى بأشعاره وأعماله الفنية . ( المترجم )  
(٣) يهوى : أقدم أسماء الله فى اليهودية . ( المترجم )

الكون بالشر ، فإن حجته ضعيفة في إنكاره عدم وجود رابطة ما بين الخلق وبين الخير والمحبة . لأن الحقيقة هي أن محبة الله هي مصدر حرية الإنسان . وأن الحرية التي تمهد الطريق أمام عملية الخلق ، إنما تفتح بفعالها هذا ، الباب لولوج الخطيئة إلى العالم . ويمكن اعتبار كل تحد نداء من الرب ، أو إغراء صادرا من الشيطان على السواء . وإن محاولة مارسيون تبرير محبة الله - حتى ولو أدى ذلك إلى إنكار وحدته - أبعد عن الصواب من محاولة إيريناوس ؛<sup>(١)</sup> Arenaenus تبرير الرأى القائل بتطابق « الخالق » مع « الفادى »<sup>(٢)</sup> حتى ولو أدى به ذلك إلى القول بتطابق مظهرين لتجلّى الربوبية<sup>(٣)</sup> ؛ لا يتأتى - من الناحية المعنوية - التوفيق بينهما من وجهة النظر البشرية .

وفضلا عن ذلك ؛ فلقد حقق العلم الغربى الحديث - بصورة مذهلة - بيّنة التجربة - المسيحية عن صدق التناقض المنطقي والمعنوي . فإن المجهود الذى بُذل في سبيل محاولة التوفيق بين مظهرين لتجلّى الله ؛ لا يتأتى التوفيق بينهما - وهو ما أرق ألباب القديسين والباحثين - قد أعلنت أكثر من مدرسة من المدارس الحديثة في علم النفس في الغرب ، بأنه قد أرق بالفعل النفس اللاشعورية في غمار صراع سالف ، أدى - منذ البداية - إلى تكوين الشخصية الأدبية لكل من قديس وباحث المستقبل ، في مرحلة الطفولة المبكر ؛ شغلت فيه « أم » الطفل الوأيد ، المكان المستقبل للإله في عالم النفس :

(١) إيريناوس - القديس إيريناوس ١٢٠ - ٢٠٢ ميلادية : كان أسقف مدينة ليون في نهاية القرن الثانى الميلادى . ويرجع أصله إلى أزمير بآسيا الصغرى . وقد بذل جهوداً صادقة لتحويل فرنسا الوثنية إلى المسيحية . وقد توسط في تسوية الخلاف الناشب بين كنيسة روما وكنائس آسيا الصغرى بشأن تحديد مواعيد عيد الفصح . ( المترجم )

(٢) الفادى - في المسيحية - هو السيد المسيح عليه السلام . ( المترجم )

(٣) يقصد الأستاذ المؤلف بمظهرى تجلّى الربوبية ، الأب والابن في العقيدة

المسيحية . ( المترجم )

« عندما يبدأ الرضيع . . . مبكرا . . . خلال السنة الثانية من حياته بعد مولده . . . في تحديد فارق بين ذاته وبين الحقيقة الخارجية ؛ تقف الأم ممثلة للعالم الخارجى ، وواسطة لتقل مؤثراته إلى الطفل . بيد أنها تظهر أمام وعيه التام فى مظهرين متعارضين :

« فإنها موضع حب الطفل ، وهى مصدر راحته وأمنه وهدوئه .

لكنها - كذلك - تمثل السلطة . فإنها المصدر الأساسى للسلطة المفروضة عليه بطريقة خفية ، والى تعترض - بتعنت - طائفة من الدوافع التى عن طريقها ، تشق حياته الجديدة طريقها إلى العالم الخارجى . ويولد لدى الطفل ما تلاقيه دوافع الطفولة من كبت ، مشاعر الغضب والكرهية والرغبات الهدامة - أى ما يطلق عليه علماء النفس عامة (العدوان) - موجهة ضد السلطة التى تعترض طريقه . بيد أن هذه السلطة البغيضة ، هى كذلك الأم الحبيبة . ومن ثم يجابه الطفل صراعه الأول . فثمة مجموعتان من الدوافع لا يمكن التوفيق بينهما ، تتجهان صوب الهدف نفسه . وهذا الهدف هو مركز العالم المحيط بالطفل ،<sup>(١)</sup> .

وهكذا ؛ طبقا لإحدى نظريات علم النفس ، فإن الصراع المعنوي الذى يتخذ سبيله داخل الشعور الواعى عند ما يبلغ الإنسان مرتبة الرشد والنضج ، يُلحظ لاشعوريا فى الطفولة المبكرة . هذا ؛ وفى الصراع الذى يجرى فى إبان الطفولة - كما فى مرحلة البلوغ - يتقاضى الفوز الروحى ثمنا روحيا . إذ تقهر الحبة البدائية ، الكراهية عن طريق تحميلها عبء الخطيئة الأولى<sup>(٢)</sup> . وهذا يؤيد علم النفس ؛ الكشف الإيرينى<sup>(٣)</sup> المسيحى المناهض

(١) صفحة ١٠٧ Evolutionary Ethics : The Romanes Huxley, J. :  
Lectures, 1943 ; reprinted in Huxley, T. H. and y : Evolution and Ethics  
1843-1943 London Pilot Press.

(٢) صفحة ١١٠ من المرجع السابق .

(٣) نسبة إلى القديس إيريناوس (المترجم)

لفكرة مارسيون السالفة الذكر وهو أن الحب والكرهية والاستقامة والخطيئة ، يتصل أحدها بالآخر - اتصالا لا يُفصم - عن طريق سلسلة الخلق :

« من غير أم ؛ لا يتركز حب قوى على هدف شخصى . وبانتفاء مثل هذا الحب لا صراع بين تأثيرات لا يتأتى التوفيق بينها ، ولا خطيئة ؛ وبانعدام مثل هذه الخطيئة لا يوجد الإدراك المعنوى الفعال » (١) ،

---

(١) المرجع السابق .

# الباب الثاني عشر

طوال الحضارة الغربية

## الفصل التاسع والثلاثون

### الحاجة إلى هذا البحث

انتاب كاتب هذه الدراسة - وقتما تناول قلمه لتحرير هذا الجزء الحالي - نفور من هذا العبء الذى فرضه على نفسه غرضاً ، وهو إحساس يتجاوز النفور الطبيعى من المجازفة بالبحث فى موضوع يقوم على النظر والتأمل ،

فلا شبهة فى أن تنبؤات قيلت فى عام ١٩٥٠ ، قد تكذبها الأحداث ، قبل أن يجد مخطوط هذا الكتاب طريقه إلى المطبعة ودور النشر ؛ بزمن طويل . على أن خشية المؤلف من أن يعرض نفسه للسخرية - وهى التى كانت تحكم تصرفات عقله - هذه الخشية ، قينة بأن تصرفه عن التفكير فى كتابة أى جزء من هذه الدراسة . وإذ قد أخذ على نفسه كتابة القسم الثانى عشر من كتابه ، بعد أن أودع القدر فعلاً «إحدى عشرة رهينة»<sup>(١)</sup> فلعله يستمد الشجاعة مما تعكسه الاحتمالات التى تنتظر الحضارة الغربية . وهى احتمالات كانت على أية حال - عام ١٩٥٠ - أقل قتامة مما كانت عليه وقتما بدأ المؤلف يعدّ - فى الأشهر الأولى من عام ١٩٢٩ - مسودة المذكرات الأصلية لإعداد هذا الجزء ؛ الذى هو الآن بين يديه .

إذ أن الكساد الهائل الذى كان يوشك أن يبدأ - بكل ما كان يحمله من عواقب بما فيها نشوب الحرب العالمية الثانية ؛ قد قضى قضاء تاماً - قبل أن يحل عام ١٩٥٠ بوقت طويل - على الوهم الذى ساد العالم قبل عام ١٩٢٩ ، بأن الأمور لم تتغير كثيراً عما كانت عليه قبل سنة ١٩١٤ .

(١) يشير المؤلف إلى الأحد عشر قسماً السابقة .

وعلى هذا ؛ فإن نفور المؤلف من معالجة موضوع هذا الجزء من الكتاب ، جدير بأن يخفف منه كثيرا ، مرور هذين العقدين الباهرين من السنين : هذا إذا كان هذا النفور مجرد تحرج عن الخوض في غيابات التهكهن : على أن هذا النفور لا يتصل — عن قريب أو عن بعيد — بصعوبة تقدير « طوابع الحضارة الغربية » ، أو ما يُخبئه لها المستقبل بين طياته . ولكن يكمن الباعث الحقيقي ، في خشية المؤلف من أن يتخلى عن أحد المبادئ الأساسية التي تحكم منهاجه في دراسة التاريخ .

ولقد كان يزعم الكاتب ؛ خوفاً من أن يصبح عرضة للتخلى عن موقف اعتقد أن منه — وحده — يستطيع أن يرى — في شمول صادق — كل تاريخ نوع من المجتمع ، ليست الحضارة الغربية إلا أحد ممثليه . وفي رأيه ؛ أن قد عززت إيمانه بصواب هذا الموقف غير الغربي ، النتائج التي أسفرت عنها أحداث هذين العقدين من السنين اللذين أمضاها البشر وهم يحاولون قراءة خارطة التاريخ من زاوية غير غربية .

ومن الحوافز التي دفعت الكاتب دفعا إلى ولوج هذه الدراسة ، ثورته ضد ما اصطلاح عليه الناس وشاع في الغرب حديثاً ، وهو : إعتبار تاريخ المجتمع الغربي كأنه « التاريخ » بصفة عامة . وقد بدا للمؤلف أن هذا الاصطلاح نشأ عن وهم التركيز على « الذات » . وهو وهم وقع فيه أبناء الحضارة الغربية مثلما تردى فيه — من قبل — أبناء الحضارات المعروفة والجماعات البدائية الأخرى<sup>(١)</sup> . ولعل خير وسيلة للتخلص من فكرة التركيز

(١) عندما كان المستر سومرفيل صاحب هذا المختصر لدراسة التاريخ يقيم خلال

عام ١٩٣٥ على منح جبل كليمنجارو ، نما إلى علمه سبب نشوب الحرب العالمية الأولى ، كما تفهمه قبيلة تشاجا التي تعيش على الجانب الجنوبي من هذا الجبل :

« كان الدكتور هانز ماير الألماني هو أول من تسلق جبل كليمنجارو عام ١٨٨٩ .

فلما بلغ القمة ، ألقى هناك إله الجبل الذي أعرب عن إمتنانه للفتة التي لم يحظ بها من قبل ؛ بمنحه =



على الذات ، تتمثل في تبنيّ الفكرة المضادة القائلة بتساوي جميع ممثلي أي نوع من المجتمع — من الناحية الفلسفية — مع بعضهم بعضاً ؟

ولقد تبني الكاتب هذه الفكرة المضادة ، فكان أن بدا له من خلال الأجزاء الستة الأولى من هذه الدراسة ، ما يؤيد إيمانه بها ؛ وفي الجزء السابع ؛ رأى الكاتب أن الحضارات غير متكافئة في قيمتها ؛ في ضوء مبحث يقوم على الدور الذي يلعبه إنبهار الحضارات وتحولاتها ، في تاريخ العقيدة الدينية :

بيد أن هذه الدراسة ؛ لم تسفر — مع ذلك — عن التفخيم من شأن الحضارة الغربية من جديد . فإن البحث قد أسفر — على العكس — أن حضارات الجبل الثاني وهي الحضارات : السورية والسندية والهلينية والصينية ؛ كانت هي من أبرز الحضارات من وجهة نظر الباحث الذي يرى أن سير التاريخ إنما يقوم على النمو المطرد في تزويد نفوس البشر — في هذه الحياة الدنيا — بإمكانات روحية :

وإذا كان إعتناق الكاتب وجهة النظر هذه ، قد عزز إحجامه الأول عن تخصيص مبحث خاص للحضارة الغربية ؛ إلا أنه بتقريره عام ١٩٥٠ التزام نهج وضعه خلال سنوات ١٩٢٧/٢٩ ، إنما كان يخضع للضرورة المنطقية التي

---

= الألماني متسلق الجبل ومواطنية كافة بلاد تشاجا . واشترط إله الجبل شرطاً واحداً هو أن يقوم أحد مواطني هذا الرجل الألماني كل سنة ( ولعلها خمس سنوات ) بتسلق الجبل تحية وولاء . وسارت الأمور على ما يرام ، واحتل الألمان شرق أفريقيا الألمانية ، حتى عام ١٩١٤ . لكن الألمان في عام ١٩١٤ ، تفاخروا عن تأدية هذا الواجب . فكان أن غضب إله الجبل فحسب عطية ومنح البلاد إلى أعداء الألمان الذين أعلنوا الحرب عليهم وطردهم منها . إن هذه الحرب الإنجليزية الألمانية في قلب أفريقيا الشرقية قد جلبت معها مصادفة — كما يحدث عادة إبان الحروب — دورات حروب ثانوية في مناطق بعيدة ليست لها أهمية خاصة . ويبدو تفسير قبيلة تشاجا لهزيمة الألمان معقولا مثل تفسيرات كثيرة أخرى عنها . وفي الحق ؛ يعتبر المستر سومر فيل التفسير خيراً من تفسيرات كثيرة أخرى ، من ناحية أنها تعترف بأهمية الدور الذي يلعبه الدين في مجريات التاريخ .

تطلبها ثلاث حقائق لم تفقد شيئاً من وجاهتها خلال السنوات التي فصلت بين ١٩٥٠ و ٢٩/١٩٢٧ .

الحقيقة الأولى - أن الحضارة الغربية كانت خلال الربع الثاني من القرن العشرين المسيحية ؛ هي مثل نوعها الوحيد البارز ، الذي لم يُظهر علامات قاطعة على التحلل . فإن من بين الحضارات السبع الأخرى ؛ كان ثمة خمس حضارات هي : المسيحية الأرثوذكسية وفرعها الروسي ، والكيان الأسامي لحضارة الشرق الأقصى وفرعه الكورى الياباني ، والحضارة الهندية ؛ لم يقتصر الأمر على أنها مرتّ بمرحلة الدولة العالمية ، بل تجاوزتها . أما بحث تاريخ الحضارة الإسلامية ( الإيرانية العربية ) ، فقد أثبت بالدليل القاطع أن هذين المجتمعين قد انهارا كذلك .

ومن ثم ؛ لعل المجتمع الغربي هو المجتمع الوحيد الذي كان في هذه السنوات ( ١٩٢٧ - ١٩٥٠ ) لا يزال في مرحلة الارتقاء ،

الحقيقة الثانية - أن توسع المجتمع الغربي وإشعاع الثقافة الغربية ؛ قد وضع جميع الحضارات الأخرى الباقية وجميع المجتمعات البدائية الباقية ، في نطاق إطار عالمي شامل ، يصطبغ بالصبغة الغربية .

الحقيقة الثالثة - وهي حقيقة مزعجة تجعل من الاستقصاء أمراً لازماً ، ومدارها أن جميع مصائر الجنس البشرى بأسره قد جُمعت لأول مرة في تاريخه في موضع نفيس لكنه غير مستقر ، كما لو أنه بيض جُمع في سلة واحدة ؛ انقضت الأيام . عندما كان الجنون تحصره .

البحار أو الهضاب ؛ من الانتشار بين المجلس للبشرى :

وقد كانت الحكمة تسيطر في بكين مطمئنة ؛

رغمًا عن حمق نيرون وهو يعزف على أوتار عوده ؛

وكان الرب يبتسم من خلال طلعة البوذا ، مرحباً ؛

رغمًا عن تبشير كالفين في جنيف بالإيمان ؟  
لأن أرضنا المتصلة بعضها ببعض قد انكشفت حتى غدت صغرة ،  
ويعنى وجود هتلر واحد فيها ، الجنون للجميع .  
وكل موجة من قلق تنتشر في أنحاء العالم  
وتجزع ابيوه من الحرب التي تلوح بها أيبسدين<sup>(١)</sup> :

وفي حرب عالمية ثالثة تُستخدم فيها الأسلحة النووية والبكتريولوجية ؛  
بدو أمراً بعيداً عن الاحتمال ، أن يغفل ملاك الموت حتى عن هذه الزوايا  
والأركان من مواضع سكنى الإنسان . تلك المواضع التي كانت حتى وقت  
حديث : إما غير مرغوب فيها بالمرّة ، أو صعبة المنال ، أو توافرها هاتان  
الصفتان . وكانت بحالتها ؛ تهيء لقاطنيها الفقراء الضعاف المتأخرين ، مناعة  
أصيلة ضد الاهتمام الذي لا يرحب به أحد من جانب العسكريين  
« المتحضرين » ١١

ولقد عرض الكاتب في حديث ألقاه بجامعة برنستون قبل إنقضاء ثلاثة  
أسابيع على إعلان مبدأ ترومان بتقديم المساعدة الأمريكية لليونان وتركيا  
ضد الضغط الروسي ( ١٢ مارس سنة ١٩٤٧ ) ؛ عرض فكرة مرت  
بخيالة مدارها أن العالم المتأثر بالثقافة الغربية ، لو سمح لنفسه بالتردى في  
حرب عالمية ثالثة ؛ لترتب على ذلك بعث أسطورة من أساطير أفلاطون  
إلى الوجود فعلا : تخيل فيها الفيلسوف الأثيني رعاة الجبال ينحدرون من  
حصونهم - الفينة بعد الفينة - ليقوموا حضارة جديدة على الموقع الخاوى  
لحضارة قديمة بادت في نهاية طائفة من الجائحات ألمت بتلك الحضارة  
بصفة دورية .

Skinner, Martyn : Letters to Malayo I & II (London 194). (١)

ايبوه وايبسدين : مدينتان في الملايو . ( المترجم )

ويعنى هذا - فى تصور نفس لا شعورية جماعية - أن الرعاة يرمزون إلى الطاقات البشرية البدائية السلمية المدخرة لإنجاز الإبداع الذى ما يزال الرب يحتفظ به ذخيرة .

وإن الحضارة تعتبر أكثر الأعمال البشرية الحديثة حداثة ، ولعلها أشد ما أنجزه البشر خطورة . فإن أصاب الإنسان المتحضر الشجن خلال عملية تحضره ، فلعله يعتمد دائماً - كلما أعوزه الأمر - على الاستقاء من القوة الاحتياطية التى ما تزال كامنة فى إخوته البدائين ، الذين لفظهم من تلك المناطق المنتقاة من الأرض التى استأثر بها لسلطانه . فباتوا « يهيمون على وجوههم فى الصحارى والجبال ، مرتدين جلود الماعز والأغنام » . ولقد طفقت البقية الحية من أبناء هايل الأبرياء - نسيباً - يهيلون فح مات النار على رؤوس أبناء « قايين » ، وذلك بقدمهم لنصرة قاتلهم وقتما فضحت الخطايا أبناء « قايين » . ومصدراً لذلك ؛ نجد راعياً من آسكرا Ascara<sup>(١)</sup> - على سفح جبل هليكون - ينطق بتقدمة مأساة التاريخ الهليني ؛ ورعاة من النقب على مشارف صحراء العرب ، يقفون فى بيت لحم إلى جانب مهد المسيحى .

ولقد ذهب المؤلف عام ١٩٤٧ فى دعايته الأفلاطونية السالفة الذكر إلى أنه إذا كان قد قدر على الحضارة الغربية التى ينتمى إليها هو وسامعوه ؛ أن تبتلى بكارثة شاملة ؛ فلعل عبء إعادة السير فى طريق التحضر لكفالة استمرار جهد ثقافى ظل قائماً طوال خمسة أو ستة آلاف سنة الأخيرة ، يقع على كاهل أهالى التبيت الذين ظلوا محتمين حتى الآن وراء هضبتهم . أو لعله يقع على كاهل الاسكيمو الذين ما يزالون حتى الآن ؛ يستكنون مسترخين أمام عواصف ثلجية هى بالنسبة لهم ، أقل حقداً من أى نوع من أنواع البشر .

(١) موطن هسيود - الشاعر . ( المترجم )

وفي خلال ثلاثة أعوام ونصف عام إنقضت منذ إلقاء ذلك الخطاب وكتابة هذه الأسطر في الأرياض الهادئة لنفس المدينة الجامعية ؛ دهم سير الأحداث التاريخية ، هذه الأخيلاء ودهسها . ففي لحظة كتابة هذه السطور في ديسمبر ١٩٥٠ ، أذيع أن تجريدة صينية شيوعية في طريقها للاستيلاء على مدينة لهاसा<sup>(١)</sup> . في حين أن الاسكيمو الذين كانوا سعداء فيما مضى لأنه ما من عدو أو صديق لهم عدا الطبيعة المادية ؛ قد ألفوا أنفسهم قابعين في الجزء المطروق من طريق قذف القنابل عبر المناطق القطبية بين حوضي الفولجا والمسيبي ، وفي بطن أرض طريق الغزو عبر الطرف الثلجي لمضيق بهرنج من الموطن المنعزل للسكان المقيمين في الطرف الشمالي الشرقي لروسيا الآسيوية حتى الاسكا ؛ أصبحت روسيا تنفصل عن الجسم الرئيسي لقارة الولايات المتحدة بمجرد « ممر بولندي » من أراضي كندا<sup>(٢)</sup> .

وهكذا أصبح المجتمع الغربي المنتشر في أصقاع المعمورة ، يمسك الآن بيديه مقادير البشرية بأسرها في لحظة يقع فيها مصير الغرب نفسه على طرف أصبع رجل واحد في موسكو وآخر في واشنطنجتون ، في وسعهما بالضغط على زر أن يفجرا قنبلة ذرية .

وبعد ؛ تلك هي الوقائع التي دفعت الكاتب أن يسجل - وهو كاره - عام ١٩٥٠ ميلادية ، النتيجة التي وصل إليها - وهو كاره - عام ١٩٢٩ . نتيحة قوامها أن بحثا في مصائر الحضارة الغربية ، هو جزء ضروري من دراسة تاريخية تكتب في القرن العشرين .

(١) لهاسا : عاصمة التبت . وقد سيطرت الصين الشعبية عليها الأمر الذي أصبح يعكّر صفو العلاقات بين الصين الشعبية والهند . إذ كانت الهند ترغب في جعل التبت دولة حاضرة بينها وبين الصين . ( المترجم ) .

(٢) يشبه المؤلف هنا ألاسكا التي أصبحت فيما بعد الولاية ٤٩ من الولايات المتحدة الأمريكية بروسيا الشرقية ، والأراضي الكندية بدانترج . ( المترجم )

# الفصل الأربعون

## قصور الردود الأولية

تُرى ما هو المصير الذى كان ينتظر المجتمع الغربى فى عام ١٩٥٥ ؟  
أول ما يحتمل تبادره إلى ذهن دارس التاريخ ، بـخس تقدير  
إحتمالات الحياة فى الغرب ؛ حين يضع نصب عينيه - عند تقديره - سخاء  
الطبيعة الواضح للعيان . فما الحضارة الغربية - قبل كل شىء - إلا حضارة  
من نفس النوع الحضارى الذى لا يجاوز عدده الواحد والعشرين .  
وبالأحرى ؛ هل يتوقع منطقيا ، أن تفلت الحضارة الحادية والعشرون  
من المصير الذى تردت فيه الحضارات الأخرى السالفة ؟

لو أخذنا فى الاعتبار عدد مرات النشل الذى كان بمثابة الثمن الفادح للذى  
اقتضاه توفيق كل حضارة فى تطوير الحياة على سطح الأرض فى التاريخ  
البعيد ؛ لظهر أنه من غير المحتمل أن أية حضارة من حضارات الجيل الثالث -  
وهى من نوع حضارى لا يزال فى عنقوان شبابه - تستطيع أن تُكرس  
نفسها للبحث عن طريق - لم يُطرق من قبل - لتمضي الحياة وتزكو دون قيّد  
أو حدّ ، أو لخلق جنين يتولد فيه نوع جديد من أنواع المجتمعات .

ونلاحظ على هذا الاستدلال ؛ أنه مستنبط من تجارب الحياة فى المستوى  
السابق لظهور البشرية . وقد يكون من الحق أن الطبيعة - وقمّا أخذت على  
عاتقها تطوير الكائنات البدائية - كانت قادرة على صياغة ملايين من الأنواع ،  
حتى تتيح لنفسها فرصة بعيدة المدى لإبراز نوع جديد أسمى . فلاشبهة -  
والحالة هذه - أن العشرين نوعا من الحضارات ، وهى جُمُوع ما أسفر عنه  
فى خاتمة المطاف تطور النباتات والحشرات والأممك وما إلى ذلك ؛ يعتبر

عدداً في مجال الطبيعة ، ضليل ضالة تثير الضحك : لكن من الناحية الأخرى ؛ لا مبرر للافتراض بأن قواعد التطور التي لا معدى عن توافرها للكائنات الحيوانية أو النباتية ، ينبغي حتماً أن تكون صالحة للتطبيق على أنواع تباير تلك الكائنات تماماً ؛ أنواع مثل المجتمعات البشرية الآخذة بأساليب الحضارة .

والحق ؛ إن الاحتجاج بوفرة الطبيعة ؛ لا يقوم - في هذا البحث - على أساس . وإنما ما أثرناه هنا ، إلا للنسبته .

عندئذ ؛ يتبقى أمامنا - رداً على أسئلتنا - ردان أوليان *a priori* مشران - ولكن يتسمان بتناقضهما التام - ، يجب إمعان الفكر فيهما ، قبل أن نمضي قدماً في بحث الأدلة المستقاة من الحضارات نفسها . وجدير بالذكر أن كاتب هذه الدراسة ( وقد ولد عام ١٨٨٩ ) عاش ليرى العالم الغربي ينكفي من أحد هذين الإحساسين إلى الآخر :

فأحد الإحساسين ؛ يتجلى في نظرة أبناء الطبقة الوسطى البريطانية في نهاية القرن التاسع عشر إلى الأمور . وخير ما يمثل هذه النظرة ؛ الفقرة التالية المقتبسة من عبارة كتبها معلّمان حاكيا فيها - بأسلوب ساخر - أفكار تلميذ عن التاريخ ، كما دونها في أوراق امتحانه تحت عنوان « ١٠٦٦ وكل ذلك » :

« بلغ التاريخ الآن أجله فأصبح هذا التاريخ أمراً نهائياً . »

ولقد شارك المنتصرون الألمان والأمريكيون في آخر دورات الحرب الأوروبية الحديثة ، تلك النظرة التي اعتنقها الطبقة المتوسطة الإنجليزية في أواخر القرن التاسع عشر . ولم يكن الشك قد أخذ يتطرق إلى أذهان أولئك الذين أفادوا من الأحوال التي سادت عقب الحرب العامة ١٧٩٢ - ١٨١٥ ( مثلهم في ذلك مثل إخوانهم الإنجليز ) في أن العصر الحديث من تاريخ الغرب لم يول إلا ليبدأ عصر آخر « بعد الحديث » منفرداً بتجاربه مفعمة .

إذ كانوا يتصورون - لمنفعتهم - إن الحياة التي يحيونها - حياة الأمن والدة والرضا - قد بلغت - بمعجزة - حالة من الاستقرار ستدوم أبد الآبدين . ومن ذلك : أن شعوراً بـ « اللانهاية » قد بدا أنه ساد طوال الستين عاماً التي عاشها العصر الفيكتوري في إنجلترا : هذا على الرغم من أن فحصاً عابراً للصور التي عرضت في اليوبيل الماسي للملكة ، يظهرها تغيراً سريعاً في جميع نواحي الحياة ابتداء من الأساليب التكنيية ، حتى أزياء الناس .

ولقد كان المحافظون من أهل الطبقة الوسطى الإنجليزية الذين أقبل من أجلهم عصر الهناء والازدهار الطويل الأجل (١) ، كما كان الأحرار من الطبقة الوسطى الإنجليزية الذين عاشوا على هامشه ؛ كانوا جميعاً مدركين - طبعاً - أن حصة الطبقة العاملة الإنجليزية من الرخاء الذي تنعم به الطبقة الوسطى ، ضئيلة إلى حد مذهل . كما تبين لهم أن الرعايا البريطانيين في معظم المستعمرات والأملاك التابعة للمملكة المتحدة ، لا يتمتعون بالحكم الذاتي الذي كان ميزة يتمتع بها رفاقهم من الرعايا البريطانيين القاطنين في المملكة المتحدة وفي بعض أملاك التاج البريطاني ؛ بيد أن المحافظين دأبوا على إسقاط هذا التفاوت من حسابهم ؛ باعتباره أمراً لا معدى عنه . أما الأحرار . فكانوا يعتبرونه أمراً قابلاً للإصلاح . والمثل يقال عن معاصري الإنجليز من الأمم الأخرى ، في هذه الحقبة من الزمن :

فكان مواطنو شمال الولايات المتحدة مدركين بالمثل بأن رفاقهم من مواطني الجنوب لا يشاركونهم رخاءهم الاقتصادي :

كذلك أدرك رعايا الرايخ الألماني بأن سكان « أرض الرايخ » الذين

(١) في الأصل : العصر الألقى - وهو عصر يستمر ألف سنة ، ويحكمه السيد المسيح وفقاً للمسيحية ، ويسود العالم - خلاله - ( الرخاء والاستقرار والدة ) . ( المترجم )



ضُمُوا إليه من فرنسا ، ما يزالون فرنسيين بقلوبهم ؛ وأن بقية الأمة الفرنسية لا تسلّم ببيت المقاطعتين المتنازل عنهما . فالواقع ؛ لبثت أفكار الانتقام تزاود أذهان الفرنسيين ، وطفق سكان الألزاس واللورين الخاضعتين لألمانيا ، يحلمون بأن يتحقق يوماً ما نفس حلم التحرر الذي كان يطوف بأذهان السكان الخاضعين في شلزويج وبولندا ومقدونيا وإيرلندا .

ولم تكن مثل هذه الشعوب لتسلّم بالمذهب الوادع المريح القابل بأن « التاريخ قد بلغ غايته » . بيد أن ثقهم التي لا تنزعزع في أن النظام الذي فُرض عليهم ، سوف يجرفه - عاجلاً أم آجلاً - تيار الزمن المتدفق ابداً ؛ هذه الثقة الشعبية ، لم يكن لها أبداً كبير أثر على الأخيصة البليلة لمندوبى الدول المسيطرة ، وقتذاك :

وبالأحرى ؛ في وسعنا أن نقرر مطمئنين ، أنه في عام ١٨٩٧ ميلادية ، لم يكن ثمة أحد - رجلاً كان أو امرأة - حتى من بين أعنف المبشرين بالثورة الوطنية أو الاشتراكية - يحلم بأن المطالبة بمبدأ تقرير المصير سوف تمزق إمبراطوريات : هابسبرج وهو هنزلرن ورومانوف والمملكة المتحدة لبريطانيا وإيرلندا ، في غضون الخمسة والعشرين سنة التالية . ولم يتصور قط أن المطالبة بالديمقراطية الاجتماعية سوف تنتشر من طبقة عاملة نضج وعيها مبكراً في مدن طائفة قليلة من المقاطعات الصناعية في الغرب ، إلى فلاحى المكسيك والصين . وكان غاندى ( الذى ولد عام ١٨٦٩ م ) ولينين ( الذى ولد عام ١٨٧٠ م ) ما يزالان إسمين مجهولين . وما كانت كلمة « الشيوعية » لتعنى سوى حدّث باهت قصير تافه من أحداث الماضى التى نزلت بفرنسا عقب الكارثة التى نزلت بها فى حرب السبعين . واعتبر هذا الحدّث - وقتذاك - آخر ما لفظه بركان « التاريخ » بعد أن هدأت ثورته ونجّدت نيرانه .

ولم يكن ثمة خوف من تجدد إشتعال نار أمكن إحماها مدى ربع قرن ،  
بتأثير الحطة المهدئة التي سارت عليها الطبقة البورجوازية في فرنسا ؛ على  
عهد الجمهورية الثالثة .

ولم يكن ذلك التفاؤل الرضى الذى إعتنقه الطبقة المتوسطة أيام  
الاحتفال باليوبيل الماسى ، بالشىء الجديد للملكة فيكتوريا . وإذ نراه  
شائعا قبل ذلك بمائة عام ؛ تلك هى الأيام الحبيدة التي عاش فيها المؤرخ  
« جيبون » وأتى فيها « تريجو »<sup>(١)</sup> فى السوربون عام ١٧٥٠ م « الخطاب  
الثانى ، » تحت عنوان « المنافع التي حققها المسيحية للجنس البشرى » .

فى وسعنا أن نستشف نزعة التفاؤل هذه ، قبل ذلك بمائة عام أخرى ؛  
معمثلة فى الملاحظات العابره التي أبدها « بيبس Pepys »<sup>(٢)</sup> . فهذا  
لكاتب الساخر — صاحب اليوميات الأريب — كشف عن صعود فى  
« مقياس الضغط ، السياسى والاقتصادى . فكان من رأيه أن أحداث عام  
١٦٤٩ وما إليها — وتتضمن مذبحه سان بارتولوميو<sup>(٣)</sup> وديوان التفتيش  
الأسباني<sup>(٤)</sup> — أصبحت أشياء تمت إلى الماضى . وحقا ؛ يعتبر الجليل الذى

( ١ ) تريجو Turgot ( ١٧٢٧ - ٨١ ) : سياسى واقتصادى فرنسى . رنا طوال حياته  
للإمامة إلى تحرير الفلاحين الفرنسيين من استعباد الأرستقراطية . لكنه لم ينجح ، إذ خضع الملك  
لويس السادس عشر لضغط النبلاء فطرد تريجو من منصبه . وله طائفة من المؤلفات الاقتصادية  
والأدبية . ( المترجم )

( ٢ ) صمويل بيبس ( ١٦٢٣ - ١٧٠٢ ) : صاحب يوميات إنجليزية . كتب مذكرات  
تعتبر أهم المراجع عن عصر النهضة . ( المترجم )

( ٣ ) مذبحه سان بارتولوميو : جرت فى باريس فى ٢٤ أغسطس عام ١٥٧٢ . وقتل  
فيها عدة ضمن من الهيجونوت ( بروتستانت فرنسا ) . وكانت بداية استئصال هذا العنصر من  
فرنسا . وتمت هذه المذابح بأمر من الملكة كاترين دى مديشى . ( المترجم )

( ٤ ) محاكم التفتيش : تألفت محاكم التفتيش بناء على توصية أصدرها المجلس للدينى  
المنعقد فى تولوز عام ١٢٢٩ . وأصدر البابا جريجورى التاسع قراره بتنفيذها . وكانت الغاية  
من إقامتها بحث أحوال المتهمين بالهرطقة والخروج على قواعد المسيحية كما كانت تفهمها  
لكنيسته فى هذا الوقت . وانتشرت هذه المحاكم فى أسبانيا والبرتغال وإيطاليا وفرنسا . إلا أنها =

عاش فيه « بيبس » بداية العصر الحديث المتأخر ، الذى هو أحد الصور الكبرى التى عمّ فيها الإيمان بالتقدم والكمال البشرى . فقبل عصر « بيبس » يجيلين ؛ نرى « نبياً » جلجل صوته بهذا التفاؤل ، ألا وهو فرنسيس باكون<sup>(١)</sup> :

وهذا « الإيمان » الذى عاش ثلاثمئة عام ؛ لقي نهايته فى ظروف شاقة ، بعد عشر سنوات إنقضت على الضربة القاصمة التى أصابته فى سنة ١٩١٤ . ونستشف ذلك فى خطاب ألقاء مؤرخ ممتاز ، وأحد موظفى الدولة هو السير هيدلام مورلى (١٨٦٣ - ١٩٢٩) :

« فى تحليلنا لهذه الثقافة « الغربية » ؛ أول حقيقة نلاحظها هى أنه وإن كان هناك بلا ريب تاريخ مشترك وحضارة مشتركة لجميع أوروبا الغربية ، فإن شعوبها لم تنخرط فى أى اتحاد سياسى رسمى ، كما لم تخضع تلك البلاد - فى أى وقت - لحكومة واحدة مشتركة . ولقد بدا وقتاً ما ، كما لو أن شارلمان سيسيطر على المنطقة بأسرها ، إلا أن هذا الأمل - كما نعلم - قد تبدد . إذ فشلت محاولته لتكوين إمبراطورية جديدة ، كما فشلت جميع المحاولات التى تلتها . ومن وقت لآخر ؛ تجددت محاولات قامت بها الإمبراطورية بعد ذلك ، أو قام بها حكام إسبانيا وفرنسا لتوحيد أوروبا الغربية بأسرها فى دولة - أو إمبراطورية - واحدة كبرى . بيد أننا فى كل مرة ؛ نرى

---

= ترعرعت خاصة فى إسبانيا حيث انحصر عملها فى محاكمة المشتبه فى مسيحتهم من المرتدين من المسلمين واليهود . وظلت هذه المحاكم تمارس عملها البغيض حتى صدور قانون ١٨٢٤ الذى ألغائها رسمياً . ( المترجم )

( ١ ) فرنسيس باكون ( ١٥٦١ - ١٦٢٨ ) : فيلسوف إنجليزى . له طائفة من المؤلفات التى نتمّ عن عبقرية فذة ، أشهرها مؤلفه « الطريقة الجديدة للكشف العلمى » ثم كتاب « البعث العظيم » . وكان لنبوغه وتعدد جوانب ثقافته ، أثر كبير فى نشوء نظرية أنه هو المؤلف الأصيل لكل ما ينسب إلى شكسبير من أعمال . ( المترجم )

نفس الشيء : إستثارة الوطنية الإقليمية ، والاستعانة بالحرية الفردية لإلهاب شعور المقاومة الذى يحطّم جهود كل فاتح . وهكذا فإن ثمة طابعا أزلياً تتميز به أوروبا ، ينعتة النقاد بالفوضى . ذلك لأن إنتفاء الحكم المشترك ، يعنى الصراع والعراك والحرب والفتنة التى لا تنقطع - بين الوحدات الحكومية المتناقضة التى تنازع إحداها الأخرى فى سبيل السيطرة والاستحواز على الأرض .»

« وتلك حالة تُشير الألم الشديد عند الكثيرين : لأنها تنطوى - بلاريب - على تبيد طاقات ضخمة ، وتدمير الثروة وخسارة عظمتى فى الأرواح فى بعض الأحيان . لهذا نرى كثيرين يؤثرون قيام حكومة مشتركة تشيد تدريجياً ، وهم يوازنون بين تاريخ أوروبا وتاريخ الإمبراطورية الرومانية ؛ أو يوازنون حالياً بين تاريخ أوروبا وتاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ، ويخرجون من هذه الموازنة بنتيجة ليست فى صالح التاريخ الأوربى . وإن الكثيرين ليتوقون - منذ أيام دانتي وما بعده - إلى قيام حكومة نظامية ، لعلها تعكس المشيئة الإلهية وتكون أداها . وطالما سمعنا من يقول « إذا كان الإنجليز والإيطاليون والبولنديون والروتيونيون والألمان والسكندنافيون يعيشون على تربة أمريكا جنباً إلى جنب سالمين راضين ، فماذا يمنعهم من أن يفعلوا ذلك فى مواطنهم الأصلية ؟

« إننى لأقف اليوم لأناقش المُشَلَّ العُلَيا للمستقبل . إننا نُعنى بالماضى . وكل ما ينبغى علينا أن نعمله هو ملاحظة حقيقة مدارها أن هذه القوضى ، هذه الحرب ، وهذا الصراع ؛ هذا كله قد وُجِدَ فى الوقت الذى بلغت فيه طاقات القارة ذروتها . ولنلاحظ كذلك أن طاقات عالم البحر الأبيض المتوسط - وتمثل فى القوة الحيوية وفى الروح الفنية وفى الأصالة الثقافية - تبدو أنها تتحلل تدريجياً وبصورة منتظمة ، وأن بداية تحللها قد توافقت

مع إقامة حكومة مشتركة . أفلا يكون الاحتكاك والاضطراب - في الحقيقة -  
لا مجرد تدمير الطاقة ، ولكن يكون عاملا لتوليد تلك الطاقة « (١) .

وعجيب أن نسمع صوت جيون المتفائل لايزال يتردد صدها في إنجلترا ؛  
وهو يُسمع الآن بصوت مخيف لنذير غامض . على أنه ما إن حل عام ١٩٢٤  
حتى شاع في هذا العالم الغربي الذى برح به الألم ، شعور مناقض تمثل في  
قرارات تبحث في دلالة إنهيار الحضارة الهلينية السابقة ، وسقوطها .

وقبل أن يلتقى هيدلام مورلى خطابه بخمس سنوات ؛ أعلن بول فاليرى  
- بفصاحته المعهودة - أن جميع الحضارات مصيرها الفناء . كما قرر شبنجلر  
نفس الشيء في العصر ذاته .

وأيا ما تكون الحال ؛ ففي وسعنا الآن أن نرى أن مذهب « التقدم »  
قام على بضعة من القضايا المنطقية الخاطئة .

ولكن هل يدفعنا التسليم بهذه الحقيقة إلى تقبل مذهب « الهلاك  
الحتمى » ؟ .

مثل هذا القول مجرد استدلال . لأن في وسع المرء كذلك ؛ أن يجادل  
بالقول بأنه ما دام الإنسان قد تردى في حمأة اليأس ، فلن يكون ثمة والحالة  
هذه طريق غيرها . إن تشاؤم فاليرى وتفاؤل جيون - كلاهما - إخضاع  
الانفعالات للبحث العقلى ، تلك الانفعالات التى عاقت - ظاهرا - بالحياة  
للقصيرة التى عاشها كل منهما .

---

J. W. Headlam-Morley : The Cultural Unity of Western Europe (١)  
in the new Past and Other Essays on the Development of Civilization;  
edited by E. H. Carter (Oxford 1925, Blackwell P.P. 68-89).

# الفصل الحادى والأربعون

## فحوى تاريخ الحضارات

(١) التجارب الغربية مع الحضارات الغير الغربية السابقة حاولنا فى أجزاء سابقة من هذه الدراسة ، أن ننفذ ببصرنا إلى العوامل التى أدت إلى إنهار الحضارات وإلى عملية تحللها ؛ وذلك باستعراض الوقائع التاريخية المتصلة بعملية الانهيار والتحلل . فكان أن أسفرت دراستنا لظاهرة إنهار الحضارات ؛ على أن السبب فى كل حالة ، نوع من الإخفاق فى تقرير المصير . فإن مجتمعاً منهاراً يُثبت - بلا ريب - أنه قد حرم حقه فى توجيه إرادته نحو تحقيق فعل نافع ؛ بترديه فى عبودية وثن من صنَّع يديه .

فإن طبقنا هذا الرأى على المجتمع الغربى ؛ ألفيناه يسلك خلال منتصف القرن العشرين المسيحى ؛ مسلك العاكف على عبادة بضعة من الأوثان ؛ إلا أن من بين هذه الأوثان ؛ ثمة وثناً سما فوق الأوثان الأخرى ؛ هذا هو وثن الدولة الإقليمية .

ولهذه الظاهرة فى حياة الغرب فى عصر ما بعد الحديث ، دلالتها المزعجة ، من ناحيتين :

الأولى - أن هذا التأليه للدولة الإقليمية ، كان هو العقيدة الدينية الحقيقية للغالبية العظمى لسكان العالم الآخذ بأسباب الحضارة الغربية ؛ وإن لم يعترفوا بذلك صراحة .

الثانية - أن هذه العقيدة الباطلة ، هى السبب فى إنقضاء أجل ما لا يقل عن أربع عشر حضارة - وقد يكون عددها ست عشرة - من الحضارات الإحدى والعشرين التى سبَّلناها فيما سبق .

وحقاً ؛ ما برحت الحرب التي يقتل فيها الأخ أخاه ، وتزداد فيها أساليب العنف باطراد - وهذه الحرب نتيجة التعلق بالدولة الإقليمية - هي إلى أبعد حد ، أكثر العوامل المشتركة لفناء حضارات ثلاثة أجيال بأسرها :

ففي الجيل الأول - كان في تلك الحرب - بكل تأكيد - دمار الحضارتين السورية والأندليانية<sup>(١)</sup> . ولعلها كانت كذلك عامل دمار الحضارة المينوية . وفي الجيل الثاني - تسببت في دمار الحضارات البابلية والسندية والسورية والهلينية والمكسيكية والياكوتية<sup>(١)</sup> .

وفي الجيل الثالث - كانت هي عامل دمار الحضارة المسيحية الأرثوذكسية ؛ سواء في وطنها الأصلي أو في فرعها الروسي .

وكانت بالمثل عامل دمار حضارة الشرق الأقصى وفرعها الياباني . ودمرت كذلك ؛ الحضارتين الهندية والإيرانية .

أما بالنسبة للحضارات الخمس الأخرى ( باستثناء الحضارة الغربية ) ؛ فقد نرى كذلك أن الحضارة الحيشية قد جلبت على نفسها الدمار ، بفعل حرب أهلية نُشبت في عقر دارها . وذلك قبل استكمال عدتها لقتال عالم مصرى أصابه التحجّر . فانهى المطاف بها إلى الاستسلام لهجرات بربرية وقّدت عليها .

وأما الحضارة المايانية ؛ فلا تُظهر - على ما نعلم - دليلاً على نشوب حرب داخلية . ويبدو أن الحضارة المصرية وحضارة الشرق الأقصى في الصين ؛ قد ضحيتا بحياتهما على مذبح وثن غير الدولة الإقليمية ، هو نظام عالمي يضم بروتوقراطية طفيلية يطرد نموها .

(١) الحضارات : الأندليانية والمكسيكية والياكوتية ، حضارات انبعثت في أمريكا للوسطى وقد سبق الحديث عنها في الفصل الأول من هذه الترجمة . ( المترجم )

يتبقى بعد ذلك النموذج الوحيد الباقي وهو المجتمع العربي . وكان من المحتمل أن يلقي مصرعه تحت وطأة نظام بدوى دخيل طفيلى يجم على عالم متحضّر غير بدوى . وهذا النظام البدوى ؛ مائل فى سيطرة الأرقاء المالك على مصر . فكان من المحتمل أن يلقي المجتمع العربى نهائيه تحت وطأة هذا النظام ، لولا أن هذا المجتمع قدّم حالة فريدة من الانهيار تحت سنابك غاز دخيل .

وفضلا عن ذلك ؛ فإن التأثير المدمر لتأليه نظام الدولة الإقليمية ذات السيادة - خلال العصر ما بعد الحديث من التاريخ الغربى - قد ألب حدته مؤثر شيطانى . فقد زال النفوذ الكابح الذى كانت تمارسه الكنيسة العالمية . فإن تأثير الديمقراطية - فى شكل نزعة قومية صاحبها فى كثير من الحالات نوع من العقيدة المذهبية - قد جعل الحرب أشد ضراوة . وجاء التصنيع والتكنولوجيا فزودا المتحاربين بأسلحة تعظم طاقتها التدميرية باستمرار .

ولا ريب فى أن الثورة الصناعية التى أخذت تؤثر على العالم الغربى فى القرن الثامن عشر المسيحى ؛ هى صورة مقابلة تماماً للثورة الاقتصادية التى دهمت العالم الهلنى خلال القرن السادس قبل الميلاد . فى كلتا الحالتين : أخذت الجماعات التى كانت تحصل فيما مضى على معاشها - معزلة بنفسها فى كثير أو قليل - من الزراعة الاستهلاكية : أخذت تدخل مع بعضها البعض فى مشاركة اقتصادية ، تستهدف زيادة إنتاجها ودخلها ، بفضل بصرها بإنتاج السلع التى تخصص فى إنتاجها وتبادلها .

وبقيامها بهذا الأمر ؛ زالت عنها صفة « الاستكفاء الذاتى » . ولم يعد فى وسعها أن تعود إليه ، حتى وإن شاءت . والنتيجة فى كلتا الحالتين ؛ بناء المجتمع بناءً جديداً على المستوى الاقتصادى ، وهو بناء مابين لبنائه على المستوى السياسى . ولقد قابلتنا فى دراستنا - أكثر من



مرة - النتيجة المدمرة لهذا التناقض ، على التركيب الاجتماعى للمجتمع الهليني .

وإذا كان لإنبعاث النزعة الحربية أثر مهلك فى تاريخ الحضارات ؛ فإن ظهورها فى بروسيا - فى بداية الأمر - فى عصرى الملكين البروسيين : فردريك وليم الأول وفردريك وليم الأكبر ( ١٧٠٣ - ٨٦ ميلادية ) ثم فى ألمانيا فى مجموعها ؛ ليُعتبر أحد الأعراض الهدامة فى التاريخ الغربى الحديث . وقد اختلفت الحرب وقتذاك عن الحرب فى جميع عصور التاريخ الغربى الحديث ، من ناحية ضعف طاقتها التدميرية ، ومظهرها الذى كان يتسم بالتكلف . لكن النزعة الحربية الشبيهة بالكلب العقور ، التى إنبعثت فى مرحلتها الأخيرة فى ألمانيا تحت حكم الاشتراكية الوطنية ؛ لا يمكن أن تُفترق إلا بـ « الاندفاع الأثورى » بعد أن رفع تيجلات بيلسر الثالث ( ٧٤٧ - ٧٧٧ ق . م ) خدته إلى منبهاها . أما القول بأن ما أصاب أداة الحرب الألمانية الاشتراكية الوطنية من تحطيم ، قد أدى إلى القضاء على النزعة الحربية فى جميع أنحاء العالم الغربى الصبغة ؛ فإنه يبدو حتى وقت كتابة هذه السطور ، موضع شك كبير .

بيد أن ثمة بشائر تحذو إلى التفاؤل فى مواجهة هذه النذر المشثومة . فلقد استطاعت الحضارة الغربية التخلص من نظام قديم لم يكن يقل عن الحرب شراً ؛ ذلك هو نظام الرق . ومن ثم ؛ فإن فى وسع الحضارة الغربية أن تستمد من هذا النجاح المنقطع النظير ، قوة تمكّنها من القضاء على نزعة الحرب هذه . فلا يخفى أن الحرب والرق سرطانان توأمان أُصيّبت بهما الحضارة منذ ظهرت إلى الوجود ؛ وإن الانتصار على أحدهما ، بشير بالقضاء على الآخر .

ثم إن هذا المجتمع الغربى الذى ما زال موصوماً بنزعة الحرب ، قد استطاع أن يشحذ عزيمته فى مجالات روحية أخرى :

ففي استجابته للتحدى الذى استثاره ضغط السياسة الصناعية على نظام الملكية الخاصة ؛ استطاع المجتمع الغربى فى كثير من البلاد ، أن يشق طريقاً وسطاً بين السياسة الاقتصادية القائمة على الفردية المطلقة - من جانب - وسيطرة الدولة الجاعية على أوجه النشاط الاقتصادى ، من جانب آخر (١) .

كذلك حقق المجتمع الغربى بعض النجاح فى مسايرة تأثير الأفكار الديمقراطية على التربية . فإن الديمقراطية قد فتحت أبواب الثقافة على مصراعيها للجميع ؛ تلك الأبواب التى ما فتئت فى حراسة أقلية صغيرة حريصة ، تستغلها منذ فجر الحضارة ، استغلالاً تعسفياً . وبذلك أعطت الروح الديمقراطية الغربية الحديثة ، البشرية أملاً جديداً .

لإلأنها دفعت ثمن ذلك ؛ حين عرضت البشرية لخطر جديد ، لما جرّه تعميم التعليم العام من إنطلاق ألوان الدعاية دون وعى ؛ وتظهر فى ما يقوم به رجال الإعلان ووكالات الأنباء والجماعات المتكثلة صاحبة النفوذ ، والأحزاب السياسية ، والحكومات الديكتاتورية ؛ ما يقومون به من إستغلال الجماهير ، إستغلالاً يجمع بين المهارة ومجافة المبادئ . والأمل معقود فى احتمال أن يخفق هؤلاء المستغلون للجماهير من أنصاف المتعلمين ، فى أن « يكيّفوا » ضحاياهم بحيث يحولوا بينهم وبين مواصلة تعليمهم إلى الحد الذى يزودهم بحصانة تقيهم شر هذا الاستغلال .

على أن المعركة الروحية الحاسمة التى جابهت رجل الغرب عام ١٩٥٣ ،

(١) فى الأصل : يجابه طريقاً بين سيللا Scylla وخاربيديس Charybdis . ولقد ذكر هوميروس فى الجزء الثانى عشر من الأوديسية ، أنه اسم كائن تخيف له ستة رؤوس يعيش على صخرة تكتنفها درامة من الماء . وكانت الرؤوس فى وضع يجعلها تحول بين مرور أحد من بوغاز مسينا . ( المترجم )

لم تُنشَب على الصعيد الحربى ولا على الصعيد الاجتماعى أو الاقتصادى أو الثقافى ؟  
لكن ميدان المعركة الروحية الحاسمة وقتئذ كان حول موضوع الدين .

فهل وصل الأمر بالديانات : اليهودية والمسيحية والإسلام ، إلى حد  
أنها تستعصى على العلاج بسبب روح التعصب الجارف الذى يحفل به تاريخها  
ويناقض مبادئها ؟

وهل ثمة فضيلة كامنة فى التسامح الدينى الذى جنح إليه العالم الغربى فى  
أواخر القرن السابع عشر الميلادى ، وقد صحا من أوهامه ؟  
وإلى متى تظل نفوس الناس فى الغرب محتملة مواصلة العيش بدون عقيدة  
دينية ؟

وإذا كانت نفوس الناس فى الغرب قد استبد بها قلق الفراغ الروحى  
ففتحت الباب لدخول شياطين مثل : القومية والفاشية والشيوعية ؛ فإلى متى  
يظل إيمانها الذى كسبته أخيراً بالتسامح ، صامداً للتجربة ؟

لقد كان التسامح سهلاً ميسراً فى عصر إمتاز بفتور العقيدة الدينية ،  
فقدت أثناءه ألوان المسيحية الغربية سيطرتها على قلوب المسيحيين وعقولهم ؛  
فى الوقت الذى لم تجد فيه هذه القلوب والعقول أهدافاً بديلة توجه إليه ولاها  
المضيق . فالآن وقد أخذت تغازل آلهة أخرى<sup>(١)</sup> ؛ فهل تستطيع نزعة تسامح  
القرن الثامن عشر أن تصمد أمام نزعة تعصب القرن العشرين ؟

إن السائرين فى بيداء المجتمع الغربى — وقد انحرفوا عن طريق الإله الواحد  
الصمد الذى آمن به أجدادهم — أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن  
الدول الإقليمية — مثل الكنائس الطائفية — أوثان تجلب عبادتها الحرب  
لا السلام ؛ أن هؤلاء السائرين فى بيداء المجتمع الغربى ، قد تدفعهم التجربة

(١) يقصد المؤلف بالآله الأخرى : مذاهب الشيوعية والفاشية والنازية وما إليها من

إلى التعلُّق بهدف بديل لعبادة الأوثان وهو « الإنسانية الشاملة »<sup>(١)</sup> . إن « عبادة الإنسانية » التي فقدت حيويتها في القلب الجاف الذي صاغته فلسفة أوجست كومت الوضعية<sup>(٢)</sup> ، قد هزت أنظار العالم عندما انطلقت مدوية من أفواه الشيوعية الماركسية .

لقد سبق أن شنت المسيحية وهي في عنفوان قوتها ، حرب حياة أو موت — لخلاص أرواح البشر — ضد العبادة الهلينية لمذهب « الإنسانية الشاملة » ؛ متمثلة في « الربة روما » و « الرب قيصر » ، ففازت في المعركة . فهل قُدِّرَ عليها مرة أخرى بعد إنقضاء ألبى سنة ، أن تشن معركة جديدة ضد تجسيد جديد لنفس هذه العبادة الرهيبة ؟

لقد أثارت العبادة الهلينية في نفوسنا نفس السؤال ؛ لكننا لم نوح لنا بالإجابة المنشودة .

• • •

فإذا ما انتقلنا الآن من أعراض إنهيار المجتمع الغربي إلى أعراض تحلله ؛ يتبادر إلى أذهاننا ما ألفيناه أثناء تحليلنا « الانقسام في الكيان الاجتماعي » ؛ من آثار واضحة المعالم عن وجود انقسام مميز ذي شعب ثلاث في العالم الغربي الحاضر :

أقلية مسيطرة — بروليتاريا داخلية — بروليتاريا خارجية .

(١) الإنسانية الشاملة أو الجماعية : أي النظم التي تحجب الحرية الفردية وتجعل من الجماعة أساس النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مثل الشيوعية والفاشية . ( المترجم )  
 (٢) الفلسفة اليقينية أو الوضعية : تحصر هذه المدرسة الفلسفية تمايلها في « التجربة » وتصدف عما دون ذلك . ومن ثم ؛ فإنها لا تؤمن بالقيم الروحية الدينية باعتبارها شيئاً غير محسوس . ويرى أوجست كومت مؤسس المذهب اليقيني ، ضرورة إعادة تقييم القيم الاجتماعية والمعنوية على ضوء العلوم الصحيحة . ( المترجم )

بالنسبة للبروليتاريا الخارجية ؛ فإنها تنقسم إلى ثلاث فرق :

الأولى - البروليتاريا الخارجية الغربية . ولسنا بحاجة إلى الوقوف عندها . لأن المتبررين الأوّل ، قد استبعدوا - لاعتن طريق الإبادة - ولكن بنقلهم إلى صفوف البروليتاريا الداخلية الغربية ، التي أصبحت تضم بين ظهرانيها أغلبية كبرى من جيل البشرية التأم . وهكذا غدا البرابرة - وقد تم إستئناسهم قسرا - إحدى الكتائب الصغيرة التي تألفت منها هذه البروليتاريا الداخلية - الواسعة النطاق - في المجتمع الغربي في القرن العشرين .

الثانية - وأعظم من هؤلاء المتبررين نصيباً ، أبناء الحضارات الغير الغربية الذين وقعوا في شرك الغرب التي أخذتهم من كل جانب .

والفرقة الثالثة - تعتبر أقل الفرق الثلاث حظاً ؛ وبالتالي أشدها عزلة . وقد تألفت من الشعوب المختلفة التي اقتلعت من أصولها سواء أكانت أصولا غربية أو غير غربية . وقد طفقت تكابد مختلف درجات القهر . فمنهم المنحدرون من أرقاء الزنوج الأفريقيين الذين أقتيدوا بالقوة عبر الأطلسي ، ومنهم سلالة العمال الصينيين والهنود المستوردين بعقود ، الذين حُمّلوا عبر البحار بوسائل لا تقل قهراً عما أنتج بالنسبة للعبيد الإفريقيين . ثم كان هناك آخرون أقتلعوا من مواطنهم إقتلاعاً ، دون أن يعبروا البحار .

وأكثر أمثلة الاصطباغ البروليتارى قوة ؛ تتجلى في « البيض المساكين » في الجنوب العتيق من أرض الولايات المتحدة وفي اتحاد جنوب أفريقيا . وهم الذين انحدروا إلى المستوى الاجتماعى الذى كان عليه إخوانهم المستعمرون الأكثر نجاحاً : سواء أكانوا مجلوبين ، أو أرقاء أفريقيين من أهل البلاد . بيد أنه يمكن القول ؛ أن فوق هذه الجماعات التي عرفت ببؤسها ، تقوم بروليتاريا داخلية ؛ حيثما وجدت جماهير من الناس من أهل الحضرة

والريف ، تحسّن بأن النظام الاجتماعى الغربى لم يتح لها ما هى جديرة بالحصول عليه ، وتتفق حالتها مع تعريفنا لها : ذلك لأن تعريفنا للبروليتاريا فى كل مكان من هذه الدراسة ؛ يقوم على إعتبارات سيكلوجية . وقد التزمنا هذا التعريف باستمرار لنعنى به أولئك الذين يحسّون بأنهم لم يعودوا بعد ، ينتمون روحانيا إلى المجتمع الذى يجدون أنفسهم - ماديا - يعيشون فى نطاقه .

ولقد وجد رد الفعل البروليتارى ضد الأقلية المسيطرة ، تعبيراً عنيفاً خلال أوقات متعددة وفى أماكن مختلفة : منذ حروب الفلاحين خلال القرون الوسطى ، إلى يعاقبة الثورة الفرنسية . وقد عبّر رد الفعل البروليتارى عن نفسه فى منتصف القرن العشرين الميلادى تعبيراً أشد قوة مما سبق له التعبير فى أى وقت من الأوقات . وتم ذلك فى نطاق مجريين :

الأول - اتخذ رد الفعل إتجاها شيوعيا ، حيثما كانت المظالم اقتصادية فى الغالب .

الثانى - اتخذ رد الفعل إتجاها وطنياً ثورياً ضد الاستعمار ، حيثما كانت المظالم سياسية أو عنصرية :

وكان أن ظهر للعيان عام ١٩٥٥ ميلادية ؛ عِظَم الخطر الذى يهدد الحضارة الغربية من جانب الكتلة الروسية الصينية الشيوعية . بيد أنه كان ثمة من الناحية الأخرى عوامل تحدّ من الخطر هى أقل إثارة ، ولكنها ليست بالضرورة أقل أثراً :

فالأمراة الأول الذى نجده فى صالح الحضارة الغربية المهتدة ، هو ذلك المزيج من الوطنية الروسية الذى نجده فى الشيوعية الدولية . فإنه وإن كانت روسيا تؤكّد - فى غيرة تماثل غيرة القديس بولص - بأنها تتجرد تماماً من حماقة التمييز العنصرى بين الشعوب ؛ إلا أن عدم إخلاصها الحقيقى لما تزعمه ، يَضْعَف القوة المعنوية للشيوعية . ذلك لأنه فى الوقت الذى

كانت قضية الغرب تعاني في شرق آسيا خصومة رهيبية ؛ كان في وسع الغربي الذي تنسئ له قراءة أفكار ساسة الكرملين الصامتين أن يدرك أنهم يرقبون - بمزيج متناقض العواطف - إنتصارات حلفائهم الصينيين ؛ فإن مستقبل مانشوريا ومنغوليا ومنكيانج ، له قبل كل شيء أهمية خاصة للصين وروسيا كليهما ؛ أهمية تفوق بكثير ، أهمية مستقبل الهند الصينية وهونج كونج وفورموزا .

لقد كان من الواضح أن من الممكن أن يغدو مالينكوف أو خليفته خروشوف أو خليفة خروشوف : تيتو آخر<sup>(١)</sup> . وأنه بعد أن أعاد الغرب تسليح ألمانيا واليابان - وبعد أن أعاد الاتحاد السوفيتي تسليح الصين - عندئذ قد يهمل الغرب لإنبعاث الوطنية الرومية باعتبارها « أمل الإنسان الأبيض »<sup>(٢)</sup> .

(١) مذهب تيتو : يعنى قيام الشيوعية في بلد واحد يكف مبادئها وفقاً لظروفها الخاصة . وبالأحرى فإن الشيوعية عند تيتو ليست دولية الطابع بل قومية . ولا يلتزم البلد الذى يعتنقها باقتفاء أثر بلد شيوعى آخر . وكانت بقية البلاد الشيوعية تعتبر هذا الرأى انحرافاً عن الشيوعية الأصلية ، بيد أن الأمور تطورت في أوروبا الشرقية حتى أصبحت جميعها تعتنق مذهباً شيوعياً وطنياً طبقه وفقاً لمصالحها القومية ولم تعد ترتبط بالبلاد الشيوعية الأخرى - أى الشيوعية الدولية - إلا بما يتفق ومصالحها القومية .

ويقصد الأستاذ المؤلف هنا أن الأمور قد تتطور تطوراً يدفع روسيا إلى إعتناق مذهب شيوعى أوروبى ، وإعتناق الصين مذهباً شيوعياً صينياً فتقوم العدواة بين الدولتين . وهذا ما أيدته الأحداث داخل الكتلة الشيوعية بالفعل . ( المترجم )

(٢) إن الآراء التى أبداها الأستاذ المؤلف هام ١٩٥٥ بشأن ترقمه تصدع الشيوعية الدولية ، حثقتها الأحداث التى ما انفكت تظهر على مسرح السياسات الدولية . إذ يستفحل تفكك وحدة العالم الشيوعى يوماً بعد آخر . ومناطق الأسباب الحقيقية ، هى كما أشار الأستاذ المؤلف : المصالح القومية ، وهى تمكس بدورها « المظاهر الحضارية القومية » . فإن المصالح القومية في القوميات التى تكوّن العالم للشيرعى ، أصبحت تطفو على سطح الأحداث . وتبين للباحثين أن أحكام التاريخ - أو التطورات الحضارية باستخدام مصطلحات الأستاذ المؤلف - أقوى من المبادئ المذهبية وأهم تأثيراً وفعالية من آراء الأيديولوجيين . إذ تبدى =

= للبيان أن مستقبل الشيوعية قد بات يتوقف على اختلافات الأحزاب الشيوعية في تطورها تطوراً قومياً وطنياً . كما أوضحت الأحداث التي تمر بها الشيوعية الدولية ، خطأ كارل ماركس في تجاهله أن التقسيمات القومية كفيلة بأن تطلق في الشيوعية الدولية قوى عارمة ، قيمة بتفتيت وحدتها وتقويض دعائم الجهاز الذي يشرف على عملية التوحيد . فإن كارل ماركس لم يتوقع عجز التنظيم الدولى الخاضع لسيطرة مركزية ، عن الصمود لضغوط الحركات القومية داخل التنظيم لتسبب زمام حكم بلادها وإدارته وفق المصالح الوطنية التاريخية . فالتاريخ - حقاً - أقوى من المبادئ مهما تسامت في المنطق والفكر .

فلقد أثبتت الأحداث الأخيرة ؛ أن كلا من الاتحاد السوفييتى والصين ، يجابه مجموعة مختلفة من المشكلات والأفكار والفرص ، وأن كلا منهما - مسيراً بالتاريخ - يجعل في المكان الأول تحقيق مصالحه الخاصة . وتبين - بمرور الأيام - أن كلا من الفريقين ، يضطلع بمسئوليات داخلية وخارجية تتطلب منه سلوك طريق معين قد يماهى الطريق الذى يتخذه الفريق الآخر . فأسفر هذا عن انبعاث مشكلات تفسد علاقات البلدين . بل طفت إلى سطح الأحداث ، رواسب الماضى وأحقاد الكامنة في أعماق اللاشعور في نفسية الشعبين ، والتي ظنن - خطأ - أن اشتراك البلدين في أيديولوجية واحدة يكفل زوال الماضى وبداية عهد جديد من التعاون والتآزر ضد العدو المشترك : الامبريالية . وفي الحق ؛ فإذا كانت الصين والاتحاد السوفييتى قد تعاونوا في الماضى ، فقد كانت المصالح القومية لحمة التعاون وسداه .

وثمة ظاهرة - في موضوع الصراع السوفييتى الصينى - هامة للغاية . فإن الأحزاب الشيوعية الأوربية تقف - عدا القليل النادر منها - في صف الاتحاد السوفييتى ، في حين توازر الأحزاب الشيوعية الآسيوية الأفريقية - عدا القليل منها - الصين الشعبية . وهذا ما يجعل للصراع الصينى السوفييتى مظهراً خاصاً له نتائجه الرهيبة . فإن الأحزاب الشيوعية الآسيوية الأفريقية مسيرة بعقلها الباطن بشعور أن روسيا دولة بيضاء تنتمى إلى المنصر الذى ذاق الملونون على يديه ويلات الاستعمار والامبريالية والاضهاد المنصرى .

وهكذا تكوّنت في العالم - من ناحية الجوهر - كتلتان شيوعيتان : آسيوية / أفريقية تزعمها الصين الشعبية ، وأخرى أوربية تزعمها موسكو . ولقد أصبح لهذا الانقسام صدق يشهد يوماً بعد آخر ، نقيضه في دراسات الباحثين في الشؤون الدولية ، وتجميع كلها عن تقارب فكرى بين الاتحاد السوفييتى وبقية أوروبا ، يشهد يوماً بعد آخر وستكون له نتائجه على الصمغدين السياسى والاقتصادى مما يحقق حلم ديجول عن أوروبا : من الأورال إلى الأطلسى . وهذا التقارب - كما يقول الباحثون الأوربيون - يؤكد انتماء روسيا إلى الحضارة الأوربية وانتصار الثقافة الأوربية - في نهاية المطاف - في روسيا ، وهو ما جاهد لتحقيقه القيصر بطرس الأكبر ومن تلاه من الحكام والمفكرين الروس ، وهو اتجاه عطلته - كما يقولون - انحرافات التاريخ . ( المترجم )



وقديماً سفته الناس القيصر ولهم الثاني<sup>(١)</sup> لتنبه الأذهان إلى « الخطر الأصفر » وكانوا يحسبون هوميه جنوناً . لكن ؛ ما يزال بعض الكتاب يتمسك بالقول بأنه لم يكن حسن النية فحسب ، بل كان رجلاً حاذقاً كذلك ؛ ومما له دلالاته ، أن هتلر كان يثنى بالمثل على رأى القيصر في هذه النقطة بالذات . ولهذا الدلالة التي تبدو للوهلة الأولى غير مقنعة ، أساس صلد يقوم على حقيقتين لا تقبلان الجدل :

الأولى — أن روسيا هي الأرض الرئيسية الوحيدة في بلاد الجنس الأبيض ، حيث ظل السكان يتزايدون خلال القرن العشرين وفقاً لمعدل زيادة سكان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية خلال القرن التاسع عشر .

الثانية — أن روسيا أيضاً من بلاد الجنس الأبيض التي تتاخم حدود الصين والهند .

فإذا أتيج لإحدى هاتين الدولتين أو كليهما معاً ( وكل أشبهه بالقارة ويضم حوالى ربع الجنس البشرى تقريباً ) أن تصلا — بعملية اقتباس النظم الغربية الإدارية والتكنولوجية — إلى المدى الذى تصبح عنده القوة البشرية العاملة الهندية أو الصينية ، يُحسب حسابها في ميزان القوى العالمية الحربية والسياسية وفقاً لنسبتها العددية وحدها ؛ هنا يُنتظر أن يصرّ مثل هذا الجبار العاقى الممكن ، على إجراء تعديل تام في توزيع أراضي العالم وفي توزيع ثرواته ، وهو توزيع لا يزال مجافياً للعدالة .

عندئذ ؛ قد تجد روسيا نفسها — وهي تكافح لصيانة كيانها نفسه — مسوقة دون إرادتها لتُسدّى للعالم الغربى الذى يقف مترخياً محتماً وراء أسوارها ؛ تُسدّى إليه مِنّة قيامها بدور الدولة الحاجزة . وهى منّة لا يتوقع

(١) إمبراطور ألمانيا الذى دالت دولته بعد خسارتها الحرب العالمية الأولى .

( المترجم )

لها من الغرب جزاءً ولا شكورا ؛ وقد سبق أن قامت الكتلة الرئيسية للعالم المسيحي الأرثوذكسى<sup>(١)</sup> بتأدية هذا الدور لهذا العالم الغربي نفسه . ولم يأت الخطر وقتذاك من الهند أو الصين ؛ لكنه جاء من جنوب غربي آسيا ، بعد أن توحدت تحت قيادة قوة ديناميكية فتيحة هي : قوة العروبة والإسلام .

إن هذه التنبؤات المتصورة إلى أبعد حدود التصور تمت بكليتها إلى مستقبل لم تتضح معالمه للناظرين بعد . ولعل ثمة ما يبعث على الأمل في أن الجماعة الغربية التي اصطدمت بالصينيين بعنف في كوريا واشتركت في صراع يائس في الهند الصينية ؛ قد توصلت إلى اتفاق مع الأندونيسيين غداة تحررهم من حكم اليابانيين ، وتنازلت مختارة عن سلطانها إلى أهالي الفلبين وسيلان وبورما والهند وباكستان .

وإن عملية المصالحة التي تمت من قارة آسيا - ممثلة في جماعات مختلفة كانت خاضعة للسلطان البريطاني - وبين المجتمع الغربي - ممثل في القادة البريطانيين - إن هذه العملية ؛ قد فتحت باب الأمل بأن جماعة - على الأقل - من الحشد الآسيوي الضخم في البروليتاريا الغربية الداخلية الواسعة النطاق التي تسعى قُدماً إلى الانفصال عن الأقلية الغربية المسيطرة ؛ إن ثمة أملا بأن هذه الجماعة قد تحوّل طريقها وتتجه إلى هدف آخر يقوم على المشاركة على قدم المساواة مع السادة الغربيين السابقين .

وقد يحدث نفس الشيء في أقطار العالم الإسلامي في آسيا وشمال إفريقيا ، ولعظم الأقطار الأفريقية جنوب الصحراء . لكن ثمة مشكلة أشد من ذلك تعقداً ، قائمة في تلك المناطق التي أغرت أحوالها المناخية الأوربي باستيطانها ، فضلاً عن بسط سيطرته عليها . وتتبدى نفس المشكلة - ولكن في وضع أقل خطورة - في المناطق التي استجلب إليها الأوربي عناصر غير بيضاء

(١) أي الإمبراطورية البيزنطية . ( المترجم )

لتؤدى للرجل الأبيض ضروب الأعمال الكريمة والبداية التي يكره هو القيام بها . ويبدو الاختلاف في درجة الخطورة في الحالتين - من وجهة نظر الإنسان الأبيض - في الإحصاءات الموضوعية عن التكوين العنصرى للأهالى المحليين . فحيثما يكون السكان غير البيض هم أهالى البلاد - كما هو الحال في جنوب إفريقيا - فإن عددهم يطغى على الأقلية البيضاء المسيطرة . أما في البلاد التي يُستجاب إليها غير البيض على غير إرادتهم - كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية - فإن الأكرية البيضاء المسيطرة ، تطغى على الأقلية الغير البيضاء .

وفي الولايات المتحدة - وقت كتابة هذه السطور - لقي الاتجاه نحو تقوية الحاجز اللوى بحيث يتحوّل إلى تمييز طبقي على نحو ما عرفته الهند ؛ لقي مناهضة من إتجاه مضاد مستمد من روح المسيحية . وإذا كان من المتعذر - الآن - أن نرى ما إذا كان هذا الهجوم - المستمد من المسيحية - أملاً ضائعاً أو « بادرة للمستقبل » ؛ فإنه لبشير بالخير ، أن نرى روح الخلاص تفعل فعلها في الولايات المتحدة وفي الهند على السواء . ومصادقاً لذلك ؛ نجد الضمير المسيحى في قلوب الغالبية المسيطرة من البيض التي تمسكت فيما مضى بتحرير العبيد قد تحققت من أن العتق عن طريق التشريع وحده ، لا يكفي . كما نجد - في الناحية الأخرى - أن البروليتاريا الملوثة تُبدى - بنفس الروح - إمارات استجابة .

ولقد شاهدنا في قسم سابق من هذه الدراسة ؛ أن نفور البروليتاريا الداخلية ، هو أوضح ظواهر التحلل لأية حضارة . ونحن إذ نضع هذا أمام أبصارنا ؛ ماضون في البحث عن أية دلالة لهذا النفور . وهذه المصاحبة معاً ، في داخل المجتمع الغربى ؛ كما هو قائم في منتصف القرن العشرين :

ولقد دأبنا - باستخدام نفس المنهج - على أن نتمعم في بحث تلك

العناصر من البروليتاريا التي لا تمت بأصلها إلى أرومة أوربية ، ولكنها جُلبت داخل حدود المجتمع الغربي عن طريق التوسع الغربي الذي شمل العالم بأسره . على أنه لا حاجة إلى القول ؛ أنه يزال هناك ، ذلك الجزء الكبير من البروليتاريا الذي لا يتأق — من الناحية العنصرية — تميزه عن الأقلية المسيطرة . ونعني به ؛ هذه الغالبية من أهل الغرب رجالا ونساء ، الذين كان « كبار القوم » — الذين نشأوا في أحضان الأقلية الممتازة التي عرفها الغرب في القرن التاسع عشر — ينعنونهم بأسماء مختلفة مثل : « الطبقات العاملة » و « الطبقات الدنيا » و « للعامه » و « الجماهير » : بل إنهم قد يطلقون عليهم في سخريه لا ذاعة اسم « الجمهرة غير النقية » .

هنا ؛ تروعننا ضخامة المشكلة . ويجب أن تكنف بالقول بأنه في جميع الأقطار الغربية — وبصفة خاصة في أعظمها تقدما في الصناعة وأعلاها كعبا في إعتناق الأساليب العصرية — حدث خلال نصف القرن الأخير في كل مجالات الحياة ، تقدم حقيقي هائل نحو تحقيق العدالة الاجتماعية :

ولم تكن الثورة السياسية التي بوساطتها تحررت الهند من السلطان البريطاني ؛ أقل بهاء من الثورة الاجتماعية في بريطانيا ، حيث كانت القوة والثورة والفرص المتاحة — إلى عهد قريب — حكرا على أقلية ضئيلة متخمة بالامتيازات . وعن طريق هذه الثورة الاجتماعية ؛ استطاع ذلك البلد الغربي أن يتحوّل إلى جماعة حققت قدراً كبيراً من العدالة الاجتماعية على حساب التضحية بقدر ضئيل من الحرية الفردية . ولم يتخلف عن هذا التحول عند الجانبين ، سوى القليل النافه من شعور البغضاء .

وصفوة القول ؛ إن الاستعراض الآنف الذكر للوقائع الداحضة — أو المؤيدة — لترجيح القول بتردّي الحضارة الغربية في الكارثة بفعل حدوث انقسام داخل بروليتاريا داخلية فيها ؛ إن هذا الاستعراض يُشير لتيجتين محتملتين :

الأولى - أن القوى التي تعمل في سبيل المصالحة ، تبدو أقوى من القوى المناظرة لها التي كانت تعمل في المجتمع الهليني ، في مرحلة مناظرة من تاريخه .

الثانية - أن هذا الاختلاف - الذي هو في صالح الغرب - يبدو أنه يرجع - أساسا - إلى التأثير المستمر لروح مسيحية ، لم تفقد سيطرتها - بعد - على قلوب الرجال والنساء في الغرب ، وذلك رغما عن أن عقولهم قد تُعرض عن العقيدة التي تُرجت فيها حقائق المسيحية الثابتة إلى اللغة الفانية : لغة الفلسفة الهلينية الوثنية .

حقا ؛ إن المجتمع الهليني - موضوع المقارنة - كان مفتقرا بشكل واضح إلى تلك الحيوية الدافقة التي هي من سمات الدين الأسمي ؛ تلك الحيوية التي زوّدت بركة المجتمع الغربي بـ « يفغته » . وقد يكون من باب التخمين ؛ أن ثمة شيئا من العلاقة بين هذه المناعة الظاهرة للعيان التي يتمتع بها جوهر الروحانية المسيحية ، وبين جذب الأديان الأخرى التي أطّمت برأسها - إبان ذلك العصر - في أماكن مختلفة من أنحاء العالم الغربي .

ونستطيع أن نختم بجننا هذا بأن الشهادة المستخلصة من الأحداث السابقة في المجتمع الغربي لا تعتبر حاسمة في إيضاح مستقبل الحضارة الغربية .

## (٢) تجارب غربية فريدة

ما برحنا حتى الآن ؛ نتحرى في الحضارة الغربية خلال مرحلة عبورها التي دعوناها « ما بعد الحديثة » ، عناصر يمكن مقارنتها بنظائرها في تاريخ الحضارات الأخرى : بيد أن ثمة - كذلك - عناصر لا نظير لها في تاريخ الحضارات الأخرى .

ويطفر أمام أنظارنا مظهران تنفرد بهما الحضارة الغربية :

الأولى — المدى الذى بلغه الإنسان فى الغرب فى سيطرته على الطبيعة غير البشرية .

الثانى — السرعة المتزايدة للتغير الاجتماعى الذى حققته تلك السيطرة .

حقا ؛ كان الجنس البشرى سيّد الإبداع على الأرض منذ سلك طريق الارتقاء التكنولوجى : من مرحلة العصر الحجري الأدنى ، إلى مرحلة العصر الحجري الأعلى . ونعنى بذلك ؛ أنه منذ ذلك الوقت ، بلغ الإنسان مرتبة تكنولوجية لم يعد معها مستظاعا — سواء للطبيعة الجامدة أو أى مخلوق آخر غير بشرى — أن يستأصل الجنس البشرى ، أو حتى أن يعرقل تقدمه .

ومن ثمت ؛ لم يكن فى وسع أى كائن على الأرض أن يعترض طريق الإنسان أو يدفع به إلى الدمار ، اللهم إلا الإنسان نفسه . ذلك لأن الإنسان — كما رأينا — قد إنساق صوب الهلاك بفعله هو ؛ مصداقا لما رأيناه فى الأربع عشرة أو الخمس عشرة حضارة . وها هو يستبين له بوضوح — فى خاتمة المطاف — أنه بعد نجاحه فى تفجير القنبلة الذرية عام ١٩٤٥ ، قد بات يستحوز على درجة من السيطرة على الطبيعة الغير البشرية ؛ بحيث تعذر عليه بعد ذلك ، أن يتجنب تحدى الآفتين اللتين جلهما بنفسه على رأس العالم ؛ وذلك حين زود نفسه بنوع جديد من المجتمعات : فى شكل مجتمع لا يزال فى طور التحضر .

إن هاتين الآفتين التوأمين ، مظهران مختلفان لآفة واحدة هى : الحرب ؛ على أنه قد يكون من الملائم التمييز بينهما بإطلاق اسمين مختلفين عليهما :

الحرب كما تفهم عادة .

وحرب الطبقات .

وبعبارة أخرى ؛ الحرب الأفقية ، والحرب الرأسية .

وهذا موقف لم يُهَيأ الجنس البشري لمواجهة ؛ ولدراسة احتمالاته ؛  
عسانا أن نُعالج الأمر بتبسيط مهمتنا ، وذلك بتقسيم عملنا إلى مبحثين  
منفصلين :

الأول - التكنولوجيا والحرب والحكومة .

الثاني - التكنولوجيا وحرب الطبقات والعمالة .

## الفصل الثاني والأربعون

### التكنولوجيا والحرب والحكومة

#### (١) احتمالات حرب ثالثة

كان من نتائج الحربين العالميتين الأخيرتين ؛ أن الدول العظمى قد تناقص عددها من مجموعة من الدول ، يتفاوت عددها من حين إلى آخر . وضمت في نطاقها دولاً - كإيطاليا - أضفت عليها المجاملة البحتة ، لقب الدول العظمى ؛ على الرغم من أن كل امرئ يدرك عجزها عن القيام بالواجبات التي يتطلبها هذا المركز . ولقد تناقص عدد هذه الدول العظمى إلى دولتين عظيمتين فقط هما : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي .

فرض الاتحاد السوفيتي سلطانه على ألمانيا الشرقية . كما فرضه - كذلك - على معظم الدول التي تخلقت عن الإمبراطوريتين السابقتين : الهابسبرجية والعثمانية<sup>(١)</sup> . وهذه الدول ، سبق أن اجتاحتها الرايخ الثالث الوطني الاشتراكي في غضون الحرب العالمية الثانية ؛ والسبب الوحيد في أن ألمانيا الغربية وجمهورية النمسا ( التي أقيمت في فترة ما بين الحربين ) لم تلقيا مصير جيرانهما في الوقوع في قبضة الروس حتى عام ١٩٥٦ ، هو أن هذين البلدين وقعا - في الوقت نفسه - تحت حماية الولايات المتحدة وحليفاتها من دول غرب أوروبا .

حقاً ؛ بات واضحاً أن إستبدال إستقلال يصعب اندفاع عنه بحماية

---

(١) تألفت الإمبراطوريتان في أوروبا من دول البلقان جميعها ومن المجر والنمسا وتشيكوسلوفاكيا والجزء الغربي من بولندا . ( المترجم )



الولايات المتحدة - حتى ذلك الوقت - هو الضمان الوحيد ضد السيطرة الروسية (أو الصينية) التي تُنذر بأن تُصبح - على طول المدى - أمراً خطيراً لأية دولة في العالم .

ولقد ألفت الولايات المتحدة فترة طويلة أن هذا الدور في العالم الجديد .  
 وها هي تؤديه في العالم القديم . فإن مبدأ مونرو - منذ عقد المحالفة المقدسة<sup>(١)</sup> حتى الرايخ الثالث - قد عصم الدول التي تخلقت عن الإمبراطوريتين الإسبانية والبرتغالية في القارة الأمريكية ، من الوقوع بين براثن إحدى الدول الأوربية . لكن هذه الدول اللاتينية قد دفعت ثمن ذلك ، قبول زعامة الولايات المتحدة عوضاً عن الإدارة الاستعمارية الإسبانية أو البرتغالية . على أن الخيرين قلما يكونون قريين من القلوب ؛ فإن لم تتجرد أفعال الخير من شبهات الغرض تماماً ، فإنها تخرج عن نطاق الخير ، ويظالنا في المقام ؛ ما أصبحت عليه مشاعر الفرنسيين - مثلاً - إزاء الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٥ ، فإنها لا تختلف كثيراً عن المشاعر التي ما برح البرازيليون - مثلاً - يكتنونها للأمريكيين طوال المائة عام الماضية .

وأيا ما تكون الحال ؛ ففي عام ١٩٥٦ ، ألتى الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة - كلاهما - يجابه أحدهما الآخر باعتبارهما الدولتين العظيمتين الوحيدتين الباقيتين على سطح الأرض . وإذا كان وجود دولتين في أي توازن دولي بين القوى يعتبر - في أحسن الحالات - عدداً يبعث على الحيرة ؛ فيجب أن لا يعزب عن البال أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كانتا - إذا قورنتا بألمانيا واليابان قبل عشرين عاماً - دولتين مكتظتين

(١) عهد وقعه عام ١٨١٦ قصر روسيا إسكندر الأول وإمبراطور النمسا وملك بروسيا . وتمهدوا فيه باتباع مبادئ المسيحية في الشؤون الداخلية والخارجية . وإنه وإن كانت الغاية الظاهرة منه المحافظة على السلم ، لكن رنا وأولئك الملوك - في الحقيقة - إلى الإبقاء على الأراض التي كانت قائمة في أوروبا وقتذاك . ( المترجم )

بالثراء في وسعهما توفير العمل السلمى في فلاحه أراضيهما ، لعشرات من السنين القادمة .

لكن أبان التاريخ للعيان ؛ أن الخوف المتبادل ، لا يقل أثراً — كمصدر للعدوان الحربى — عن الحرمان الاقتصادى . وحقاً ؛ لم يتهباً للشعبين الروسى والأمريكى أن يفهم كل منهما الآخر . ويبدو ذلك من إختلاف مزاجيهما : فإن التسليم المنتصف بالوداعة ، هو قوام مزاج الرجل الروسى العادى . بينما الممالل الصاخب ، قوام المزاج الأمريكى :

ولقد انعكس هذا الاختلاف في المزاج ، على موقف كل منهما تجاه الحكومة المستبدة :

فقد استسلم لها الروس ، باعتبارها قضاء محتوما . أما مريدو الشيوعية في روسيا ، فقد رأوا هناعتم الكاملة في المساواة النظرية التى ما انفكوا يخلطون بينها وبين الحرية ، خلطاً يثير العجب .

بينما تعلم الأمريكيون من واقع تاريخهم ، النظر إلى الحكومة المستبدة على أنها نظام أثم في وسع أى شعب خلعه بمحض رغبته . ورأى الأمريكيون هناعتم كلها<sup>(١)</sup> في الحرية الشخصية ، وخلطوا بينها وبين المساواة خلطاً عجيباً .

وهذه الفروق في المزاج والمبادئ ، جعلت من الصعب على هذين الشعبين أن يفهم كل منهما الآخر ويثق به . وهذا الارتياب ولد الخوف ، في وقت تبدلت فيه ساحة النزال التى يتخذها كل فريق ميداناً يهدد فيه الفريق الآخر ؛ تبدلت — بل تنكّرت معالمها — بفعل التقدم السريع الذى أصابته التكنولوجيا ، على نحو لم تعرفه البشرية من قبل . فكان أن تقلّصت أبعاد العالم — الذى كان يوماً فسيح الأرجاء — بحيث تعذر على المتنازعين

أن يتخذوا مواقعهم في ساحة النزال دون أن يقترب أحدهم من الآخر ويصطدم به .

وهكذا ؛ يبدو أن التنافس بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة على السلطان ، في هذا العالم الذي أصبح موحداً بفضل التقدم التكنولوجي الحديث ؛ قد تفصل فيه - على طول المدى - أصوات ثلاثة أرباع الجيل البشرى الذى يعيش في الوقت الحاضر . هذه الجيل الذى لا يزال - بعد انقضاء خمسة أو ستة آلاف سنة منذ فجر الحضارة - يعيش في نفس المستوى المادى من الحياة ، في العصر الحجري الحديث . إلا أنه غداً مُدركاً أن بلوغه مستوى من العيش ، قد أصبح أمراً ممكناً . فإن هذه الغالبية الناهضة التى ما انفكت حتى الآن مغمورة في ممارسة حقها في إختيار أى من أساليب الحياة السوفيتي أو الأمريكى ؛ يتوقع لها أن تختار أياً من هذين الأسلوبين ، يحقق لها آمالها الثورية .

ومع هذا ؛ فعلى الرغم من أن الكلمة الأخريرة قد تكون لهذه الغالبية من الجنس البشرى - من غير الغرب - التى عاشت مغمورة حتى اليوم ، إلا أنه يبدو من المحتمل أن الثقل الحاسم المرجح في ميزان القوة بين روسيا وأمريكا ، لن يأتي من هذه الأرباع الثلاثة من سكان العالم ، وإنما سيأتى - في المدى القصير - من هذا الربع الباقي من سكان العالم الذى تتركز فيه في الوقت الحاضر طاقت الحرب الصناعية في العالم ، والذي لا يزال يعيش في غربى أوروبا .

فإذا ما استخدمنا مصطلحات علم الجغرافيا ، نستطيع أن نقرر أن ثمة قارة واحدة قائمة الآن هى «أورافراسيا»<sup>(١)</sup> تحف بها - على البعد - جزيرتان ضخمتان هما أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية . وعلى مرمى البصر من هذا

(١) أورافراسيا : أوروبا / أفريقيا / آسيا . ( المترجم )

المنظر الأرضي ؛ تبدو روسيا وكأنهما القوة البرية ، على حين تبدو أمريكا وكأنها القوة البحرية . وهذا يماثل تماما ؛ دور الدولة البحرية الذى أدته بريطانيا فى الحروب الأوربية الإقليمية الطابع التى نشبت خلال الفترة الحديثة من التاريخ الغربى وقما قامت إسبانيا وفرنسا وألمانيا - على التوالى - بدور أعداء بريطانيا فى القارة .

وما برج الخطر البالغ يكتنف القسم الأوروبى الغربى من عالم ما بعد الحرب . لأنه رأس الجسر الذى تتخذة الدولة البحرية<sup>(١)</sup> لبلوغ القارة . فى سالف الأيام ؛ كانت الأراضى المنخفضة<sup>(٢)</sup> ميدان صراع « أوروبا الغربية » دارت فيه المعارك العنيفة بين دولها الإقليمية المتحاربة . ويبدو الآن ؛ كما أن أوروبا الغربية بأسرها ستودى - فى حالة قيام حرب عالمية أخرى - دور ميدان الصراع للعالم المتحضر بالحضارة الغربية . ولعل هذا التحول الذى أصاب الخارطة الاستراتيجية ، شىء من القصاص «الشاعرى» . بيد أن موقع أوروبا الغربية كـ «ميدان صراع» ما كان ليصلد الأوربيين عن سكونة منذ عام ١٩٤٦ ، كما لم يصد الفلمنك عن سكنى الأراضى المنخفضة منذ الأيام السابقة لنهاية القرن الخامس عشر .

ولم يكن فى مقدور التقدم التكنولوجى أن يُضعف سلطان المشاء الإنسانية على مشغون البشر . إذ أن النزعة الحربية لا تمت إلى التكنولوجيا ، بل هى من شئون البشر . فهى - أى النزعة الحربية - رغبة فى القتال . والحروب ميثرة ؛ حينما تُشن فى مكان آخر وبين أقوام آخرين ؛ ولعل أكبرها إثارة ، تلك تندلع ثم تخمد سريعا .

(١) أى بريطانيا قديما والولايات المتحدة حديثا . ( المترجم )

(٢) الأراضى المنخفضة ( أو الفلاندرز ) : تشمل فى الوقت الحاضر الشمال الغربى لبلجيكا وقسم من جنوب هولندا والقسم الشمالى من فرنسا . وما يرحت مسرحا للمعارك والحروب ، وآخرها معركة الفلاندرز التى وقعت فى ١٠ مايو - ٢ يونيو عام ١٩٤٠ ، والى انتصرت فيها الجيوش الألمانية انتصارا مبينا ، انبى عليه استيلاؤها على بلجيكا وهولندا وفرنسا . ( المترجم )

وقد إعتاد المؤرخون لجميع الحضارات ، إعتبار الحروب أشد الأحداث التي تناولها كتاباتهم جذبا للاهتمام . وكانت أكثر الجيوش في الماضي قليلة العدد نسبيا ، ووقودها أناس يوثرون القتال على غيره من الحرف . إلا أن فنون الحرب الحديثة في الغرب ، قد أصبحت تشكّل حدثا خطيرا ؛ منذ «النفير العام» الذي أطلقتته الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢ . وما فتئت فنون الحرب في المستقبل تُنذر بخطورة أشد .

ومن الظواهر الجديرة بالإعتبار ؛ أن الحرب أصبحت تميل الآن إلى القضاء على النزعة العسكرية في الشعوب التي تُكابدها . كما لا يخفى أن إرادة الشعوب قد غدت قوة لامناص للحكومات المستبدة من الإذعان لها في نهاية الأمر . ويظالنا في هذا الشأن مثال فرنسا التي عانت في الحرب العالمية الأولى أشد الأهوال ، فكان أن تقاعست عن الصمود للحرب الثانية . ووفّقت هتلر في التأثير على الألمان لدفعهم إلى خوض غمار حرب جديدة . بيد أنه بدا في عام ١٩٥٦ شك عظيم فيما إذا كان في قدرة هتلر آخر — إن كان ثمة بالمرّة مجال لظهور هتلر آخر — أن يدفع العالم إلى الحرب مرة أخرى .

وإن من العبارات ذات المغزى ؛ تلك الصفة التقليدية التي يخضعها الديكتاتوريون على أنفسهم بأنهم «محبو السلام» . ولو كان نابليون قد امتد به العمر إلى عصر الحرب الذرية لعدل عن ترديد العبارة التي ما فتئ — وهو في منفاه بسانت هيلانه — يصف بها الحرب بأنها «حرفة جميلة» .

على أن هذه الآراء لا تصدق — في الدرجة الأولى — إلا على الشعوب التي تقدمت في مجال الحضارة والتي عركتها حروب القرن العشرين . وفي آسيا اتخذ استسلام الشعوب التقليدي منذ الأزل ، الشكل السياسي للرضوخ السلبي لحكومات جائرة . وكان لا بد لعملية الاقتباس الثقافي من الحضارة الغربية ؛ أن تقطع شوطا طويلا يجاوز مجرد إقتباس الفن العسكري الغربي ، قبل أن يبدأ الجندی الفلاح الأسبوي التفكير في مناقشة أو تحدى الأوامر

التي تطلب إليه التضحية بحياته ، حتى في حروب عدوانية لا تعنى شيئاً بالنسبة إليه شخصياً .

فإلى أى مدى يتأتى - في منتصف القرن العشرين - لحكومات أسيوية أن نذهب إليه في إستغلال نزعة الاستسلام المتصلة في رعاياها ، لتحقيق أغراض عسكرية ؟

لعل الأمر يبدو أمام أهل الغرب ، كما لو أن الجندي الروسي أو الصيني الفلاح ، قد أجاز لحكومته التصرف المطلق بحياته . بيد أن التاريخ قد دلل على وجود حد لا تجرؤ أية حكومة صينية أو روسية على تجاوزه دون التعرض للقصاص . وبدلل على صحة هذا القول أن الحكومات الصينية المختلفة ابتداء من تسين Tsin حتى حكومة الكيومنتانج<sup>(١)</sup> ؛ التي تهورت بدفع الأمور بعض الشيء أكثر مما ينبغي ، فدفعت ثمن تهورها ، كراهية الشعب لحكمتها .

وتكرر القصة نفسها في التاريخ الروسي كذلك .

فإن القيصرية التي ألهمتها الحكمة أن تُسلم للشعب الروسي بإصلاحات الستينات من القرن التاسع عشر ترضية له عن أوجاعه في القرم<sup>(٢)</sup> ؛ أن هذه القيصرية قد دفعت حياتها ثمناً لعنادها في إفتداء المزايم العسكرية التي منيت بها روسيا مع اليابان عام ١٩٠٤ - ٥ ؛ التي دفعت إلى قيام الثورة الروسية العظيمة عام ١٩٠٥ ، ثم هزيمتها في الحرب العالمية الأولى التي دفعت إلى الوجود ثورة ١٩١٧ المزوجة<sup>(٣)</sup> .

(١) حزب تشانج كاي تشك في الوقت الحاضر . ويقتصر حكمه الآن على جزيرة فورموزا . ( المترجم )

(٢) نشبت حرب القرم عام ١٨٥٤ بين روسيا القيصرية من جانب وتركيا وإنجلترا وفرنسا وحلفائهم من جانب آخر دفعا للأطاع الروسية عن تركيا . ( المترجم )

(٣) اندلعت في روسيا عام ١٩١٧ ثورتان : أسفرت الأولى عن نخلع القيصرية وتولية حكومة كيرنسكى التي كانت تتجه إلى إقامة الديمقراطية الغربية ، والأخرى بولشفية وأسفرت عن تولي لينين الحكم . ( المترجم )

وبالأحرى ؛ ثمة حدود تنهار عندها معنويات روسيا أو أى بلد زراعى آخر . على أنه يرجح القول بأن حكومة الاتحاد السوفيتى تفضل مجابهة أهوال حرب مع الولايات المتحدة على أن تقدم لها تنازلات سياسية تبلغ بالروس - فى نظرهم - مبلغ الخضوع للتفوق الأمريكى .

فإن كان يُحتمل - والحالة هذه - توافر ظروف - تُمكن الاتحاد السوفيتى من نخوض غمار حرب من نفس مستواه : فهل ستقف الولايات المتحدة نفس الموقف ؟

الرد بالإيجاب ؛ مصداقا لما بدت عليه الأحوال العالمية عام ١٩٥٦ . إذ ما برح الشعب الأمريكى منذ إقامة أول مستعمرة من مستعمرات الثلاث عشرة<sup>(١)</sup> وأقدمها ، فى طليعة الشعوب التى تصدّف عن النزعة الحربية وتمقتها . إلا أنه يعتبر فى نفس الوقت من أصلح الشعوب فى العالم الغربى لخوض غمارها . ونعنى بعزوف الشعب الأمريكى عن الحرب ؛ كراهية أفراده الخضوع للتنظيم العسكرى ، ولأنهم لا يطمحون مثل الغالين<sup>(٢)</sup> فى الظفر لبلادهم بمجد حربي ، إكراما للمجد ذاته . وتردّ صلاحية الأمريكين كجنود : إلى أنه حتى غلق الحدود حوالى عام ١٨٩٠ ، كانت ثمة دائما فرقة من جنود الحدود ذات خبرة بحمل السلاح واستعماله بمطلق حربتها الخاصة سعيا لتحقيق مصالحها الذاتية . وهذا وضع كان - منذ وقت طويل - مجهولا فى القسم الأكبر من أوروبا الغربية .

وإن هنود أمريكا الشمالية ليعترفون حقا بتلك الروح النزاعية إلى القتال ، منذ هبوط الرجل الأبيض إلى الشواطئ الأمريكية قادمًا من الجزائر البريطانية . وهى النزعة التى اتسمت بها - خاصة - الأجيال العشرة من أمريكى الحدود ، كما يعترف بها الفرنسيون منافسو المستعمرين الإنجليز خلال القرن الثامن عشر . وقد عرفها فى القرن التاسع عشر ، الضحايا المكسيكيون .

(١) كانت هذه المستعمرات هى نواة الولايات المتحدة الأمريكية . ( المترجم )

(٢) أى جنس الفرنسيين . ( المترجم )

ومن الناحية الأخرى ؛ تؤكدها المصادمات التي نشبت بين رجال الحدود الأنجليز والأمريكين ومنافسيهم ، للاستحواز على أمريكا الشمالية : وما فتئ الشعب الأمريكي بأسره - لا رجال الحدود فحسب - مستعداً لإخضاع نفسه للنظام الحربى الصارم ، على شريطة أن يكون يخضوعه عارضا إستثنائيا ؛ ولولا هذا الاستعداد ؛ ما كان لية يئض لروح الإقدام فى رجال الحدود ، أن تتغلب على خصوم يقفون معهم - ثقافيا - على قدم المساواة .

ولقد تكشفت صفات الجنديّة الكامنة فى الشعب الأمريكى - فى مجموعه - لخصومه الألمان إبان الحرب بين الألمان والأمريكين ، أعوام ، ١٨/١٩١٧ و ٤٥/١٩٤١ . على أن أشد مظاهر الإقدام والاحتمال والنظام والقيادة عند الأمريكين تأثراً فى النفس ؛ تطالعنا فى حرب انتظم فى معمعانها أمريكيون ضد الأمريكين - فإن حرب ٥/١٨٦١ بين الشمال والجنوب<sup>(١)</sup> ؛ كانت أطول الحروب التي نشبت فى العالم الغربى منذ سقوط نابليون حتى اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى ، كما كانت أصعبها مراسا وأفظعها خسائر فى الضحايا ؛ لكنها كانت - كذلك - أحفلها بالتجديدات التكنولوجية ؛

وبالإضافة إلى ما قدمناه ؛ لم تؤثر الحربان العالميتان الأخيرتان فى الولايات المتحدة تأثراً سيكولوجيا يماثل تأثرهما فى معنويات الأوروبيين ؛ فإذا كانت هاتان الحربان العالميتان قد دمرتا خلال عمر واحد - فى فترة ما تزال عالقة بالأذهان - ألمانيا وضحايا ألمانيا من الروس وأهالى غرب أوروبا ؛ تدميراً يماثل فى قسوته ، تلك القسوة التي دمّرت بها الحرب الأهلية الأمريكية ولايات الجنوب ؛ إلا أن الحربين العالميتين قد خلفتا الولايات المتحدة فى الواقع ، بمنأى عن الأضرار .

وبالحرى ؛ لم يكن ثمة من يشك - فى عام ١٩٥٦ - فى أن الشعب

(١) كان الاتحاد يمثل الولايات الشمالية ، والتحالف ولايات الجنوب . ( المترجم )



الأمريكي كان مستعدا لمواجهة أهوال حرب مع الاتحاد السوفيتي ، مؤثرا ذلك على أن يقدم له أية تنازلات تبلغ في أعين الأمريكيين مبلغ الخضوع للتفوق الروسي .

بيد أن هذا الشاهد التاريخي الآنف الذكر الذي يوحى باحتمال وجود إرادة للحرب - في ظروف معينة - عند الشعبين الأمريكي والروسي ؛ هذا الشاهد التاريخي والتأثير السيكولوجي لهذه التطورات ، ينبغي أن يكون موضع التقدير في ضوء تطورات الحرب الذرية . وهو تأثير لن يتخلف كثيراً في ظروف منتصف القرن العشرين عن التطورات التكنولوجية ذاتها ، فإن ملاقاتة الموت في سبيل وطن أو قضية ؛ يصبح تضحية لا مبرر لها وفعلاً من أفعال البطولة لا معنى له ، إذا لتضح - بالتأكيد - أن البلد بأسره سيفنى - بما في ذلك هذا الوطني الغيور وهذه القضية وأتصارها - في نكبة واحدة شاملة .

### ( ٣ ) نحو نظام عالمي للمستقبل

لم يجل عام ١٩٥٥ حتى كان القضاء على الحروب حتماً مقضياً ؛ لكن ؛ لن يتأتى القضاء عليها ، إلا إذا أمكن تركيز الرقابة على الطاقة الذرية في يد سلطة سياسية واحدة . وترتب على هذا الاحتكار للسيطرة على السلاح الرئيسي الذي أنتجه العصر ، أن تقوم هذه السلطة السياسية بدور حكومة عالمية . وفي الظروف التي كانت قائمة في عام ١٩٥٥ ، كان لا مندوحة أن يكون المقر الفعلي لهذه السلطة السياسية : واشنطن :

بيد أنه ؛ لا الولايات المتحدة - ولا الاتحاد السوفيتي - كانت مستعدة لأن تضع نفسها تحت رحمة الأخرى .

وفي هذا المأزق الحرج ؛ كان الأسلوب التقليدي - لا محالة - لتحقيق أقل قدر من المقاومة السيكولوجية ، هو اللجوء إلى حمة التقاتل : وقد رأينا

كيف أن « الضربة القاضية » كانت الوسيلة الوحشية التي بواسطتها مرت الحضارات المنهارة - الواحدة تلو الأخرى - من مرحلة عصر الاضطراب إلى مرحلة الدولة العالمية . إلا أنه في حالتنا هذه ؛ قد تصرع « الضربة القاضية » لا العدو وحده ، ولكنها قد تصرع أيضاً : المنتصر ، والحكم ، وحلقة الملائكة ، والنظارة ؛ جميعاً .

وفي هذه الظروف ؛ تتعلق آمال البشرية في تأمين مستقبلها ، باحتمال تجرُّل حكومتى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وشعبهما بالصبر الذى يعينهما على المضى في السياسة التي يُطلق عليها في الوقت الحاضر : التعايش السلمى .

إن أعظم خطر يُهدد رخاء الجنس البشرى - بل وجوده نفسه - ليس إختراع الأسلحة النووية . ولكنه إنبعاث حالة نفسية في نفوس الناس تشبه تلك التي سادت العالم الغربى في مطلع عهده الحديث ، طوال مائة عام تبدأ بنشوب الحروب الدينية حوالى سنة ١٥٦٠ م . ومصداقاً لذلك ؛ فرى في مستهل النصف الثانى من القرن العشرين ؛ رأسمالين وشيوعيين ، يشعرون - مثلما شعر الكاثوليك والبروتستانت من قبل - بأن من الأمور المستحيلة والتي لا يمكن قبولها ، أن يرضوا بأن يتخلوا عن الولاء لمجتمع موزع - لوقت غير محلود - بين : عقيدة صادقة (هى عقيدتهم) وإلحاد ممقوت (هو عقيدة خصومهم) .

يبد أن تاريخ الحروب الدينية في الغرب ، حمل بين طياته الدليل على إستحالة إستخدام قوة السلاح في تسوية القضايا الروحية . كما أن تملك البشرية للأسلحة النووية ؛ يقدم نذيراً بأن السبيل لن يكون مهيئاً للرأسمالين والشيرعيين - على السواء - ليدركوا نفاة الحرب الدينية ، بذلك الأسلوب التجريبي الذى عُرِف عن تلك المحنة التي طال أمدها وعانها الكاثوليك والبروتستانت في عصر كانت فيه أسوأ أسلحة الإنسان : السيوف والحراب والبنادق التي تُحشى من فوهتها .

ومن ثم ؛ لا مبرر للتفاوت القاطع - كما لا مبرر للتشاؤم الجازم - في ظروف هذه حالها من التقلقل والغموض . وليس من السهل للجبل من البشر الذى يعيش اليوم ؛ سوى أن يوطن النفس - قدر الاستطاعة - على إدراك أنه يواجه قضايا يتوقف عليها كيانه نفسه ، وأنه يتعذر التخمين بما يحبته له القدر :

ويطالعنا في هذا المقام حادثة طريفة ، تُحتمل حال أبناء البشرية في عام ١٩٥٥<sup>(١)</sup> ، الذين يجدون أنفسهم كما لو كانوا دواماً هائمين على سطح فلك نوح ؛ ففي صبيحة يوم ٧ أغسطس سنة ١٩٤٧ المشؤوم وجد « تور هيرادل Thor Heyerdahl »<sup>(٢)</sup> نفسه ورفاقه الفايكنج الخمسة أن التيار المتدفق غربا الذى سبق أن حمل الطوف « كون تيكى Kon-Tiki » مسافة ٤٣٠٠ ميل عبر المحيط الهادى ، يحملها الآن تجاه صخور جزيرة « راروتونجا Raarotonga »<sup>(٣)</sup> . ووراء خط أمواج الشاطئ الصخرى التى تتكسر على هذا الحاجز ؛ كان فى وسع الملاحين المقترين من الجزيرة ، أن يتبينوا أشجار النخيل الشبيهة بالريش . وهم قد أدركوا أن هذا النخيل ، يزيّن جزائر شاعرية يحتويها بحر ساكن . على الشعف<sup>(٤)</sup> القاصب الزبد ، يمر بينها وبين هذا الملجأ الأمين ، فى خط يبدأ من الأفق وينتهى بالأفق<sup>(٥)</sup> . ولا يهيم مجرى التيار والريح للمسافرين فرصة الطواف بجزراً حول

(١) وقت كتابة هذا الفصل من كتابه . ( المترجم )

(٢) كاتب أمريكى . ويشبه المؤلف موقف هذا الكتاب ورفاقه - فى قصته - بما كان

يعاينه الفايكنج ( سكان اسكندنافيا ) فى رحلاتهم البحرية . ( المترجم )

(٣) مجموعة من الجزائر الصغيرة التى تتكون منها جزائر كوك فى المحيط الهادى . وتقع

هذه المجموعة بين خطى عرض ١٨ و ٢٢ جنوبا وخطى طول ١٤٧ و ١٦٣ غربا .

( المترجم )

(٤) الشَّعْب : صخور قريبة من سطح الماء . ( المترجم )

(٥) Heyerdahl, Ther : Kon-tiki (Chicago 1950) .

الجزر : إذ لا مناص لهم من مكابدة محنة قُدّر عليهم مكاببتها : ولأنهم -  
 رغما عما قد يدور في أذهانهم عن الاحتمالات التي تنتظر من يقع في هذا  
 المأزق من المسافرين - ما كان لهم أن يجزروا أى احتمال منها ، يُقدّر أن  
 تنتهى إليه مغامرتهم .

فلو قُدّر للطوف أن يتحطم في خضم الأمواج العاتية ؛ لتمزق البحارة  
 إربا على حافات الشُعْب المرجانية المدببة كالسكين ؛ إلا إذا دهمهم الموت  
 السريع غرقا ، فأنقذهم من تلك الميته الأشد إبلاما .

أما إذا تماسك الطوف ونجح ملاحوه في التشبُّث به إلى أن تهزمهم  
 الأمواج العاتية فتلقى بالطوف على الشُعْب المرتفعة الخافة ؛ عندئذ يصبح  
 في قدرة الملاحين - بعد تحطم طوفهم - السباحة في البحر الساكن ،  
 والوصول أحياء إلى إحدى الجزائر التي يتوجَّها النخيل .

أما إذا اتفق ميعاد وصول الطوف إلى الشُعْب مع إحدى حركات المدِّ  
 العالية التي تغمر الشُعْب في أوقات منتظمة إلى عمق يدفع الأمواج العاتية إلى  
 الانحسار ؛ عندئذ قد تزيج « كون تيكي » الموت عن كاهلها ، فتسلك  
 طريقها في الماء الصافي سليمة لا يمسه ضرر .

أما عن واقع الحال ؛ فقد فاض بالفعل مدِّ عال عمل على رفع هيكل  
 السفينة « كون تيكي » المهشم بعيداً عن الشُعْب ، وألقى به في منطقة  
 البحر الهادئ ؛ بعد انقضاء بضعة أعوام على إلقاء أمواج الشاطئ الصخرى  
 لهيكل السفينة على صخور مرجانية مدببة قاحلة . على أنه لم يكل في وسع أى  
 رجل في صبيحة ٧ أغسطس سنة ١٩٤٧ على سطح « كون تيكي » ، أن  
 يقرر أيا من الاحتمالات السابقة يكون مصيره .

وبعد ؛ فإن تجربة هؤلاء الملاحين السكندنافيين الستة خلال ذلك  
 اليوم ، تُشبه كثيراً ، المحنة التي كانت تنتظر البشرية ، في مستهل النصف  
 الثاني من القرن العشرين .

إن فُلك الحضارة الذى مضى يشقّ عباب التاريخ خمسة أو ستة آلاف سنة ، أخذ يندفع نحو شُعْب صحور يعجز بحارتها عن الطّواف حولها . وإن هذا الخطر الذى ينتظرهم - والذى لا معدى عنه - مائل فى الانتقال - الخفوف بالخطر - من عالم منقسم إلى منطقة نفوذ أمريكية وأخرى روسية ، إلى عالم موحد تحت سيطرة سلطة سياسية واحدة ؛ ينبغى عليها - فى عصر الأسلحة الذرية - أن تستأصل عاجلاً أم آجلاً ، بطريقة أو بأخرى ، هذا الانقسام الحالى فى السلطة السياسية .

فهل يتم الانتقال سلمياً ، أو يتم بحدوث كارثة ؟

فإن تم بكارثة ؛ فهل تكون شاملة ، تستعصى على العلاج ، أو تكون مجرد كارثة جزئية تخلف وراءها عناصر تُحقق - على مدى الأيام - البرء والشفاء ، بعد معاناة مرحلة من الألم والشقاء .

وما كان لأحد - حتى كتابة هذه الكلمات - أن يستبق الأحداث فيعلم - مقدماً - نتيجة المحنة التى يبدو للعيان أن العالم سائر إليها ؛

ومهما يكن من أمر ؛ فقد يكون فى وسع المراقب أن يسمعن النظر فيما تتمخض عنه الأحداث ، دون انتظار للحكمة التى تُستخلص - فى يسر وسهولة - بعد وقوع الكارثة ؛ طالما حصر تفكيره بشأن مصير التنظيم العالمى فى العناصر الضرورية لقيام حكومة عالمية : عناصر تشارك فى صفاتها كلا من الحكومتين نصف العالميتين ، اللتين تبلورتا - على التوالى - حول الولايات المتحدة وحول الاتحاد السوفيتى .

فإذا بحثنا مسألة قدرة التكنولوجيا على تيسير سبل المواصلات ، ألفينا أن قيام حكومة عالمية ، قد غدا فرضاً قابلاً - تماماً - للتحقيق .

أما إذا انتقلنا - صعوداً أو هبوطاً - من الصعيد التكنولوجى إلى صعيد الطبيعة البشرية ؛ ألفينا الفردوس الأرضى الذى أقامه حذق الإنسان

الصانع<sup>(١)</sup> في مهارة فائقة ، قد أحالته ضلالة الإنسان السياسي<sup>(٢)</sup> إلى جنة للحمقى . فإن « برلمان الإنسان » الذى بدأ أن الشاعر تينسون Tennyson<sup>(٣)</sup> تبدأ بمولده مع اختراع الطائرة تقريباً ، ظهر الآن إلى الوجود يحمل إسماً أكثر جوداً هو « الأمم المتحدة » .

وإذا كانت الأمم المتحدة لم تكن من العجز بما أكده نقادها أحياناً ؛ فقد ظهر بوضوح ، عجزها عن خلق حكومة عالمية .

إن الحقائق الماثلة في توزيع القوى : لم تنعكس في دستور المنظمة السخيف القائم على مبدأ أن لكل حكومة واحدة ، صوت واحد . ولم تجد - حينئذ - من وسيلة للتوفيق بين مساواة خيالية وحقائق الحياة القاسية ، خيراً من أن تمنح حق الاعتراض ( الفيتو ) لدول خمس عظمى ، انكشفت إحداها منذ ذلك الحين : فبعد أن كانت الصين ، غدت فورموزا ؛ بينما حُرِّم هذا الحق ، الأقران ، ( الرسمىون ) لهذه الدول العظمى .

وخير ما يمكن أن يتوقع للأمم المتحدة ، تطورها من منبر لإلقاء الخطب وإثارة النقاش ، إلى إتحاد بين دولها . على أن ثمة إختلافاً هائلاً بين إتحاد من دول مستقلة واتحاد يجمع الشعوب في حكومة مركزية تطلب من كل مواطن - في هذا الإتحاد - أن يحول ولاه الشخصى لها ، فتلقاه منه . على أن من المعروف أن تاريخ النظم السياسية لم يُسجَل قط أنه كان في الإمكان اجتياز تلك الهوة ، إلا على يد حركة ثورية . وعلى هذا ؛ فليس من المحتمل أن تصح الأمم المتحدة نواة التنظيم العالمى الذى تنبث عنه الحكومة العالمية العتيدة ، في نهاية المطاف . لكن من المحتمل أن يحدث هذا ؛ لا عن

. Homo farber ( ١ )

. Homo politicus ( ٢ )

( ٣ ) شاعر إنجليزى ( ١٨٢٩ - ٩٢ ) وكان يمجّد نظام البرلمان الإنجليزى .

( المترجم )

طريق تطور الأمم المتحدة ، ولكن عن طريق تطور أحد نظامين سياسيين قائمين أعرق منها وأشد مراسهما : حكومة الولايات المتحدة أو حكومة الاتحاد السوفيتى .

وإذا قُيِّض للجيل من البشر الذى يعيش فى وقتنا الحاضر ، أن يكون حراً فى إختيار إحداهما ؛ فإن أى باحث غربى ، لا يشك بالمرّة فى أن الجمهرة الساحقة من جميع الرجال والنساء الأحياء ذوى الأهلية لتكوين أى رأى فى هذه القضية ؛ سيؤثرون أن يكونوا رعايا للولايات المتحدة الأمريكية ، على أن يكونوا رعايا للاتحاد السوفيتى . فإن المزاي التى تجعل من الولايات المتحدة موضع إيثار دون منازع ، ترجح تماماً سيف الشيوعية الروسية المصلّت .

والميزة الأساسية التى تتمتع بها أمريكا فى أعين رعاياها الحاليين والمحتملين مستقبلاً ، هى إحجامها الواضح الصادق عن الانسياق وراء تأدية دور الحكومة العالمية .

فإن جانباً لا يستهان به من جيل المواطنين الأمريكين الحاليين وآبائهم من غير المهاجرين ، قد اضطروا إلى اقتلاع جذور حياتهم من العالم القديم ليغرسوها فى العالم الجديد ، ويبدءوا حياة جديدة . وقد دفعهم إلى هذا ؛ توهمهم إلى تخليص أنفسهم من شواغل القارة ، بعد أن نفضوا - بشكل ظاهر - تراها عن أقدامهم . وإن وقدة الأمل التى جاشت فى صدورهم وحلتهم على الانسحاب من شواغل حياتهم الأولى ، لاتقل حدة عن الأسى الذى يحسّ به الجيل الحالى من الأمريكين ، حين يضطرون إلى العودة إلى اهتمام بشواغل العالم القديم . ولقد جاء هذا الإضطرار - كما رأينا - نتيجة لتلاشى المسافات ؛ تلاشياً جعل العالمين القديم والجديد عالماً واحداً لا يتجزأ . بيد أنه رغماً عن أن الاعتراف بأن الأمريكين مضطرون إلى

العودة للاهتمام بشواغل العالم القديم يزداد وضوحا كل يوم ، فإن ذلك لم يخفف من نفور الأمريكيين من قبول هذا الانسحاق .

والميزة الثانية التي يتمتع بها الأمريكيون ، تتجلى في سخائهم .

فإن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي — كليهما — دولتان مفعمتان بالموارد . على أن نظمها الاجتماعية والاقتصادية ليست متماثلة ؛ إلا من حيث سيطرة كل منهما على موارد ضخمة غير مستثمرة . بيد أن روسيا — عكس أمريكا — قد شرعت بالكاد في استثمار إمكاناتها . كما أن التنمية التي قامت بها ودفعت ثمنها قدراً ضخماً من الجهد والمكابد البشرية طوال الاثنى عشرة سنة التي سبقت مباشرة هجوم الألمان عليها عام ١٩٤١ ؛ هذه التنمية قد أنزل بها الغزو الألماني ضرراً فادحاً . إلا أن الروس بعد الحرب ؛ وجدوا أنفسهم في الجانب الظافر . لكنهم راحوا يعرضون أنفسهم عما أنزله الألمان من تدمير لمنشآتهم الصناعية ، بالاستيلاء على المعدات الصناعية ونقلها إلى بلادهم . ولم يقتصر هذا الإجراء على ألمانيا التي اعتبرت مسؤولة عن ويلات الحرب ، بل تعداه إلى بلاد شرق أوروبا ووسطها التي ادعى الروس أنهم جاءوا لتحريرها من النازيين . كما تجاوزه إلى المقاطعات الصينية في منشوريا التي ادعوا أنهم وفدوا لتخليصها من ربة اليابانيين .

حقاً ؛ إن اتجاه الروس في هذا الشأن مناقض تماما لسياسة التعمير الأمريكية بعد الحرب . وهي سياسة رسمها مشروع مارشال وغيره من المشروعات الأمريكية التي نُفِدت في عدد من البلاد التي قلبت الحرب أوضاعها . فكان أن استقامت أمورها مرة أخرى ، بفضل أموال المعونات التي وافق الكونجرس في واشنطن على بذلها — عن طيب خاطر — من دافعي الضرائب الأمريكيين الذين أخذت من جيوبهم هذه الأموال ؛ وكان المتبع في الماضي — عادة — أن تأخذ الدول الكبرى المنتصرة ، لا أن تُعطي .



ولم تُظهر سياسة الاتحاد السوفييتي تحولا عن هذه العادة السيئة<sup>(١)</sup> . لقد وضع مشروع مارشال قاعدة جديدة لامثيل لها في التاريخ : وقد يقال بأن هذه السياسة السخية في صالح أمريكا من وجهة النظر الواعية البعيدة المدى ، بيد أن الأفعال الطيبة لا تفقد شيئا من طيها ، إذا كانت - في الوقت نفسه - أفعالا أملتها الحكمة .

ومع هذا ؛ فإن مواطني بلاد غربي أوروبا ، يقضّ مضاجعهم في الوقت الحاضر ، الخوف من أن تتخذ أمريكا قرارا - قد لا تشارك فيه شعوب أوروبا الغربية بالرأى - من شأنه أن يجلب الأسلحة النووية الروسية على رؤوسهم كنتيجة - غير مقصودة - لقيام أمريكا بعمل رادع رداً على تحرّش الروس . وعلى الرغم من أن الدول التي تسير في فلك الولايات المتحدة الأمريكية تتمتع في معظم الأحيان بحرية تصرف تحسد عليها - وهي حرية ينكرها الاتحاد السوفييتي تماماً على الدول التي تسير في فلكه -<sup>(٢)</sup> فإن هذه الدول التابعة - جميعاً - سواءً من حيث عجزها عن مواجهة هذه الأمور التي تمسّ كياناتها نفسها ؛ حياة أو موتاً .

ويذكرنا هذا ؛ بالخطاب الرنان الذي أذاعه وزير للخارجية الأمريكية - ريتشارد أولني - في عام ١٨٩٥ ، بمناسبة النزاع الإنجليزي الأمريكي حول الحدود بين جيانا البريطانية وفنزويلا ، وهو خطاب جعل له ذكراً خالداً ، قال :

« إن للولايات المتحدة اليوم - من الناحية العملية - السلطان على هذه

(١) شرع الاتحاد السوفييتي بعد وفاة ستالين في بذل المعونات والمساعدات الاقتصادية والفنية إلى كثير من الدول النامية . ويظهر في هذا الشأن سخاءٌ عظيم . وأقرب مثال يطالعنا في هذا المقام تماونه الصادق معنا في تنفيذ مشروع السد العالي العظيم . ( المترجم )

(٢) تغير وضع الدول الاشتراكية الأوروبية عما سبق أن قرره الأستاذ المؤلف عام ١٩٥٥ ، إذ أصبحت تلك الدول تمتلك حرية أعظم في تصرفاتها الخارجية والداخلية . ( المترجم )

القارة . وإن حكمها قانون مفروض على الرعايا القاطنين في نطاق سلطانها ، لماذا ؟ إنه لا يعزى إلى مجرد الصداقة الخالصة أو حسن النية ، إنه ليس مجرد تقدير لسمو خلقها كدولة متحضرة ، إنه لا يعزى لما تتميز به - في ثبات - معاملات الولايات المتحدة من حكمة وعدل واستقامة : ولكن هذا السلطان الذي يتمتع به الولايات المتحدة يرجع إلى مواردها التي لا حد لها ، يعززها موقعها المنزحل - بالإضافة إلى البواعث السابقة - الأمر الذي جعل الولايات المتحدة سيدة الموقف - فعلا - وأبعد من أن تنالها أية دولة عظمى أو الدول العظمى مجتمعة .

وهذا القول المأثور : لم يفقد شيئاً من قوته إذ يطبق في مجال للزعامة أوسع مدى من مجال أمريكا اللاتينية وحدها . وإذا كان الفرد من غير الأمريكيين يستسلم للحقيقة القائلة بأن السيط الأمريكية خير من العقارب الروسية ؛ فلقد « يتاح للفيلسوف » ( باستخدام عبارة المؤرخ جيبون ) أن يوسع مجاله الذهني ، فيكشف أن إحتكار دولة عظمى وقوية ، تقرير وتنفيذ السياسات التي تتوقف عليها حياة ومصائر الشعوب الدائرة في فلكها ؛ إن هذا الإحتكار يحمل بين طياته مشكلة دستورية لا يحلها إلا صورة من صور الاتحاد الفيدرالي . ولا ينتظر أن تتم تسوية القضايا الدستورية المترتبة على قيام تنظيم يعلو على النظم القومية في سرعة وسهولة .

على أنه مما يبشر بالخير ؛ أن الولايات المتحدة قد غدت ملتزمة فعلا بحكم تاريخها نفسه - بقبول مبدأ الاتحاد الفدرالي .

## الفصل الثالث والأربعون

### التكنولوجية والصراع الطبقي والعمالة

#### ( ١ ) طبيعة المشكلة

إذا صدق القول بأن التأثير الذي تمارسه التكنولوجيا الغربية ذات القدرة الفائقة - على نحو لم يسبق من قبل - على مجتمع عالمي آخذ بأسباب الحضارة الغربية لا يزال موزعا بين طبقات منفصلة تتباين تباينا كبيرا في مستوى معيشتها ؛ إن هذا التأثير قد أصبح يجابه وارثي الحضارة الغربية بمشكلة عمالقة ، تناظر مشكلة « الحكومة » التي سبقت مناقشتها في الفصل السابق . على أنه يستلزم تحقيق ذلك أن يتسع معنى كلمة العمالة فيشمل الروح التي يُنجز العمل بها ، والمنفعة التي تُجتنى من الفراغ ؛ فضلا عن حجم العمل والفراغ وتوزيعهما .

وليست مشكلة العمالة - مثل مشكلة الحكومة - بالشيء الجديد في ذاته . فإذا كان العامل الجوهري في إنهيار الحضارات الأخرى ومحلها ، هو إخفاقها في التخلص من الحرب عن طريق السعي طوعا - وفي الوقت المناسب - لامتداد سلطان الحكومة من المجال الإقليمي إلى المجال العالمي ؛ فإن ثمة عاملا آخر ثانويا يكمن في الإخفاق في التخلص من الصراع الطبقي بالعمل - طوعا وفي الوقت المناسب - على إحداث تغييرات في ضغط العمل وحصيلته وفي الاستمتاع بالفراغ والإفادة منه .

في كلا المجالين : امتداد سلطان الحكومة وتغيير أوضاع المجتمع ، يرجع الاختلاف في مدى القوة بين سيطرة الغرب - أخيراً - وأية سيطرة

أخرى سابقة على الطبيعة غير البشرية ؛ يرجع هذا الاختلاف إلى اختلاف في نوع السيطرة . إذ قد ترتب على إزدياد الطاقة الإنتاجية الاقتصادية بصورة لم يسبق لها مثيل - بفضل تطبيق الأسلوب التكنولوجى الحديث - إنبعاث ظلم اجتماعى ظاهر للعيان ، بدأ لأول وهلة كما لو أنه قابل للعلاج ؛ ومن ثم أصبح استمراره لا يطاق .

وإذ أخذَ ضَرَعُ الصناعة الميكانيكية العصرية يدرّ ثروة بعيدة التصديق على رجال الأعمال من أهل الغرب - الذين غرسوا بذرة الثورة الصناعية ثم جمعوا محصولها - فما هو الداعى لبقاء الثورة والقراغ حكر الأقلية مميزة ؟ ولماذا لا تكون هذه الوفرة المستحدثة ، شركة بين الغربيين وبين عمال الصناعة الغربيين والفلاحين الآسيويين والهنود الحمر الأمريكيين : أولئك الذين سيقوا كالقطيع إلى عالم تنتظم في صنفوه البروليتاريا الداخلية للمجتمع الغربى ؟

إن هذا الحلم الذى راح يداعب البشر عن إمكان تحقيق الوفرة للبشرية بأسرها ؛ قد بَعَثَ إلى الوجود مطالب لكفالة التحرر من العوز ، لم يسبق لها مثيل فى إلحاحها وقلة صبرها . فكان أن أبرز شيوع هذه المطالب فى كل مكان ، سؤال حول الطاقة الإنتاجية الصناعية الميكانيكية : هل حقا لا ينضب معينها ، كما كان يظن ؟

ويتوقف الردّ على هذا السؤال على حلّ معادلة من ثلاثة أطراف غير معروفة :

الأول - مدى قدرة الطاقة التكنولوجية المتاحة ، على كفالة المطالب المتزايدة للجنس البشرى الذى ما برح يتكاثر ويطلب المزيد من القراغ .

الثانى - إحتياجات العالم من الموارد المادية التى لا يمكن الاستغناء عنها بغيرها فى شكل : معادن ، ومن الموارد التى يمكن الاستغناء عنها

بغيرها ، في شكل : الطاقة المائية والمحاصيل والماشية والقوى العاملة والحدق البشرى :

الثالث - مدى القدرة على استغلال هذه الموارد التي جمعها البشر بحيث يزداد عائدها ، ومدى قدرة البشر على موازنة الموارد التي يبددونها ، بجمع موارد أخرى لم تُستغل حتى اليوم .

إن تيار الكشوف الغربية التي تجرى في مجال العلم في هذه الأيام ، يُوحي بأن التكنولوجيا تتمتع بقدرة هائلة . بيد أن ردود الفعل البشرية في عصرنا الحالى قد أيدت في نفس الوقت ؛ وجود حدود فعلية - على الصعيد الإنسانى - على القدرة على الإنتاج إلى ما لانهاية ، باستخدام الطاقة التكنولوجية المتاحة . وتتمثل هذه الحدود في العوامل البشرية . فإنه وإن تيسر من الناحية التكنولوجية إنتاج شىء ما ، إلا أنه لا يتأتى لإبراز الفكرة إلى حيز التنفيذ إلا حين تتوفر الأيدي العاملة .

بيد أن هذا الاندفاع الهائل في تمكين سيطرة الإنسان على الطبيعة الغير البشرية ؛ قد اقتضى ثمنه ، فرض طائفة من القواعد لتنظيم العمال . فكان أن أخذوا يقاومون القيود التي فُرضت على حرياتهم . ومن شأن هذه المقاومة الحتمية ؛ أن تعرقل تحقيق الخطة التي كان من الواضح لإمكان تحقيقها من الوجهة التكنولوجية .

هنا تعرض لنا الأسئلة التالية :

ما مدى استعداد العمال للتضحية بحرياتهم الشخصية في سبيل زيادة الرخاء الذى يطالب كل منهم بنصيب أكبر ، منه ؟  
 ما هو مدى استعداد عمال الصناعة في المدن للخضوع لـ « التوجيه العلمى » ؟

وما هو المدى الذى تذهب إليه أغلبية البشر من عمال الفلاحة البدائين

في إقتباس الأساليب العلمية الزراعية الغربية ، وفي قبول القيود التي تفرض على ما نتصوره حقاً وواجباً تقليدياً مقدساً وفي الإنجاب ؟

إن أقصى ما يمكن قوله في هذه المرحلة : أن الطاقة التكنولوجية التي تُرجى من وراثها زيادة الإنتاج ؛ تعدو في سباق مع التمرّد الإنساني الطبيعي الذي يُبديه - فرادى - الفلاحون والعمال الصناعيون .

إن تكاثر الفلاحين - بأعداد ضخمة - يهدد بالقضاء على ثمار التقدم التكنولوجي . ذلك لأن تزايد سكان العالم ، يستوعب - بالتبعية - كل زيادة تطراً على وسائل المعيشة . وفي الوقت نفسه ؛ يهدد العمال الصناعيون بالقضاء على ثمار التقدم التكنولوجي ، وذلك بتحديدتهم للإنتاج عن طريق الإجراءات المقيدة التي تفرضها نقاباتهم في وجه كل زيادة محتملة في الإنتاج .

## (٢) تأثير استخدام الآلات على المشروع الخاص

إن السمة البارزة في المجال الاقتصادي والاجتماعي ، هي صراع الشد والجذب : بين التنظيم الذي تفرضه الصناعة الآلية وبين التمرّد العنيد للإنسان على هذا التنظيم .

وخطورة الموقف ، ماثلة في الحقيقة الآتية :

إن تحول الصناعة إلى صناعة آلية ؛ والنظام المفروض ؛ أمران - لسوء الحظ - متلازمان . وإن مراقبا لهذا الموقف ، قد يرى إنطباعاته وقد تأثرت بالنور الذي يرى المنظر في ضوءه . فن وجهة نظر الرجل الغني ؛ قد يبدو أن موقف العناد الذي يقفه عمال الصناعة ، صبياني ومجاف للعقل .

ألا يُدرك هؤلاء الناس أن كل هدف مرجو لا بد له من ثمن ؟

وهل ظنوا أن في وسعهم التحرر من العوز دون خضوعهم للاشتراطات التي لا بد من توافرها قبل إشباع حاجاتهم ؟

على أن المؤرخ قد يرى المشهد بعين مختلفة :

فلعله يستعيد إلى ذهنه أن الثورة الصناعية قد بدأت في إنجلترا خلال القرن الثامن عشر ؛ في عصر وبلد كانت تتمتع فيها أقلية بقدر عظيم جداً من التحرر من القيود التنظيمية ، وأن أفراداً من تلك الأقلية هم الذين أبدعوا نظام الإنتاج الآلى . وكانت حرية الاستثمار التى ورثها هؤلاء الرواد الأول لحركة التصنيع عن مرحلة إجتماعية سابقة ؛ وحي المرحلة الجديدة ودعامتها . وهى المرحلة التى كانوا هم مبدعيها ، وباعثيها إلى الوجود .

وقضلا عن ذلك ؛ فقد ظلت روح الحرية التى توافرت قبل الثورة الصناعية فى رب العمل ، والتى كانت المنبع الذى استقت منه الثورة الصناعية ؛ ظلت هذه الروح القوة الدافعة لهذه الثورة فى الفصل التالى من تاريخها . ومع ذلك ؛ فبينما استطاع رؤساء الصناعة أن يواصلوا - فى المرحلة الأولى - تجنب الوقوع تحت وطأة النظام الصناعى الذى هو من صنع أيديهم ؛ كان هذا هو المصير الذى لاقته الطبقة العاملة لإحدىة فى المدن . والمدن هى التى أحسّت منذ البداية ، بالتأثيرات المدمرة على حياة البشر التى جاء بها نجاح التكنولوجيا المؤزّر فى السيطرة على الطبيعة الغير البشرية . وإذا كانت التكنولوجيا - كما رأينا فى موضع سابق - قد حررت الإنسان من إسار تعاقب الليل والنهار ودورة الفصول ؛ إلا أنها فى تحريرها إياه من ألوان هذه العبودية القديمة ، قد أوقعته فى عبودية من نوع جديد .

إن المنظمات النقابية التى كانت أظهر ما ساهمت به الطبقة العاملة فى بناء المجتمع الجديدة ؛ لم تكن إلا تراثاً تحدرّ من نفس العهد الفردوسى : عهد النشاط « الخاص » السابق للثورة الصناعية . وهو العهد الذى كوّن رؤساء الصناعة . وإذا نُظر إلى هذه المنظمات النقابية باعتبارها وسائل لتمكين العمال من المحافظة على كيانهم فى خضمّ صراعاتهم مع أصحاب الأعمال ؛

إذا نظر إليها كذلك ، فهي - في حقيقة الأمر - من صنع نفس المرحلة الاجتماعية التي أنجبت خصومهم الرأسماليين :

وشاهدٌ على المشاركة في هذا الاتجاه ؛ نجده في الحقيقة الآتية :

فإن تصفية أصحاب الأعمال في روسيا الشيوعية ؛ قد أعقبه إخضاع النقابات لتنظيم معين . في حين أن تصفية النقابات في ألمانيا النازية ، قد أعقبه إخضاع أصحاب الأعمال الأفراد لتنظيم معين . وتختلف الأحوال عن ذلك في بريطانيا ؛ إذ أسفرت الانتخابات العامة في سنة ١٩٤٥ عن حكومة من حزب العمال ، وقام برنامجها على إنتزاع ملكية المشروعات الصناعية الخاصة من أيدي أصحابها ، مع صون الحرية الشخصية . لكن عمال الصناعات الموثمة لم يفكروا إطلاقاً في حل نقاباتهم ، أو التخلي عن حقهم في النهوض بمصالح أعضائها ، باستخدام كافة الأساليب التي دأبوا على استخدامها ضد « المستغلين » الأفراد الذين انتزعت منهم ملكية مشروعاتهم الخاصة . ولم يُنظر إلى هذا الإجراء على أنه نجاف للمنطق . ذلك لأن الغرض من نقابات العمال ، هو أن تقاوم التنظيم التعسقي للعمال ؛ سواء فرضته الدولة ، أو فرضه الرأسمالي .

ومن سوء الحظ ؛ أن مقاومة العمال الخضوع لتنظيم تعسقي - على أيدي أصحاب الأعمال - قد أدت بهم إلى إخضاع أنفسهم لتنظيم تعسقي من صنع أيديهم . فإنهم في مقاومتهم مضير التحول إلى آلات بشرية في المصنع ؛ قد فرضوا على أنفسهم مضير العمل كآلات بشرية في نقاباتهم . إن هذا المضير لا مهرب منه . هذا ولن يجدوا عزاءً في أن عدوهم القديم المألوف - أي رب العمل الفرد - أصبح الآن هو أيضاً ، يخضع للتنظيم المفروض على الجماعة ، وأنه هو نفسه قد فقد كيانه واستحال - على غرارهم - إنساناً آلياً .



وهكذا ؛ لم يعد خصم العمال طاغية بشرياً تُدركه الأفهام وتُصَبّ على رأسه اللعنات وتحطّم نوافذ بيته ، وقمّا يفقد الجمهور صوابه . بل تحوّل خصم العمال - في نهاية المطاف - إلى سلطة جماعية غير شخصية ، أعظم اقتداراً وأشد مكرّاً من أى كائن بشرى تمقته النفس وتبغضه :

وإذا كان إخضاع العمال أنفسهم لتنظيم تعسقى يلتزمون به ، نذيراً بالسوء ؛ فإنه لأمر يبعث على الأسى ، أن نرى الطبقة الوسطى في الغرب وقد شرعت تسلك الطريق الذى ما برحت طبقة عمال الصناعة في الغرب تسير فيه منذ أمد طويل :

لذا يعتبر القرن الذى انتهى عام ١٩١٤ ميلادية ؛ العصر الذهبى للطبقة الوسطى في الغرب . بيد أن العصر الحديد قد شهد لإنهيار هذه الطبقة - بدورها - في نفس البؤس الذى حكمت به الثورة الصناعية على طبقة عمال الصناعة . لقد كانت تصفية البورجوازية في روسيا السوفيتية ، نذيراً مشيراً . ولكنك واجد دليلاً أدق لما نستأق به الأيام في التاريخ الاجتماعى المعاصر لبريطانيا وغيرها من البلاد التى يتكلم أهلها الإنجليزية ؛ حيث لم تنشب أية ثورة سياسية .

وإن أبرز الخصائص السيكولوجية المميزة للطبقة الوسطى في الغرب - إذا قورنت بطبقة « العمال » سواء الكتائيين أو اليدويين - إن أبرز هذه الخصائص السيكولوجية ؛ تتجلى في إقبال الطبقة الوسطى الشديد على العمل . بيد أن الحال ، قد تغيّر كثيراً عما كان عليه من قبل . ويطالعلنا في هذا الشأن ، مثال عظيم ضئيل في قدره عظيم في مغزاه :

ففي عام ١٩٤٩ ؛ أخفقت البيوت المالية في والستريت Wall Street<sup>(١)</sup> بمانهاتن ، قلعة الرأسمالية في الولايات المتحدة ، في حثّ كتاب الاختزال

(١) حى المال والأعمال في نيويورك . ( المترجم )

- يبذل مكافآت سخية عن ساعات العمل الإضافية - على إعادة النظر في قرارهم الجماعي بالامتناع عن العمل في مكاتبتهم صباح أيام السبت . وكان أرباب الأعمال تواقين إلى التضحية بعطلتهم يوم السبت ، بغية اجتناء الربح الذى يفقدونه إذا سلموا بإنقاص فترة العمل الأسبوعى . ولكنهم لم يعودا قادرين على أن يؤدوا أعمالهم دون وجود عمال الاختزال إلى جانبهم يساعدهم في أعمالهم . وألقوا أنفسهم عاجزين عن إقناع معاونيهم هؤلاء ، الذين لاغنى عنهم في أداء الأعمال الجالبة للمال ؛ إقناعهم بأن العمل صباح السبت من كل أسبوع أمر يستحق التضحية . فقد أصبح كتاب الاختزال مقتنعين بأن راحة إضافية ليوم<sup>٢٧</sup> - أو حتى لنصف يوم - لها عندهم قيمة أهم من مغريات مالية تُبدل لسحب قرارهم . إذ لم تعد الأجور الإضافية ذات نفع لهم ، ما دام الحصول عليها يتطلب التضحية بوقت فراغ إضافي ينفقون فيه تلك الأجور . وأنهم - في هذه المفاضلة بين المال ومتع الحياة - قد آثروا متع الحياة على حساب المال . ولم يفلح أرباب الأعمال في إقناعهم بالعدول عن رأيهم .

ولم يأت عام ١٩٥٦ ؛ حتى أخذ يظهر للعيان شيء أبعد من مسألة إنصباغ كتاب الاختزال - تحت تأثير المال - لوجهة نظر المالبين في وال ستريت ؛ ذلك هو احتمال تحول رجال المال في نهاية المطاف - بدافع من الضيق الاقتصادى - إلى وجهة نظر كتاب الاختزال ؛ فقد بدأ يهب على حى المال في نيويورك ، نسيم سبق أن لطّف حرارة القلوب القاسية لرجال الأعمال في حى المال في « مبارد ستريت » بلندن .

وقد ضاقت - باستمرار - خلال القرن العشرين فُرص الأعمال المربحة أمام الطبقة الوسطى في مراكز النشاط الرأسمالى في الغرب ؛ مركزاً بعد آخر ، وكان لهذه النكسات الاقتصادية آثار زلزلة لمعنويات الطبقة الوسطى ؛ فإن هذه الحماسة للعمل التى عُرِفَت عن هذه الطبقة قد جفّت بفعل

القيود المتزايدة في مجال النشاط الخاص . كما أن التضخم والضرائب المرهقة قد جعلتا من فضيلتها التقليديتين - الكدح في سبيل الكسب والتوفر على الادخار - جعل منهما أمراً لا معنى له . وتضاف لإرتفاع تكاليف المعيشة ، مع ما صاحبه من ارتفاع مستوى المعيشة - في الوقت نفسه - على خفض حجم عائلات الطبقة المتوسطة . وجاء حرمانها من الالتحاق بالوظائف العامة ، مهدداً بزعزعة كفايتها المهنية ؛ كما جاء فقدانها وقت « الفراغ » منذراً بتقويض ثقافتها . وبالإضافة إلى ما تقدم ؛ كابدت المرأة من الطبقة الوسطى متاعب أشد مما كابدته الرجل . والمرأة هي الأم التي اعتمدت عليها - كما دللت كتب السير - الطبقة المتوسطة العالمية في الدفاع عن كيانها ؛ وقد ترتب على هجر الطبقة المتوسطة - بالتدرج - الأعمال الخاصة ودخولها في الوظائف العامة أو ما يعادلها - سيكولوجيا - من وظائف المؤسسات الكبرى الغير الحكومية ؛ ترتبت على ذلك مكاسب للمجتمع الغربي ، كما ترتبت عليه خسائر .

فأما عن المكاسب : يتمثل المكسب الأساسي في إخضاع الحافظ الذاتي للكسب ، للحافظ الغربي للخدمة العامة . ويتأتى قياس القيمة الاجتماعية لهذا التغيير ، بإمعان النظر في نتائج ما أسفرت عنه التغييرات التي تناظره في تاريخ الحضارات الأخرى . وتطالعنا مثالا ؛ الصحوة الاجتماعية التي إنبعثت عن إنشاء الإمبراطوريات العالمية في تاريخ الحضارات : الهلينية والهندية والصينية . إذ قد أنجزها وميَّزها بطابعه - إلى حد كبير - توجيه مواهب طبقة دأبت على النهب والسلب ، إلى الخدمة في الوظائف العامة . ومصدقا لذلك ؛ استطاع أغسطس وخلفاؤه أن يجعلوا من رجال الأعمال الرومانيين الجشعين ، موظفي حكومة أنخيار . وصنع الإمبراطور الصيني « هان ليو بانج » وخلفاؤه ، موظفين صالحين من أعيان الطبقة الإقطاعية النهبية . وصاغ كورنواليس وخلفاؤه ، موظفين صالحين من الرُكلاء التجاريين الجشعين لشركة الهند الشرقية البريطانية :

وأما عن الحسائر : فإنه على الرغم من إختلاف الوسائل في كل من هذه الحالات ، أسفرت النتائج عن مظاهر ضعف بارزة . ويمكن تفسير فشلها - في النهاية - باللبلة الفكرية الكامنة في نفوس المشتغلين بالخدمة العامة ، حيث تلقى أسمى الفضائل وهي فضيلة النزاهة ؛ ولكن يضعفها الافتقار إلى التحمس للعمل ، وعزوف عن اتخاذ موقف المبادأة أو التعرض للمخاطر . وتبدى هذه المظاهر - في الوقت الحاضر - في المحيط العام لموظفي الخدمة المدنية العامة ، من خلال استقراء أحوال الطبقة المتوسطة الغربية أثناء القرن العشرين : ولا يبدى هذا الاستقراء ما يبشّر بنجاحها في القيام بالعبء الهائل الذي لاشك ستواجهه إن آجلاً أو عاجلاً ؛ وهو عبء تنظيم الحكومة العالمية والحفاظة عليها :

فإذا مارسنا دوافع المنحى التفكيرى للخدمة العامة ؛ نجدها - في جوهرها - إستجابة لتحديّ قوامه ضغط على النفوس البشرية ؛ لا يقل في شدته ، عما لو كان مصدر هذا الضغط مادياً لاروحانياً . ذلك لأن تطويع الجهاز الحكومي لدولة بلغت درجة عالية من التنظيم ونحكم ملايين كثيرة من البشر ، عمل شاق مدمر للنفس البشرية ؛ شبيه بتطويع مجموعة من آلات تُدار في مصنع ، إدارة علمية مثالية .

وفي الواقع ؛ قد تكون الإجراءات الحكومية أعظم في التعمير أثراً ، من الحديد بالنسبة للمباني . ولقد تغلغت هذه الإجراءات في نفوس موظفي الدولة . وبالمثل ؛ يماثل الدور للذي يؤديه نظام حزبي جامد في مجالس تشريعية مثقلة بالعمل ، الدور الذي تقوم به الأنظمة الشكلية والروتين ، في حكومة مثقلة بأعباء المسؤوليات .

ولم يكن عسيراً ؛ إدراك دلالة هذه الاتجاهات جميعاً لمستقبل النظام الرأسمالي المألوف . إذ ما برح رصيد الطبقة الوسطى الغربية من الطاقة السيكلوجية التي اكتسبتها قبل الثورة الصناعية ؛ يُشكل القوة الدافعة للنظام

الرأسمالى . وإذا كانت هذه الطاقة قد استُقطبت اليوم ثم تحوّلت فى نفس الوقت من النشاط الفردى الخاص إلى الخدمة العامة ؛ فإن هذا التحول نذير بنهاية النظام الرأسمالى .

« إن الرأسمالية فى جوهرها ؛ عملية تحوّل اقتصادى . . . إذ بانتهاء الابتداع ، يخفى عنصر أرباب الأعمال . وباختفاء دور أرباب الأعمال الفذ ، تختفى الأرباح الرأسمالية من الوجود ، ويزول معها الدافع الرأسمالى . إن المناخ الذى تنمو فيه الثورات الصناعية - أو « التقدم » بمعنى آخر - هو وحده المناخ الذى تستطيع الرأسمالية العيش فيه . . . إن الرأسمالية المستقرة شىء يتناقض مع طبيعتها » (١) .

وقد بدا كما لو أن ظاهرة التنظيم الدقيق التى تفرضها التكنولوجيا الصناعية ؛ أحرى بأن تسلب الحيوية ، من روح الاستثمار الخاص الموروث من عهد ما قبل الثورة الصناعية . وقد أثار هذا الاحتمال سؤالا آخر :

هل يستطيع النظام التكنولوجى القائم على الصناعة الآلية أن يظل حيا بعد انهيار النظام الاجتماعى القائم على النشاط الخاص ؟

وإن لم تُكتب له الحياة ؛ فهل تستطيع الحضارة الغربية - نفسها - أن تظل فى الوجود ، بعد انقراض الصناعة الآلية التى قدّمت لها تلك الحضارة رهائها ؛ وذلك حين سمحت لسكانها بالتكاثر - إبان عصر الآلة - إلى مدى أبعد مما يستطيع احتمالها أى اقتصاد لا يقوم على الصناعة ؟

لا مشاحة فى أن النظام الصناعى لا يستطيع أن يجبا ويعمل ، إلا حينما يتوافر رصيد - من الطاقة الإبداعية الذاتية - يدفعه إلى العمل . ولقد تمثلت هذه الطاقة الدافعة - حتى اليوم - فى الطبقة المتوسطة .

Shumpeter, J.A. : Business Cycles (New York 1939, McGraw-Hill (١)

وهكذا ؛ يبدو ان السؤال النهائي هو : هل ثمة مصدر آخر للطاقة الذاتية يتأتى استخدامه لتحقيق نفس الغايات الاقتصادية ويستطيع العالم الآخذ بأسباب الحضارة الغربية الاعتراف منه ؛ إذا لم يكن ثمة مناص من استقطاب طاقة الطبقة المتوسطة أو تحويل اتجاهها ؟

فإذا كان ثمة بديل عملي يمكن التوصل إليه ، ففي وسع العام أن يتطلع - وهو رابط الجأش - إلى نهاية النظام الرأسمالي . أما إذا لم يتوافر هذا البديل ، فإن المستقبل مليء باحتمالات القلق والاضطراب .

وبالأحرزى ؛ إذا كانت « مكنكة » الصناعة قد تطلبت فرض التنظيم الدقيق ، وإذا كان هذا التنظيم الدقيق قد استلب الروح من الطبقة العالمية في الصناعة ومن الطبقة الوسطى بعدها ؛ فهل في وسع أى يد بشرية - أيا ما تكون - أن تعالج الآلة الجبارة دون أن تحيق بها المكارها ؟

### ٣ - محاولات بديلة لتحقيق التوافق الاجتماعى

عولجت المشكلة الاجتماعية التى تواجه البشر من زوايا مختلفة في البلاد المختلفة ؛ إحدى هذه الزوايا في أمريكا الشمالية ، والثانية في الاتحاد السوفيتى ، والثالثة في غرب أوروبا :

١ - فأما عن النمو في أمريكا الشمالية ، فالعالم قد استوحته من مثل أعلى مناطه تشييد فردوس أرضى في عالم جديد . ويقوم هذا الفردوس الأرضى على أساس من النشاط الخاص ، آمن سكان أمريكا الشمالية ( ونعنى شعب الولايات المتحدة والمتكلمين بالإنجليزية في كندا ) بقدرتهم على الاحتفاظ به سليماً معافى ، مهما يكن من أمر مصيره في البلاد الأخرى . ويتم ذلك برفعهم المستوى الاقتصادى والاجتماعى لطبقة الأجراء إلى مستوى الطبقة المتوسطة . ومن ثم ؛ هدفوا إلى إبطال مفعول ما وصفناه في التسم السابق بالآثار الطبيعية الناجمة عن تعميم الآلات في الصناعة .

قد يكون هذا الإيمان ملهما دافعا إلى العمل ، ولكنه متناه في البساطة ، يقوم على بضعة أوهام يمكن أن تنحصر كلها في وَهْمٍ أساسى هو وَهْمٌ : العزلة .

وتفسير ذلك ؛ أن العالم الحديد ، ليس جديداً كما تمنى المعجبون به أن يكون . ذلك لأن الطبيعة البشرية - وتحمل بين طياتها الخطيئة الأصلية (١) - قد عبّرت المحيط مع المهاجرين الأوائل وأورثوها أخلاقهم . بل أنه حتى فى القرن التاسع عشر - حين كان يبدو أن مبدأ العزلة قابل للتطبيق على الصعيد السياسى - كان هذا الفردوس الأرضى يحوى بين ظهرانيه فيضا من الحيات (٢) . حتى إذا تقدم القرن العشرون وعبس وجه الزمان ؛ اتضح - شيئاً فشيئاً - أن ثنائية العالم - أى جديد وقديم - نظرية لاتتمشى والحقائق . فلقد أصبح الجنس البشرى بأسره ، معرضاً لمصير واحد . وتبين أن فلسفة للحياة غير صالحة للتطبيق على الجنس البشرى كله ، لن يتأتى تطبيقها - على طول المدى - على أى جزء منه .

٢ - أما أسلوب الروس فى تناول مشكلة الصراع الطبقي ، فقد استمدوه ( مثلما فعل الأمريكيون ) من مثلهم الأعلى فى إقامة فردوس أرضى . وتبلور هذا الأسلوب ( مثل الأسلوب الأمريكى ) فى سياسة ترمى إلى التخلص من الصراع الطبقي باستبعاد الانقسامات الطبقيه .

وهنا تنتهى المشابهة بين الأسلوبين ؛ الروسى والأمريكى : إذ بينما يجدُّ الأمريكيون فى درج الطبقة العاملة فى الصناعة بالطبقة الوسطى ؛ عمل الروس على إبادة الطبقة الوسطى ، وحرّموا جميع ضروب الاستثمار الخاص ؛ ولم يقتصر الحظر على الرأسماليين ، بل تعداهم إلى نقابات العمال .

(١) أى خطيئة آدم وحواء بمخالفتها أوامره تعالى . وعند العقيدة المسيحية أن هذه الخطيئة قد ورثتها البشرية ، وأصبحت لاصقة بها . ( المترجم )

(٢) يشير الأستاذ المؤلف هنا إلى الحية التى أسرت إلى حواء بارتكاب المصيبة . ( المترجم )

وتتضمن السياسة الروسية الشيوعية عناصر قوية ، عجز خصوم الاتحاد السوفيتي من الغربيين عن التهورين من شأنها ؛ تأتي الأيديولوجية الشيوعية - ذاتها - في مقدمتها ، وهي أعظمها شأنًا . وقد تُثبت الأيام - على طول المدى - أن هذه الأيديولوجية ، قد تصلح بديلا من العقيدة الدينية لاتقنع به النفس . إلا أنها تقدم - في المدى القصير - للنفوس المهجورة القلقة ؛ إشباعاً لإحدى احتياجات الإنسان الدينية العميقة ، بفضل تقديمها له هدفاً يسمو على أغراض الإنسان الشخصية الخفية<sup>(١)</sup> .

فكان أن أصبحت رسالة تحويل العالم إلى الشيوعية - والحالة هذه - أعظم بهجة من رسالة إبقائه ميدانا صالحا لتحقيق حق المرء في إجتناء الريح ، أو حقه في الاضراب . إن « روسيا المقدسة »<sup>(٢)</sup> أصبحت نداءً أعظم استثارة للحرب من نداء « أمريكا السعيدة » .

وثمة نقطة قوية أخرى في الأسلوب الروسي هي أن موقع روسيا الجغرافي ؛ جعل اعتناق الروس « وهم العزلة » أمراً مستحيلاً . إذ ليس لروسيا « حدود طبيعية » . بالإضافة إلى أن الماركسية - كما يبشر بها الكرملين<sup>(٣)</sup> - تجد هوى قوياً عند جمهرة فلاحي العالم : من الصين إلى بيرو ، ومن المكسيك إلى أفريقيا الاستوائية . ذلك لأن روسيا بحالتها الاجتماعية والاقتصادية ؛ أقرب كثيراً من الولايات المتحدة لقلوب ثلاثة

(١) اقتبس الأستاذ المؤلف في الأصل - تعبيراً عن رأيه - الآيات ٢٤ - ٢٦ من الإصحاح الحادي عشر من « إنجيل لوقا » وتذكر « متى خرج الروح النجس من الإنسان ، يبتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب الراحة . وإذا لا يجد ؛ يقول أرجع إلى بيتي الذي خرجت منه . فيأتى ويجده مكنوساً مزيناً . ثم يذهب ؛ ويأخذ سبعة أرواح أحرّ أشد منه فتدخل وتسكن هناك . فتصير أواخر ذلك الإنسان أشد من أوائله » . ( المترجم )

(٢) لقب كان يطلق على روسيا القيصرية . ( المترجم )

(٣) تعنى كلمة كرملين بالروسية ، قلعة . لكن أصبح يراد بها مقر الحكم بموسكو حيث يجتمع السوفييت الأعلى للاتحاد السوفيتي ، ومجلس الوزراء وغيرهما من هيئات الدولة الرئيسية . ( المترجم )



أرباع الجنس البشرى الكسيرة ؛ تلك التى تتنافس الدولتان المتنازعتان على حطّب ودّها . وإن فى وسع روسيا أن تتباهى - وتتبدّى للعيان فى هذا صاّدقة - بأنّها قد أنقذت نفسها بجهدّها ، وأن فى وسعها بالمثّل . إنقاذ بروليتارية العالم ؛ باحتدائها مثلها هذا .

هذا ؛ وإن ثمة جزءاً من هذه البروليتاريا ، يتّيم داخل الولايات المتحدة نفسها . ولا تُخفى طائفة من الدوائر الأمريكية المعادية للشيوعية خشيتها من أن يجد إغراء الشيوعية هدى فى نفوس أفراد هذه البروليتاريا الأمريكية ؛ بل تنقلب خشية هذه الدوائر فى بعض الأحيان إلى نوع من الهستريا .

٣ - أما أسلوب أوروبا الغربية فى تناول مشكلة الصراع الطبقي - وهو أسلوب نراه أكثر ما يكون وضوحاً فى بريطانيا والدول الاسكندنافية - فإنه يختلف عن الأسلوبين الأمريكى والروسى ، من ناحية أنه أقل منهما تزمّتاً .

لقد انضح للطبقة المتوسطة فى الغرب أنه يستحيل عليها - من الناحية العملية - أن تحذو حذو الطبقة المتوسطة فى أمريكا الشمالية ، فى بلدنا عن طواعية للطبقة العاملة ، جماع مسراتها ممثلة فى مستوى معيشتها ، ووفرة من الفرص لإشباع طموحها الشخصى . سيما وأن أقطار الغرب كانت بسببيل فقدانها السلطان والثراء لتستأثر بهما الدولتان الماردتان<sup>(١)</sup> اللتان قامتا على أطراف العالم الغربى .

وأكثر من ذلك إمعاناً فى الاستحالة العملية ؛ أن يُقدّم للطبقة العاملة فى الصناعة - فى غرب أوروبا - النظام الشيوعى بحذافيره .

وعلى هذا ؛ فإن الأسلوب السائد فى بريطانيا ودول سكاندناوا هو محاولة لإيجاد أسلوب وسط ، عن طريق تجربة الجمع بين النشاط الفردى

(١) أى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى . ( المترجم )

والتنظيم الفردي والتنظيم الحكومي الدقيق بما يحقق العدالة الاجتماعية . وبات يطلق على تلك السياسة اسم « الاشتراكية » . وهو تعبير كان موضع تمجيد المعجبين به من البريطانيين ، بينما كان موضع إزدراء نقّاده من الأمريكيين .

أما النظام البريطاني المعروف بـ « دولة الرفاهية » فقد شُيد لبنة لبنة . وتعاونت في بنائه - عن طريق التشريع - جميع الأحزاب السياسية ، عن رضى واختيار .

#### ٤ - الأعباء المتوقعة للعدالة الاجتماعية

يستحيل أن تتوافر للإنسان حياة اجتماعية دون أن يكفل له قسط من الحرية الشخصية ، ومن العدالة الاجتماعية معاً .

والحرية الشخصية ، شرط لاغنى عنه للإنجازات البشرية ، أيا ما يكون نوعها ، خيراً كان أم شراً . على حين أن العدالة الاجتماعية هي القاعد الأساسية ، التي تحكم التعامل بين البشر . وإذا تدفع الحرية الشخصية الطليقا بأضعف الناس إلى أسوأ منزلة ، لن يتأتى تطبيق العدالة الاجتماعية على عائلاتها ، بدون كبت الحرية التي بدونها تنتفي طاقة الإبداع من الطبيعة البشرية .

ومن ثم ؛ تقع جميع النظم الاجتماعية المعروفة في موضع بين هذين الطرفين النظريين المطلقين . ويطالعنا - من قبيل المثال - عنصرا الحرية الشخصية والعدالة الاجتماعية ممزجين بنسب مختلفة في دستورى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى السارين في الوقت الحاضر . ولقد اصطلح في أنحاء العالم الآخذ بأسباب الحضارة الغربية في منتصف القرن العشرين على تسمية هذا المزيج - أيا ما تكون نسبته - بـ « الديمقراطية » . إذ غدا هذا الاصطلاح المقتبس من لغة السياسة عند اليونان - حيث كان يُستخدم في معنى التحقير - غدا شعارا يلتزم به كل سياسى يحترم نفسه .

وباستعماله على هذا النحو ؛ أصبح اصطلاح « الديمقراطية » مجرد ستار

من الدخان لإخفاء الصراع الحقيقي بين المثليين الأعلى : الحرية والمساواة ، والمبدأ الوحيد الذي اكتُشف للتوفيق بين هذين المثليين المتعارضين ، هو مبدأ وسط بينهما وهو « الإخاء » . وإذا كان خلاص الإنسان اجتماعيا يعتمد على أماله في تحويل هذا المبدأ السامى من شيء نظرى إلى عالم الحقيقة ، فسيتضح للإنسان أن حلق السياسيين وتفننهم لم يحمله بعيداً . ذلك لأن تحقيق مبدأ الإخاء ، ما برح بعيداً عن تناول البشر ؛ طالما وثقوا بقوتهم وحدها ولم يعتمدوا على سواها . « إن أخوة الإنسان منبعث من أبوة الرب » .

وإذ أصبحت الحرية الشخصية والعدالة الاجتماعية متأرجحان في كفتي الميزان ؛ فقد ألفت التكنولوجيا بثقلها في كفة العدالة الاجتماعية ، وهى خصم الحرية الشخصية :

ويمكن تصوير هذا الاستنتاج ودعمه ؛ بالتطلع إلى حالة مجتمع آتية ، وقد تبدت للعيان فعلا ؛ وإن لم تصح قرينة المنال بعد :

فلنفترض - تيسيراً للمناقشة - أن أسلوبنا تكنولوجيا جباراً ، قد أنجز بالفعل الأعمال الضخمة التالية من منجزاته . فإن التكنولوجيا حين تضع القبلة الذرية في يد الإنسان ، تضطره حتماً إلى إبطال الحرب . ثم إنها تعاون - حتماً - على خفض معدل الوفيات إلى أدنى حد لم تصل إليه البشرية من قبل ؛ وذلك بفضل توزيعها منافع الطب الوقائى على جميع الطبقات والأجناس ، بلا أدنى تمييز .

ولنفترض كذلك - كما كان محتملاً فعلاً - أن هذه التحسينات السمحة في الظروف المادية للحياة ؛ قد سارت بسرعة كبيرة عجزت التغيرات الاجتماعية عن مجاراتها ؛ فلنتصور أن ثلاثة أرباع البشر من الفلاحين لا يزالون محتفظين بنمط حياتهم المأثور عنهم ، ألا وهو تكاثر نسلهم بنسبة تفوق مقومات معيشتهم . ويقتضى هذا الافتراض - بدوره - أن نتصور أنهم بتكاثر أعدادهم لا بد مستملكون كل المقومات الإضافية للمعيشة التى

وضعها العلم بين أيديهم ، وذلك بقيام « نظام عالمي » يجلب معه ثمار السلام ؛  
وفى طليعتها : الأمن والصحة ، وتطبيق العلم لإنتاج الطعام .

ولستا بمغالين في تصور هذه النذُر المشثومة ، فهي ليست سوى  
لانعكاساً في قابل الأيام لانجاهات تجرى منذ أمد طويل . وتؤيد وجهة نظرنا  
هذه ؛ دراسة أحوال الصينيين . إذ ما برح تكاثر سكان الصين يستوعب زيادة  
وسائل المعيشة التي ترتبت على زراعة محصولات غذائية لم تعرفها البلاد ،  
وقد جلبت من الأمريكيتين خلال القرن السادس عشر ؛ كما كانت نتيجة  
لما نعمت به البلاد سلام في عصر الإمبراطورية المانشوكية في القرن السابع  
عشر . فإنه بفضل توطين الذرة في الصين حوالي عام ١٥٥٠ ميلادية  
والبطاطا حوالي عام ١٥٩٠ م والفول السوداني بعد ذلك ببضعة أعوام ؛  
تزايد السكان من ٦٣ر٥٩٩ر٥٤١ نسمة وفقاً لتعداد ١٥٧٨ م إلى الرقم  
التقديري ١٠٨ر٣٠٠ر٠٠٠ عام ١٦٦١ . ثم ارتفع عدد السكان بعد ذلك  
إلى ١٤٣ر٤١١ر٥٥٩ عام ١٧٤١ وإلى ثلاثمئة مليون في منتصف القرن  
التاسع عشر إلى ستمائة مليون في منتصف القرن العشرين . ولا تُبهدى هذه  
الأرقام مجرد زيادة عادية ، لكنها تعبّر عن زيادة متواصلة تمت وفقاً  
لمتواليّة هندسية ، رغباً عما حلّ بالبلاد من أرزاء دورية مثل الطاعون  
والأوبئة والحجاعات والمعارك الحربية والقتل والموت المفاجئ\* .

ونفس الشيء حدث في الهند وإندونيسيا وغيرها من الأقطار .

فإذا كان هذا قد حدث بالأمس ، فما هي احتمالات الغد ؟

إن الخصب والأزدهار المترتبان على التطبيق العلمي ، قد أنتجا بالفعل  
وفرة ما يرحت تفنّد تشاؤم مالتس<sup>(١)</sup> حتى اليوم . إلا أن مساحة الأرض  
محدودة ، وهذا أمر لا يمكن التغلّب عليه . ويترتب عليه وضع حد

(١) عالم اقتصادي إنجليزي قرر بأن السكان يتزايدون وفقاً لمتواليّة هندسية ، بينما تزايد  
الموارد الطبيعية وفقاً لمتواليّة حسابية . ( المترجم )

للزيادة المطردة في إنتاج الموارد الغذائية للبشر . ويبدو من المحتمل ، أن تصل الأرض إلى حدّها الأقصى في إنتاج الطعام قبل أن يبذ الفلاحون عادتهم في الإقبال على التكاثر .

وإذ نتنبأ بتحقيق آراء مالتس بعد انقضاء عصره ؛ فأحرى بنا التنبؤ كذلك بقيام نوع من السلطة العالمية تأخذ على عاتقها أن تكفل الاحتياجات المادية الأساسية لسكان الأرض جميعاً ، خلال فترة « المجاعة الكبرى » (١) التي سيواجهها العالم . ولن يصبح الأطفال وقتئذ مسألة خاصة تتعلق بالزوجات والأزواج وحدهم ، بل تغدو من اختصاص سلطة عامة لا أحد لسلطانها العام .

وحرى بالذكر ؛ أن أبعد ما بلغته الحكومات حتى الآن في تطفلها على هذا الحرم المقدس من الحياة الخاصة ؛ هو منحها مكافآت سلبية أو إيجابية (٢) لأرباب الأسر الكبيرة الحجم . وذلك إذا كانت السلطات الحكومية حريصة على توفير القوة البشرية للعمل أو لتكون وقوداً للحرب . وما كان لها أن تتصور أن تحرّم على رعاياها تقييد حجم عائلاتهم ، بأكثر من إقدامها على إرغامهم على التكاثر . وحقاً ؛ ما برحت حرية الإنسان في الإنجاب - أو الامتناع عنه - قضية مسلماً بها دون جدال ؛ حتى أنه - في وقت متأخر نسبياً عام ١٩٤١ - لم يخاطر على بال الرئيس روزفلت أن يرفع عدد الحريات البشرية الأصلية التي أعلنها في ميثاق الأطلسي ، من أربعة إلى خمسة ، بتسجيله - صراحة - حق الأبوين المقدس في تحديد حجم عائلاتهم . ويبدو الآن كما لو أن المستقبل سيظهر ما كان في إغفال روزفلت لهذه المسألة من منطوق غير مقصود . إذ قد بدا - أخيراً - أن الحرية

(١) وهي الفترة التي يتوقع المؤلف مجابهة العالم لها بفعل زيادة السكان زيادة تفوق موارد الطعام . ( المترجم )

(٢) الإعفاء من الضرائب هو قاعدة المكافآت السلبية . أما المكافآت الإيجابية فإنها تتمثل في زيادة المرتبات ومنح المكافآت النقدية أو العينية . ( المترجم )

الجديدة التي نادى بها وهي «التحرر من العوز» لن يمكن كفالتها للبشر إلا إذا نزعنا منهم «حرية الإنجاب» .

أما كيف يتحقق هذا ؛ فشكلة تثير طائفة من الأسئلة البالغة الدقة :

إذا جاء الوقت الذي يصبح فيه - حقاً - إنجاب الأطفال مسألة تتولاها بالتنظيم سلطة خارجية ، فكيف ينتظر أن تستقبل أغلبية البشر من الفلاحين هذا القيد على حريتهم الشخصية ؟

ومن الناحية الأخرى ؛ يرى ما هو موقف أقلية البشر التي حررتها التكنولوجيا الصناعية فعلا من إفسار عادة لم تكن قط موضع نقاش ، عادة الفلاحين في التكاثر ؟

يُرجّح نشوب جدال مرير بين عذنين القطاعين من الجنس البشري ؛ فإن لكل جانب ما يشكوه من إنجاب الآخر . إذ يستنكر العمال الصناعيون أن يكونوا مسنونين - أديباً - عن إعاشة جماهير الفلاحين التي لا يتف تكاثرها عند حد . أما الفلاحون فسيتملكهم الأمل لما يتهددهم من فقد حريتهم التقليدية في تكثير نوعهم ؛ بحجة أن ذلك هو وحده البديل من الموت جوعاً . إنهم سيظلون يبذل هذه التضحية وفقاً لتزداد الهوة - على الأرجح - اتساعاً مما كانت عليه ، بين مستوى حياتهم الهزيل ، ومستوى حياة العمال الصناعيين في البلاد الغربية ، أو البلاد الآخذة بأسباب الحضارة الغربية .

والحق إنه الاتساع المتطرد لهذه الهوة ؛ هو إحدى النتائج التي يجب توقعها وذلك إذا صدقت توقعتنا من أنه في الوقت الذي يصل فيه إنتاج العالم من الأغذية أقصى مداه ، ما فقئ الفلاحون المتكاثرين يستهلكون الموارد الإضافية من الغذاء لإعاشة أفواهم المتزايدة ، في حين يستخدم العمال الصناعيون هذه الموارد في رفع مستوى معيشتهم .

وفي هذه الحالة ؛ لن يرى الفلاحون داعياً — قبل أن يُطلب إليهم المتخلى عن أقدس حقوق الإنسان — أن تُطالب الأقلية المتخمة ، بالتخلي عن نصيب أكبر من فائض مواردهم التي يسيل لها لعاب الفلاحين . إلا أن هذا المطلب لا يبدى سيصطدم بالصفوة من أهل الغرب ، إذ يعدونه أمراً سخيفاً مجافياً للعقل .

فما هو الداعي لتحميل الصفوة الغربية ( أو ذات الصبغة الغربية ، وهي التي تدين برضاها إلى حصافتها وبعد نظرها ) ؛ وزر صدوف أهل الريف عن كبح جماحهم الجنسي ؟

يبدو هذا الطلب أشد مجافاة للعقل ، إذا أُخذ في الاعتبار أن التضحية بمستويات المعيشة في المغرب لن يستبعد طيف المجاعة العالمية ، لكنه سيؤخره فترة طفيفة من الزمن تؤدي التضحية خلالها إلى النزول بأعلى الطبقات مستوى ، إلى مستوى الأرقام المتخلفين .

إن رد فعل — بمثل هذه القسوة — لن يعين على التوصل لحل المشكلة . وحقاً ؛ نستطيع أن نستشف منذ الآن ، بأن ردّ الفعل الغالب عند الإنسان في الغرب — إن حدثت مثل هذه المجاعة الغذائية التي تبدأنا بحلوثها — لن يتمشى وهذه الخطوط الثقيلة الوقع . إذ تولّف التقديرات الحصيفة للمصلحة الذاتية المستنيرة ، والزعمة الإنسانية في التخفيف من آلام البشر ، والشعور بالتزام أدبي قد يكون هو التراث الروحي الباقي من عقيدة مسيحية تبيدت ، يولّف هذا كله مزيجاً من الدوافع التي تأهم — بالفعل — طائفة من الجهود النبوية لرفع مستوى الحياة في البلاد الآسيوية والإفريقية . وإن من شأن هذه الدوافع الكريمة أن يُدفع الإنسان في الغرب إلى أن يؤثر أداء دور السامري العظيم على دور الكاهن أو اللاوي (١) .

(١) السامري العظيم : لقب يطلق على الإنسان الخبير . والتشبيه مقتبس من إنجيل لوقا — الإصحاح العاشر آيات ٣٠ - ٣٧ . وتذكر أن لصوصاً اعتدوا على أحد الأفراد =

فإن حدث أن قام هذا الجدل حينئذ ؛ يحتمل أن ينتقل من مجال الاقتصاد والسياسية إلى مجال الدين ، تبعاً لاعتبارات كثيرة .

إن إصرار أهل الريف على تكثير نسلهم إلى أقصى حد تبيحه لهم مواردهم من الغذاء ؛ ونتيجة اجتماعية لعامل ديني لا يمكن تعديله ، من غير إحداث تغيير في موقف أهل الريف من الدين ونظرتهم إليه .

إن نظرة أهل الريف للدين ( تلك النظرة التي جعلت عادة الفلاحين في التكاثر على مثل هذا الصمود للجدال ) قد لا تكون خالية من المنطق في أصولها ، فقيدها كانت بقية من ظروف مجتمع بدائي .

وقد قضت التكنولوجيا الآلية على البيئة الاجتماعية والاقتصادية التي أضيفت معنى اقتصادياً واجتماعياً على تمجيد الإخصاب العائلي . بيد أن التشبث بتلك العقيدة بعد أن فقدت كل معنى لها ؛ يعتبر نتيجة البطء النسبي لخطى النفس في مجال الإدراك اللاشعوري ، إن قورن ذلك بسرعة خطى العقل والإرادة .

وهكذا ؛ تصعب رؤية حل للمشكلة العالمية المتصلة بتزايد السكان ، وزيادة تفوق موارد الطعام<sup>(١)</sup> .

على أن أهل الريف ليسوا وحدهم طرفاً في هذا الموقف الذي من شأنه أن يحدث تحولاً في قلوب البشر ؛ إذا قُدّر للبشر أن يجدوا مخرجاً سعيداً من هذه الكارثة التي تنتظرهم . وإذا كان الإنسان « لا يعيش بالخبز وحده » ؛ فأحرى بالأقلية الغربية التي تعيش في رغد من العيش ، أن تقتبس شيئاً من المزاج الروحي لشعور أهل الريف .

= وتركوه بين حي وميت . فر به كاهن فلم يعره إهتماماً ، كما مر به أحد اللاويين ( رجال الدين اليهود ) فلم يخجل بشأنه . ثم عطف عليه سامري فضمده جراحاته وأركبه دابته وأتى به إلى فندق وأوصى به صاحبه خبيراً ، وأبدى استعداده لدفع جميع نفقات إقامته بالفندق .

( المترجم )

( ١ ) جوهر فكرة الاقتصادى الإنجليزي « مالتس » كما بينا فيما سبق . ( المترجم )



إن إنسان الغرب قد عرض نفسه لخطر خسارته ذاته ؛ حين كرس جهوده ( وقد وفَّق فيها توفيقاً ملحوظاً ) لزيادة رخائه المادى . فإن قُبِضَ له الخلاص ؛ فلن يجده إلا فى مشاركة نتائج جهوده المادية مع غالبية الجنس البشرى التى كانت أقل من أهل الغرب توفيقاً . إن أمام « اللأدرى (١) » الذى يخطط لتقييد النسل ؛ أن يتعلم الشئ الكثير من ذلك الفلاح الطليق من قيود الجنس المؤمن بالخرافات ، بقدر ما يتعلم هذا الفلاح ممن يخطط ويرسم وفقاً للأساليب العملية البحتة .

أما عن الدور الذى يُقدَّر الأديان العالمية التاريخية السامية أن تؤديه فى تبصير الفريقين جميعاً وفى التقريب بينهما فى تفاهم متبادل ، فأمر لا يمكن التكهن به حتى اليوم .

### ٥ - هل يمكن كفالة السعادة الدائمة

لو تصورنا مجتمعاً دولياً تخلَّص فيه البشر قبل كل شئ من الحرب ومن صراع الطبقات ، ثم مضى يحل مشكلة السكان ؛ عندئذ نستطيع أن نستنتج أن المشكلة التالية للبشرية تتبدلور فى الدور الذى يؤديه الفراغ فى حياة مجتمع قائم على التنظيم الآلى :

والواقع ؛ قام الفراغ بالفعل ، بدور فى التاريخ ذى أهمية جوهرية . فإذا كانت الحاجة أم الحضارة ، فالفراغ مرضعها . وإن من المظاهر المميزة للحضارة ؛ الشوط الذى قطعه هذا الأسلوب الجديد للحياة فى تحقيق إمكاناته . لكن ؛ لم تكن تستمتع بالفراغ سوى قلة ناهية من بين طبقة متميزة بنعمة الفراغ ، وإليها يُعزى فضل تلقيح الحضارات بهذه الظاهرة . وإن جميع الإنجازات العظيمة التى حققها البشرية فى الفنون

(١) للأدرية : مذهب ينكر المعرفة على الإنسان ، إلا فيما يتصل بالمسائل المادية

الملموسة . ( المترجم )

والعلوم ، كانت ثمرة لهذا الفراغ الذى تمتعت به تلك الأقلية المبدعة ،  
وأحسن استخداماً فيما ينفع الناس .

لكن الثورة الصناعية قد قلبت - رأساً على عقب - العلاقة القائمة  
بين الحياة والفراغ .

وكان التغيير السيكولوجى أهم هذه التغييرات :

ذلك لأن استخدام الآلة قد ولد فى ذهن العامل الصناعى ، توتراً  
بين مشاعره تجاه عمله - من ناحية - ومشاعره تجاه فراغه ، من الناحية  
الأخرى . وهذا ما لم تتعرض له - قبل الثورة الصناعية - الأغلبية من أهل  
الريف ، ولا الأقلية المتميزة . ويُعزى هذا ؛ إلى أن دورة الفصول فى  
المجتمع الزراعى ( التى تقوم للفلاح بتدوير التقويم ) قد أتاحت كذلك  
للأقلية المتمتعة بالفراغ ، توزيع وقتها بين مجالس القضاء وبين الخروج  
للحرب ، أو توزيعه بين حضور جلسات البرلمان ، والصيد والقنص  
وصيد الأسماك . وهكذا ؛ سلم أهل الفلاحة وحكامهم بأن العمل والفراغ  
مرحلتان للسكون والحركة<sup>(١)</sup> يتعاقبان فى رتابة ، تعاقب الليل والنهار  
والصيف والشتاء . وكل مرحلة ، راحة من الأخرى .

بيد أن هذا التكافل ، وهذا التزاوج بين العمل والفراغ - فى  
العهد السابق للثورة الصناعية - قد تعطل فعلهما ، وقتما استحال  
العامل إلى مجرد شئ ملحق بالآلة التى تستطيع أن تعمل ليل نهار على  
مدار السنة ؛ ووجد العامل نفسه مسوقاً إلى كفاح دائم حتى يمنع الآلة  
وضاحها من أن يسخره للعمل حتى النفس الأخير ؛ الأمر الذى ملأ  
عقله بالعداء لحياة الكد التى آمن أسلافه من الفلاحين بأنها أمر طبيعى .

(١) استخدم الأستاذ المؤلف - كما مر بنا فى موضع سابق من هذه الدراسة - كلمتين  
صينيتين للتعبير عن حالتى السكون والحركة الدافئة ، وهما : إين واليانج على التوالى .  
( المترجم )

وهذا الموقف الجديد للعامل إزاء العمل ؛ أدّى إلى موقف جديد له ،  
إزاء الفراغ : لأنه إذا كان العمل - بطبيعته - شراً ، فلا بد أن يكون  
الفراغ في ذاته - قيمة مطلقة :

وكان ردّ الفعل للطبيعة البشرية ضد العمل الرتيب في المصنع  
والمكتب ؛ قد قطع بالفعل - قبل أن ينتصف القرن العشرين - شوطاً  
بعيداً ؛ جعل للتحرر من ضغط العمل المفرط ، قيمة أعظم من قيمة المال  
الذى يستطيع العامل أن يكسبه بالعمل إلى أقصى حدود طاقته ؛ بيد أنه  
في الوقت نفسه ؛ كان التقدم التكنولوجى - دون ضابط حتى اليوم -  
يقدمّ لضحاياها من البشر دعاية عملية ساحرة : ففي الوقت الذى يهددهم  
فيه بالشغل - حتى النفس الأخير - كان يهددهم أيضاً بالبطالة ؛ ولهذا ؛  
فإن كثيراً من التبيود التى فرضتها نقابات العمال لكبح جماح الآلة في زحفها  
المميت - وإن كانت قيوداً يعوزها التنظيم الكفء - قد خدمت غاية  
العمال البعيدة القائمة على إستخلاص فضلة من العمالة ، ظاهر أنها قد انتزعت  
من أيدي البشر ؛ جملة (١) .

وكان من الميسور - في ظل تلك الظروف - التنبؤ باستعادة نوع  
من الفردوس على الأرض (٢) : تسوده « العمالة الكاملة » ، ويوزع فيه  
على كل فرد - وبكل حرص - قدر مُعيّن من العمل لا يشغل من  
وقت العامل سوى قسط ضئيل من يومه . وهنا يتبأ له قدر من الفراغ  
يكاد يعادل ما كانت تتمتع به الطبقة الممتازة - طبقة الأغنياء المتعطلين -  
التي انتهى أمرها منذ زمن ، والتي تعلمّ أجداد هذا العامل إستيجان  
أفعالها : وفي مثل هذه الظروف ؛ تتضح - بلا ريب - أهمية الاستفادة  
من وقت الفراغ ، بأكثر مما كانت عليه من قبل ؛

(١) إن الفكرة القائلة باستفحال سيطرة الآلات ، إلى أن يأتى اليوم الذى تستغنى فيه  
عن مساعديها من البشر ، قد صاغها صمويل بتلر في كتابه Erewhon الذى نشره عام ١٨٧٠ .  
(٢) أى استعادة الفردوس الذى تتمتع به آدم وحواء من قبل . ( المترجم )  
( ١٥ - ج ٤ )

فكيف تستخدم البشرية أوقات الفراغ التي ينتظرها العالم جميعاً ؟

لقد سبق للسير ألفرد أوينج Sir Alfred Euwing أن أثار هذا السؤال - للذي يُشير القلق - في خطاب ألقاه يوم ٣١ أغسطس سنة ١٩٣٢ بالجمعية البريطانية لتقدم العلوم ، بمناسبة انتخابه رئيساً :

« قد يتصور البعض مدينة فاضلة<sup>(١)</sup> يتحقق فيها توازن كامل بين العمل وثماره ، بين نشر العمال والأجور وتوزيع جميع ما تنتجه الآلات توزيعاً عادلاً ؛ بيد أنه مع فرض تحقق هذا ، يبقى أمامنا السؤالان التاليان :

كيف ينفق الإنسان وقت الفراغ الذي كسبه حين ألقى - تقريباً - جميع أعبائه على عبد آلى لا يكل ؟

هل له أن يأمل في أن يحقق من الارتقاء الروحاني ما يؤهله للانتفاع بالفراغ انتفاعاً مُجدياً ؟

إن الرب يمنح برحمته ذلك الذي يكافح في سبيل هذا الارتقاء الروحاني ويبلغه ؛ وإنه لن يجده إلا إذا سعى إليه . إنني لا أعتقد أن البشرية مقدر لها الضمور والتوقيف عن النمو عن طريق تنمية ما هو - قبل كل شيء - أعظم عطايا الله لها ، ألا وهي : تفنن المبتكر المبدع . إن الإمبراطورية الرومانية قد عجزت عن تحقيق ذلك المستقبل الذي نحاول الآن أن نستشفه عن بُعد ، نتيجة للقصور السعّة التي أتاحتها للوجود البشري . ورغم ذلك ؛ فقد أحسن مؤلف كتاب عنوانه ( فخامة الأسلوب ) كُتب في تاريخ غير محدد خلال فترة ازدهار الإمبراطورية الرومانية ، بأن زوال حدة التوتر الناشئ عن تشييد الدولة العالمية الهلينية ، أدّى إلى فساد السجاييا الإنسانية » :

« إن الإسترخاء الروحاني الذي يقضى فيه جميع الناس أيامهم

— هذا قلة مختارة من البشر — هو أحد الأمراض الخبيثة التي تُصيب الحياة الروحية في نفوس أهل الجيل الحاضر ، وإن مناط هدفنا الوحيد — في عملنا وتجددنا على السواء — هو الحصول على الشهرة والتمتع بمباهج الحياة ، إنه لا يعيننا قط أن نفوز بالركاز الروحي الحقيقي الذي لا يجده المرء إلا حين « يضع قلبه » فيما يقوم به من عمل ، ويفوز بتقدير يستحقه حقاً .

وهذه الآراء التي اهتدى إليها هذا الناقد الهليني ، قد أيدتها في مستهل العصر الحديث من التاريخ الغربي ، أحد زوآد الروحي العلمي الجديد . ونجد الفقرة التالية في كتاب « تقدم المعرفة » الذي نشره فرنسيس باكون عام ١٦٠٥ ميلادية :

« ذلك لأنه ؛ لوحظ حقاً أن الفنون التي تزدهر في الأوقات التي تترعرع فيها الفضيلة هي فنون الحرب . أما فنون المعرفة فتزدهر وقتما تتوقف الفضيلة عن النمو . وتروج فنون المتعة حين تتبدأ قواعدهم الفضيلة . ومن ثم ؛ أشك في أن يكون هذا العصر مشرفاً على دورة الهبوط . وإلى فنون المتع ، أضيف إقبال الناس على المسآخر . ذلك لأن خداع الحواس هو إحدى الحواس » .

إن ممارسة « المسآخر » ؛ تستغرق قدراً كبيراً من استخدام وقت الفراغ في عصر الإسلكى والتليفزيون . وواضح أن الإرتفاع بالطبقة العاملة إلى المستوى المادى للطبقة الوسطى قد صاحبه تدنى الحياة الروحية عند جانب كبير من أهل الطبقة الوسطى :

وهكذا ؛ سرعان ما ألقى ضيوف « سيرس »<sup>(١)</sup> أنفسهم أسرى حظيرة « سيرس » :

(١) سيرس : تذكر الأوديسية لوميروس أنها كانت تغرى البحارة بضيافتها ثم تحيلهم إلى خنازير . وقد استضافت رفقاء عوليس . (الترجم)

ولكن هل يظنون هناك إلى ما لا نهاية ؟

هل هذا مصير يُسلم به الجنس البشرى لنفسه ؟

وهل يرتضى الجنس البشرى - حقاً - أن يحيا أبداً في سعادة دائمة ، في عالم جديد نبيل لا تغيير فيه ، إلا من رتبة الفراغ الغث إلى رتبة العمل الآلى ؟

إن مثل هذا التنبؤ لا يلقى بالا - بالتأكيد - للأقلية المبدعة التى ظلت «عصب العالم»<sup>(١)</sup> في جميع عصور التاريخ . فإن التشخيص القاتم الذى قام به مؤلف «فخامة الأسلوب» في العصر الهليني المتأخر ؛ قد أغفل عنصراً خطيراً غاية الخطورة ، عند فحص الحالة التى كانت تحت بصره ؛ إذ يبدو أنه لم يلق بالآلى شهداء المسيحيين .

ويظهر - وهذا هو الواقع - أن ثمة بوناً شاسعاً يفصل بين التعطل التكنولوجى المنتظر ، وتوقع إستعادة الإزدهار الإقتصادى<sup>(٢)</sup> : أو لعل القارئ يلقى هذا السؤال الشاك :

كيف تسير هذه الأمور ؟

والآن ونحن في منتصف القرن العشرين بعد ميلاد المسيح ، يتعذر علينا أن نجيب على هذا السؤال :

على أن ثمة ما ينبئ بأن مثل هذا الأمل ليس مجرد فكرة مرجوة :

فإن من بين الحيل التى تلجأ إليها الحياة لاستبقاء نفسها في الوجود ؛ هو أنها تعوض عجزها - أو فائضها - في قطاع ، بتجميع فائض - أو لإحداث عجز - في قطاع آخر ؛ ومن ثم ؛ عسانا نتوقع مثل ذلك في

(١) في الأصل : ملح الأرض . (المترجم)

(٢) في الأصل توقع حلول عيد الغنصرة مرة أخرى . وهو عيد الحصاد عند اليهود . وكانوا يحتفلون به بعد انتهاء عملية الحصاد التى تتم بدورها بعد مرور خمسين يوماً من اليوم الثانى من عيد النصح . (المترجم)

محيط إجتماعى يوجد به عجز فى الحرية وفائض من القيود فى محيطى الاقتصاد والسياسة ؛ وهنا يتجلى - فى محيط الدين - تأثير قانون الطبيعة هذا ؛ فى التحريض على طلب الحرية ، وفى التخفيف من سيطرة القيود ؛ ولا مشاحة فى أن هذا هو ما حدث بالفعل فى عصر الإمبراطورية الرومانية .

ومن الدروس التى تُستفاد من عصور اليونان ؛ أن ثمة فى الحياة - دائماً - حداً أدنى من طاقة الوجدان ، لا يقبل الكبت ويصرّ دائماً على أن يعبر عن نفسه فى هذا الاتجاه أو ذاك . لكن يبدو ؛ أنه لا يقل صدقاً عن ذلك ، أن ثمة حداً أقصى للقدر من طاقة الوجدان التى تجدها الحياة تحت تصرفها .

ويستتبع هذا ؛ أن الحياة إذا احتاجت إلى طاقة تُفرزها نشاطها فى أحد المجالات ، فليس لها إلا أن تستمد هذه الطاقة الإضافية مما تقتصده من طاقات فى مجالات أخرى ، والتطبيق الآلى ؛ هو وسيلة الحياة لتوفير الطاقة ؛ ومن قبيل المثال ؛ أن الحياة إذ نجعل من نبض القلب وحركة الرئة فى انقباضها وانبساطها عملاً آلياً ؛ هذه الحياة قد فكت إسرار الفكر والإرادة البشرية ليُستخدما فى غابات أخرى غير مجرد الاحتفاظ المتصل بالحيوية ، من لحظة إلى أخرى ؛ وإذا تصور المرء أنه محتاج دوماً إلى أعمال الفكر وإلى العمل الإرادى ليعث فى رثته كل نفس وفى قلبه كل نبضة ؛ لما توفرت له قط أية فضلة من طاقة ذهنية أو إرادية يذخرها ؛ لالشيء إلا لجرد الحفاظ على حياته ؛ وبعبارة أدق ؛ ما كان ليتيسر لأى كائن شبه بشرى ؛ التطور إلى إنسان كامل .

ولعل هذه المشابهة بين التأثير الإهداعى لتوفير الطاقة فى الجسم الإنسانى ؛ تفودنا إلى فكرة تتصل بكيانه الاجتماعى ؛ وهى أن العقيدة الديلية عرضة للإحمال طالما صرفه الإنسان فكره وإرادته إلى الشئون الاقتصادية ( وهذا

هو حال الغرب منذ نشوب الثورة الصناعية ) ، أو انهماك في الموضوعات السياسية ( وهذا هو حال الغرب منذ بعث عبادة الدولة الهلينية (١) .

وعلى العكس من ذلك ؛ لعلنا نستنتج أيضاً أن القيود الشديدة التي تُفرض اليوم على الحياة الاقتصادية والسياسية للمجتمع الغربي ، قينة بأن تُحرر نفوس أهل الغرب حتى يحققوا غاية الإنسان الحقمة ؛ ألا وهي تمجيد الله والاستمتاع برضائه تعالى ؛

إن بلوغ هذا المطمح الروحي الجميل ، أمر مستطاع على الأقل . ولعل أهل الجيل الحاضر البائس - من رجال الغرب ونسائه - تصلهم بارقة من الضياء الرقيق .

---

(١) يقصد الأستاذ المؤلف بأن عصر النهضة الأوربية قد صاحبه إبتعاش لفكرة ليونانية الله تمجيداً للدولة الإلغمية . وهي فكرة يعزو إليها الأستاذ المؤلف اضطراب أحوال أوروبا الغربية السياسية والاقتصادية ، مما ينذر بانهايار الحضارة الغربية . (المترجم)



الباب الثالث عشر

خاتمة

## الفصل الرابع والأربعون

### كيف قدر لهذا الكتاب أن يكتب

لم يدرس الناس التاريخ ؟

أُجيب كاتب هذه الدراسة شخصياً بأن المؤرخ يستجيب - في دراسة التاريخ - إلى نداء الله له بتتبع خلقه ، بالسعى لمعرفة تعالى ، والمؤرخ هنا - شأنه شأن كل امرئ - سعيد بأن تكون له في الحياة غاية يسعى إليها ، وللمؤرخ زاوية رؤيا واحدة من بين زوايا الرؤيا التي لا تعد ولا تحصى ؛ وإن أخص ما تتميز به مساهمة المؤرخ في التراث الإنساني هو أنه يقدم لنا صورة لإبداع الخالق في حركته الدائبة ، داخل إطار هو - وفقا لتجربتنا البشرية عنه - ذو ستة أبعاد .

فإن زاوية الرؤيا للمؤرخ ؛ تُرينا الكون المادى ، يتحرك منحرفاً عن المركز ، في إطار ذى أربعة أبعاد من المكان في الزمان . كما تُرينا الحياة على كوكبنا تتحرك حركة دائرية في إطار ذى خمسة أبعاد من الحياة الزمان في المكان ، وتُرينا نفوس البشر ، وقد ارتفعت إلى البعد السادس بنفحة من الروح القدس ، وإتيا لتتحرك - وهي تمارس ما قدر لها من التحرر الروحي - إما صوب خالقها ، أو بمنأى عنه .

فإن كنا على حق إذ نرى في التاريخ صورة لإبداع الخالق في حركته الدائبة ؛ فإننا لن تعجب إذا وجدنا أن القوة الفعلية لتأثير التاريخ في العقول البشرية التي تماثل - فرضاً - درجة قابليتها الداخلية لتأثير التاريخ ، وفقاً للظروف التاريخية لمن يتلقاها ، إذ لا مناص من أن تقوم نزعة حب

الاستطلاع ، بتعزيز القابلية لاستيعاب التاريخ . ولكن حب الاستطلاع لن يثور إلا إذا بدت للعيان عملية التغير الاجتماعى . واضحة وضوحاً ساطعاً قوياً .

ومصدقا لذلك ؛ لم يكن أهالى الريف يوماً ما ، أصحاب عقلية تاريخية . لأن الوسط الاجتماعى الذى يعيشون فيه ، لا يحدتهم عن التاريخ ، ولكنه يحدتهم عن الطبيعة . وهذا ما تُنبئ عنه أعيادهم ؛ فإذ كانت أعيادهم الرابع من يولييه<sup>(١)</sup> ، ولا يوم جاي فوكس Guy Fawks<sup>(٢)</sup> ولا يوم إعلان الهدنة<sup>(٣)</sup> . ولكن أعيادهم كانت أياماً لم يُسجلها التاريخ ؛ هى أيام السنة الزراعية التى تتعاقب فى كل عام ؛

بل إن الأقلية التى يُحدتها وسطها الاجتماعى عن التاريخ ، لا يكون تعرضها لإشعاع من الوسط الاجتماعى التاريخى ، كافياً - فى حد ذاته - لإلهام المؤرخ وتكوينه . إذ بدون هذا التطلع المثير الخلاق ؛ تبقى أعظم ما نعرف من هياكل التاريخ - تأثيراً فى النفس ، خرساء لا تحدث أثراً ؛ لأن العيون التى تنظر إليها لا ترى فيها شيئاً .

وهذه الحقيقة القائمة على أن شرارة الإبداع لن تشتعل إلا بفعل استجابة وتحدٍ ، وعابها ذهن الفيلسوف الرحالة الغربى الحديث فولنى Volney ؛ وقتما زار العالم الإسلامى بين عامى ١٧٨٣ - ٨٥ . وكان فولنى قد قَدِمَ من بلاد دخلت إلى مجرى تاريخ الحضارات فى زمنٍ حديث لا يمتد إلى أبعد من حرب هاننبال . فى حين كانت البلاد التى زارها ؛ مسرحاً للتاريخ طوال ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة قبل ظهوره غالباً (فرنسا) . وكانت وقت زيارته حافلة - بما يتفق وذلك التاريخ للعريق -

(١) ٤ يولييه : عيد استقلال للولايات المتحدة الأمريكية . ( المترجم )

(٢) يوم جاي فوكس : هو يوم ٥ نوفمبر . وفيه حاول أحد التآمريين نسف البرلمان

الإنجليزى . ( المترجم )

(٣) إعلان هدنة الحرب للعالمية الأولى فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ . ( المترجم )

بآثار الماضى الماثلة للأنظار ، وعلى الرغم من ذلك ؛ كان الجيل من الناس الذى يعيش فى الشرق الأوسط فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى ، يقبع - غير حافل - بين هذه الأطلال<sup>(١)</sup> الرائعة ، لحضارات بائدة ، لا يتحرك للبحث عن كنه هذه النصب ؛ فى حين دفع هذا التساؤل نفسه ، فولئى من وطنه - فرنسا - إلى مصر . ثم جاءت فى أعقابه ، هذه الجماعة من العلماء القرنسيين النابيين الذين انتهزوا الفرصة التى هيأتها لهم حملة نابليون بوناپرت بعد ذلك بخمسة عشر عاما ؛ ولقد كان نابليون يعلم أنه « يعزف لنا » يستجيب له أفراد جيشه جميعا - حتى جهرته من غير المتعلمين - حين ذكّرهم قبل نشوب القتال فى معركة امبابية الحاسمة بأن أربعين قرنا من التاريخ تنظر إليهم من فوق الأهرام . ولعلنا على ثقة من أن مراد بك قائد المالك فى المعركة ، لم يفكر قط فى إضاعة لحظة من وقته سدى ليوجه عبارة مماثلة تلهب حاسة رفاقه الحالىين من حُب الاستطلاع .

ولقد ذهب فى الآفاق صيت العلماء الفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر مع نابليون ؛ بفضل كشف فد ، الذى مزيدا من الضوء على قضايا التاريخ<sup>(٢)</sup> ؛ قدموه للمجتمع الغربى الحديث النهم إلى التطلع لغزو المجهول . فكان أن بُعثت إلى الوجود فى العالم القديم منذ ذلك التاريخ ، ما لا يقل على إحدى عشرة حضارة بائدة عنى عليها الزمن . هى الحضارات المصرية - البابلية - السومرية - المينوية - الحيثية ؛ بالإضافة إلى الثقافة السندية وثقافة شانج ؛ ويضافت إليها الحضارات : المايانية والياكوتية والمكسيكية والأنديانية ، فى العالم الجديد .

وصفوة القول ؛ لن يقيّض للمرء أن يصبح مؤرخاً دون أن يحركه

(١) ألف فولئى بعد موته من رحلته فى البلاد الإسلامية كتاباً أسماه « الأطلال »

( المترجم )

(٢) يقصد المؤلف : حجر رشيد . ( المترجم )

حب الاستطلاع : بيد أن هذا - في حد ذاته - لا يكفي : فإن حب الاستطلاع إذا لم يوجه نحو غاية معينة ، لا يثير إلا مجرد إحاطة علمية شاملة لا هدف لها . ومن ثم ؛ يتبلور دائماً حب الاستطلاع عند أى من كبار المؤرخين ، في بذل الجهد للرد على طائفة من الأسئلة ذات مغزى عملي بالنسبة لجيله ، وهي أسئلة تمكن صياغتها في عبارة عامة هي « كيف ترتب هذا على ذلك » ؟

حتى إذا استقصينا الأعمال العقلية التي كتبها كبار المؤرخين ، وجدنا أن ثمة - في معظم الحالات - حادثة خطيرة مثيرة قد استثارت عند أولئك المؤرخين إستجابة اتخذت شكل محاولة التشخيص التاريخي لتلك الأحداث ، وقد يكون هذا الحدث مما شاهدوه هم أنفسهم ، أو شاركوا فيه بدور فعال ؛ كما فعل توكيديديس في الحرب الأثينية البلوبونيزية الكبرى وكلاريدون Clarendon<sup>(١)</sup> في « الثورة الكبرى »<sup>(٢)</sup> . أو قد يكون حدثاً طواه الماضي ، لكن ما تزال إنعكاساته تثير إستجابة لدى عقل المؤرخ الحساس . مثال ذلك ؛ ما أثاره إنحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها من تحدٍ دفع جيبون إلى كتابة مؤلفه ، وقتما كان يتأمل أطلال الكايبيتول بعد ذلك بعدة قرون ، وقد يكون الحافظ الخلاق حدثاً مدوياً يبعث على الرضا ، كما هو ظاهر في مثال الحرب الفارسية التي جابهت هيرودوتس بتحدٍ عقلي .

بيد أنه - في أكثر الحالات - تكون كوارث التاريخ الكبرى - بتحدٍها نزعة التفاؤل الطبيعية في الإنسان سبباً هي التي تستدعي من المؤرخ أهدع جهوده .

(١) كلاريدون (١٦٠٩ - ٧٤) : سياسي ومؤرخ لعب دوراً هاماً في عهدى الملكين شارل الأول والثاني . وكان من أنصار الملكية . وحاول تصحيح موقف الملك تجاه البرلمان إلا أن شارل الأول آثر سنوك سبيله الخاص للقائم على تعدي سلطة البرلمان . فلما انتزعت الملكية من سلطانها ذهب كلاريدون مع شارل الثاني إلى المنفى . ولما عاد إلى عرشه عين كلاريدون وزيراً لهالية . ( المترجم )

(٢) الثورة الكبرى : تطلق على فترة حكم كروميل وابنه ( أى إعدام شارل الأول حتى عودة شارل الثاني . ( المترجم )

إن مؤرخاً - كالمؤلف - ولد عام ١٨٨٩ وكان ولا يزال على قيد الحياة عام ١٩٥٥ ؛ قد شهد - حقاً - كثيراً من التغيرات وسمع أصداء هذا السؤال البدائي يلح عليه مدويّاً :

كيف ترتب هذا على ذلك ؟

كيف حدث أولاً وقبل كل شيء أن عاش المؤلف ليشهد آمال الجيل السابق له - وواضح أنها معقولة - وقد خابت وتبددت في قسوة وغلظة ؟

لقد بدا واضحاً لدى دوائر الطبقة الوسطى المقدّرة للحرية في البلاد الديمقراطية الغربية التي تنتمي إلى جيل ولد حوالى عام ١٨٦٠ ميلادية ( قبل أن يصل القرن التاسع عشر إلى ختامه ) أن الحضارة الغربية إذ تسير قُدُماً ، غدت تحمل التقدم البشرى إلى نقطة تجد بعدها - مباشرة - الفردوس الأرضى :

فكيف حدث أن تبدد أمل هذا الجيل على هذا النحو المفجع ؟

وأى خطأ جرى على وجه التحديد ؟

وكيف حدث أن تغيّر المصور السياسى للعالم بحيث ضاعت معالمه بسبب الحرب والشرّ الذى جلبه معه القرن الجديد فى ركابه ؛ فهبط معه عدد الدول الكبرى من ثمان تبادلت العلاقات ، إلى دولتين متنازلتين تقعان خارج أوروبا الغربية ؟

ويمكن إضافة قائمة أخرى من هذه الأسئلة إلى ما لانهاية . وقد انبنت عليها موضوعات تطلب حشداً لا يقل عنها من التحقيقات التاريخية . وإذا كانت مرحلة « عصر الاضطرابات » تعتبر - من ناحية التعريف - نعم المؤرخين ، فلقد ولد المؤلف - لحسن طالع - فى هذا العصر . فأصبح مسيراً فى الواقع بإشباع رغبته فى كشف اللثام عن الأحاجى التاريخية التى ألقها إليه الأحداث الجارية :

غير أن حسن طالعه كمؤلف ، لا ينتهى هنا . فقد وُلِدَ في الوقت المناسب ليتلقى ثقافة هيلينية دسمة تحدّرت مما يعرف بعصر النهضة الغربية الحديثة . وكان قد أتمّ في صيف ١٩١١ خمسة عشر عاماً في دراسة اللاتينية واثني عشر عاماً في دراسة اليونانية ، فكان لهذا التثقيف العريق ، أثره الناجع في إكسابه مناعة ضد داء النعرة الثقافية القومية : إذ يشقّ على رجل الغرب الذي تلقى ثقافة هيلينية ؛ أن يقع بسهولة في خطأ إعتبار عالم المسيحية الغربية أفضل مجتمع يمكن أن يظهر في الوجود . كما أن ثقافته الهلينية ؛ لا تجعله يعالج المسائل التاريخية التي يضعها أمامه - من وسطه الاجتماعي الغربي - دون الرجوع إلى هيلاس<sup>(١)</sup> التي وجد فيها وطنه الروحي .

ومن قبيل المثال ؛ عجزه عن تقصّي أسباب خيبة آمال الجيل الماضي المقدّر للحرية ، إن لم يتذكرك كيف تبددت أوهام أفلاطون في الديمقراطية الأثينية في عصر بركليس ، وما كان له أن يعيش تجربة إندلاع حرب ١٩١٤ ؛ دون أن يدرك أن نشوب الحرب في عام ٣٤١ ق . م ، قد حملت نفس التجربة لتوكيد بديس ؛ وما إن كشفت له تجربته الخاصة مغزى كلمات توكيد بديس وعباراته التي لم تكن - قبل ذلك - تعنى له سوى القايل - أولاشىء البتة - حتى أدرك أن كتاباً ألف في عالم آخر منذ أكثر من ألفين وثلاثمئة سنة ، قد يكون معيناً لتجارب توشك - في عالم القارئ - أن تجتاح الجيل الذي ينتمى إليه .

وهكذا ؛ وجد معنى في القول بأن التاريخين : ١٩١٤ م و ٤٣١ ق . م يعاصر - فلسفياً - أحدهما الآخر ؛

وسنرى أن ثمة - في الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه الكاتب - عاملين لا يتصل أى منهما بشخصه وخده ، وكان لهما أثر حاسم في تناوله « دراسة للتاريخ A Study of History » :

(١) هيلاس : اليونان القديمة . ( المترجم )

العامل الأول - التاريخ الحالى لعالمه الغربى .

العامل الثانى - ثقافته الهلينية .

وبالتفاعل المستمر بين هذين العاملين ، غدت نظرة المؤلف للتاريخ نظرة  
من دوجة :

وهكذا ؛ كلما حملت إليه إحدى الأحداث المفجعة السؤال التقليدى  
الذى يعرض للمورخ « كيف ترتب هذا على ذلك » ، ألغى نفسه وقد حوّل  
صيغة السؤال إلى « كيف ترتب هذا على ذلك فى كل من التاريخين  
الغربى والهلينى » ؟

وبالتالى ؛ غدا ينظر إلى التاريخ كمقارنة فى نطاق حدّين .

ولعل المعاصرين فى الشرق الأقصى ، يُقدِّرون فى بحث التاريخ ، وجهة  
النظر المزدوجة هذه ويسلمون بها ، نظراً للدور الذى كانت تلعبه اللغة  
والآداب القديمة لحضارة سالفه فى مجال التربية التقليدية - حتى ذلك الوقت -  
على نحو لا يقل شأواً عن الدور الذى قامت به الثقافة اليونانية القديمة فى  
الثقافة الغربية الحديثة . وإن مؤلفاً من مريدى كونفوشيوس ؛ لم يجد نفسه -  
كما فعل مؤلف هذه الدراسة - عاجزاً عن تفسير حدّث من الأحداث  
الجارية ، دون أن يذكره بحدّث ماضٍ مماثل ، له لديه قيمة أعظم . بل  
ربما كانت حقيقته أوضح من الأحداث التى جرت بعد ذلك ، والتى حفزته  
إلى إعمال الفكر فى تأثيرها الذى يتماثل مع حكمة صينية قديمة .

والفارق الأساسى بين تفكير عالم صينى ذى ثقافة كنفوشيوسية فى عصر  
« تشينج Ching » المتأخر ، وعالم إنجليزى معاصر له صاحب ثقافة هلينية فى  
أواخر العهد الفيكتورى ؛ الفارق الأساسى بينهما هو أن الباحث الصينى فى  
شئون البشر ، قد يظل مكثفياً بإجراء مقارناته التاريخية فى نطاق حدّين اثنين  
فقط . على حين لن يقع ذلك الباحث الإنجليزى من أواخر العصر الفيكتورى ،



بالبقاء في إطار هذا اللون من التفكير ، ولا يرتاح حتى يتوسع مجاله الثقافي إلى مدى أرحب .

ولقد يبدو للباحث الصيني الذي تلقى ثقافته التقليدية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، أن الفكرة القائلة بعدم وجود حضارة تستحق تفكيره الجدوى - عدا الحضارة الصينية وحضارة الشرق الأقصى التي خلفتها هذه الفكرة - إلا بدعاً . ولن تخطر مثل هذه الفكرة على بال أى باحث غربي من أهل ذلك الجيل .

ذلك لأن المجتمع الغربي الذي ينتمى إليه الباحث الغربي ؛ قد اتصل اتصالاً قوياً خلال القرون الأربعة الماضية بما لا يقل عن ثمان مجتمعات أخرى من نوعه . ومن ثم ؛ استحال على العقل الأوربي - استحالة مضاعفة - أن يتجاهل أهمية الحضارات الأخرى عدا حضارته ؛ أو ينكر قيمة الحضارة الهلينية . فلقد مضى هؤلاء الغربيون الذين لم يهدأ لهم - خلال القرن الماضي - بال في البحث والتقصي ، والذين وفقوا في غزو المحيط لأول مرة بعد أن اقتحمه كولومبوس وفاسكو دى جاما ؛ مضوا يتقبون عن ماض عنى عليه الزمن .

وإن مؤرخاً غربياً يعيش في هذا الجيل الذي امتلك هذا الأفق التاريخي الرحب وتحمله ثقافته اليونانية على إجراء مقارناته التاريخية في إطار حلدين اثنين ؛ هذا المؤرخ الغربي لن يقنع إلا إذا راح يجمع - بقصد الدراسة المقارنة - أكبر عدد يستطيع جمعه ، من الظواهر المتصلة بأنواع المجتمعات المماثلة التي لم يكن المجتمعان الهليني والغربي سوى مجتمعين اثنين منها :

حتى إذا وُفق في مضاعفة حدود مقارناته - أكثر من عشر مرات - لم يعد في وسعه أن يتجاهل الموضوع الرئيسي الذي أوشكت أن تثيره مقارنته الأصلية التي قامت على أساس حلدين اثنين ؛ فإن أشد أحداث تاريخ الحضارة الهلينية إنذاراً بالشوم ؛ قد جرى عام ٤٣١ ق : م ، بانتدلاع الحرب الأثينية البلوبونيزية العظمى ؛ فكانت نذيراً بانحلال المجتمع الهليني .

وإذا كان ثمة ما يُتَّبَعُ عن جدوى الوسيلة التي جرى عليها الكاتب لعقد مقارنات بين تاريخي المجتمعين الهليني والغربي ؛ فلن يكون المجتمع الغربي بمنجى عن احتمال التردى في نفس المصير الذي لقيه المجتمع الهليني . وعندما وجد الكاتب - وقما انتقل إلى دراساته الأوسع مدى - أن أغلبية واضحة من الحضارات التي أمكنه تجميعها ، قد أصابها الفناء فعلا ؛ بدا أن لا مناص له من أن يستنتج أن الفناء هو بالفعل احتمال يواجه أية حضارة ، بما في ذلك الحضارة التي ينتمي إليها :

فما هو « باب الفناء » هذا الذي اختفت وراءه حضارات عديدة ازدهرت وقتاً ما ؟

هذا السؤال دفع الكاتب إلى دراسة لإنهيار الحضارات وتحللها ، ومن ثم ، انتقل إلى دراسات تكملية عن نشوء الحضارات وارتقاءاتها . وعلى هذا النحو ؛ جرت كتابة هذا الكتاب « دراسة للتاريخ »

## جداول تفسيرية

وردت الجداول الأربعة التالية - كما هي - في مؤلف الأستاذ توينبي في صورته المطولة ، وتحتوى على طائفة من الأسماء والوقائع لم يرد لها ذكر في المختصر الذى نشره المستر سومرفيل Somervell . إذ قد اضطر بطبيعة عمله إلى اطراح عدد كبير من التفسيرات التاريخية الواردة في المؤلف الأصيل : كما أنه اقتضب قدرأ كبيراً من الإيضاحات التفصيلية ، التى ما كان ليتأتى إستبقاؤها إلا باخترالها .

وللجداول فائدة إجمال طائفسة من النتائج التى انتهى إليها بحث الأستاذ المؤلف .

الجدول الأول  
المدول العالمية

الاسم	فترة النفوذ العالمي	السلالة العالمية	مصر الاضطرابات	المخاضات
المؤسسون من نفس البلاد (من أور -) المجددون رجال حدود (مورونيون) مل المؤسسون من نفس البلاد (كداثيون مثلا . خلفاؤهم من البرابرة (أخيجهون) وأجانب (سلطونون)	حوالي ٢٢٩٨-١٩٥٥ ق.م ١١٠ - ٥٢٩ ق.م	أمير طورية سومر وأكاد دول الجهات الأربع	حوالي ٢٢٩٨-٢١٧٧ ق.م	السورية
مل المؤسسون من البلاد (٢) من ماجادا مثلا. المؤسسون من ماجادا	٣٢٢ - ١٨٥ ق.م ٣٩٠ - حواك ٤٧٥ ق.م	الأمير طورية اللورية أمير طورية جورجا	٣٢٢ ق.م -	السنية
المؤسسون رجال حدود (من تسين ) . خلفاؤهم من البلاد ( أسرة عان السانية واللائقة )	٢٢١ ق.م - ١٧٢ ق.م	أمير طورية تسين وهان	١٢٤ - ٢٢١ ق.م	الصينية
المؤسسون رجال حدود (رومانيون - المجاودون رجال حدود من إيليريا	٣١ ق.م - ٣٧٨ ق.م	الأمير طورية الرومانية	٤٣١ - ٣١ ق.م	البيانية
رجال حدود (من طيبة) » »	حوالي ١٠٠-١٢١ ق.م حوالي ١٥٨٠-١١٧٥ ق.م	الأمير طورية الوسطى الأمير طورية المدينة	حوالي ٢٢٤٤-٢٠٧٠ ق.م ٢٠ ق.م	الاصرية
رجال حدود (من موسكو) رجال حدود (من كراتنو)	١٤٧٨ ق.م - ١٨٨١ ق.م ١٥٩٧ - ١٨٦٨ ق.م	الأمير طورية المسكونية ديكتاتورية هيبوثي وشرعوية توكوجاوا	١٠٧٥ - ١٤٧٨ ق.م ١١٨٥ - ١٥٩٧ ق.م	السيخية الأرتورية (أوروسيا) الشرقية القسرية ( ف اليابان )

رجال حدود (من فرنسا)

١٧٩٧ - ١٨١٤ ق.م

أمير طورية فاطيون

١٣٧٨ - ١٧٩٧ ق.م

الوسط

رجال حمود (من الفرس)	١٩١٨ - ١٥٢٦ م	ملكية هابسبرج النمساوية	١٥٢٦ - (٣) ١١٧٨ م	النمسية (دراغا ضد هجوم الماينين)
رجال حمود (من كوزوكو) - المستقلون دخلاء (من أسبانيا)	١٥٣٣ - ١٤٣٠ م	أمير طوربة الإنكا (الجهات الأربع)	١٤٣٠ -	الانديانية
رجال حمود (من إيران) » (من الجزيرة العربية) » (من ألبانيا)	حوالي ٥٢٥ - ٢٣٢ ق.م حوالي ٦٤٠ - ٩٦٩ م حوالي ١٢٥١ - ١٣٥١ ق.م ١٦٤٤ - ١٨٥٣ (٥)	الأمير طوربة الأجنبيّة الثلاثة العربية أمير طوربة النبول دولة اللانغو	حوالي ٩٣٧ - ٤٢٥ ق.م ٨٧٨ - ١٢٨٠ م	العربية العربية القسريّة (الكيان الأصل) (دولة اللانغو)
رواد - رجال المهدود البرابرة (أو الككة) المؤسسون دخلاء (أسبانيا)	١٥٢١ - ١٨٢١ م	نهبية الملك الأسبان في أسبانيا الجديدة	١٥٢١ -	الأمريكية الوسطى
(دخلاء) هغاليون	١٢٧٢ - ١٧٦٨ م	الأمير طوربة النمانيّة	١٣٧٢ - ٩٧٧	المتنجية الأرثوذكسية (الكيان الأصل)
(دخلاء) مبول (دخلاء) بريطانيون	١٧٥٢ - ١٥٧٧ م ١٨١٨ - ١٩٤٧ م »	السلطان المبول البريطاني »	حوالي ١١٧٥ - ١٥٧٢ م	الهندية
لا يوجد دليل	حوالي ١٧٥٠ - ١٤٠٠ ق.م	أمير طوربة ميتوس البحرية	١٧٥٠ ق.م -	البيزورية (في كريت)
لا يوجد دليل	٣٠٠ - ٩٦٠ م	العروة اللانديّة	حوالي ٣٠٠ ميلادية	اللانديّة

- (١) قد يُشاريح الكلاسيكيون في المقارنة البابلية إما تحت بند التوسمين من نفس البلاد أو تحت بند التوسمين رجال حمود .
- (٢) قد ينظر إل ماجادا Magadha إما كجزء من داخلية التلم السنتي قبل العصر البيزوري أو يانك ، أو تشير إحد الترق العالم السنتي خلال تلك المصوّر .
- (٣) تاريخ تنوب أول العرب بين البحر والكرمين رسم أسلاف الماينين في الأمير طوربة الرومانية العربية .
- (٤) تاريخ استيلاء المساء من تاريخ Traiping مل نانكج .

## الجدول الثاني الفلسفات

الفلسفة	الحضارة
Atonism (عقيدة)	المصرية
Viracòchaism	الانديانية
Confucianism	الصينية
moism	المصرية (٢)
Taoism	التاوية (٣)
Zervanism (عقيدة)	السورية
Hlnayanism Buddhism	البوذية الهينايانية
gainism	الجانية
Cartesianism	الديكارتية
Hegelianism	الهيغلية
Platonism	الأفلاطونية
Stoicism	الرواقية
Epicureanism	الأيقورية
Pyrrhonism	البيرونية (الشك)
Astrology	التنجيم
	البابلية

(١) الفيراكوتشية : نسبة إلى فيركوتشا ملك الإنكا Inco في أمريكا اللاتينية . وقد حاول فرض عقيدة دينه على رعيته ففشل . ( المترجم )

(٢) نسبة إلى الفيلسوف الصيني مو تز Mo Tzu .

(٣) I تعني كلمة تارو الطبيعة إبان قيامها بدورها . ويترجمها بعض الكتاب الغربيين بـ روح الكون ، لكنها - كما ذكره لي أحد الأساتذة الصينيين في بكين في أبريل ١٩٦٥ - تعتر بـ فكرة للروح إبان نشاط تلقائي . ( المترجم )

## الجدول الثالث الأديان العليا

مصدر الإلهام	الدين الأعلى	الحضارة
أصلية	عبادة تموز	الشميرية
هل هي دخيلة ؟ - هل أصلها سومري ؟	عبادة أوزيريس	المصرية
دخيلة ( من مصدر هندي - هيليني - سوري )	بوذية المهايانا	الصينية
أصلية ، لكنها غاكاة للمهايانا	التاوية المتعدثة	
أصلية	الهندوكية	الهندية
أصيل	الإسلام	السورية
دخيلة ( أصلها سوري )	المسيحية	الغيلينية
دخيلة ( أصلها سوري )	المشترية	
دخيلة ( أصلها سوري )	Manichaeism المانوية	
دخيلة ( أصلها سندي )	المهايانية	
دخيلة ( أصلها مصري )	عبادة إيزيس	
دخيلة ( أصلها حثي )	عبادة سيثيل	
أصلية ( فلسفة )	الأكفلاطونية الجديدة	
دخيلة ( أصلها سوري )	اليهودية	البابلية
دخيلة ( أصلها سوري )	الزرادشتية	
دخيلة ( أصلها إيراني )	البهاية	الغربية
دخيلة ( أصلها إيراني )	الأحدية	
دخيلة ( أصلها إيراني )	الشيعة الإمامية	المسيحية الأرثوذكسية ( الكيان الأصلي )
شبه دخيلة ( ذات صبغة إيرانية )	البيدر الدينية	المسيحية الأرثوذكسية ( في روسيا )
أصلية	الطائفية	
دخيلة ( أصلها غربي )	البروتستانتية الإحيائية	
دخيلة ( أصلها غربي )	الكاثوليكية	الشرق الأقصى (الكيان الرئيسي)
شبه دخيلة ( ذات صبغة غربية )	T'aip'ing التايبينج	
شبه دخيلة ( من الكيان الأصل لحضارة الشرق الأقصى )	جودو	الشرق الأقصى ( في اليابان )
أصلية ( من جودو )	جودو شينشو	
أصلية	النيشيرية Nichirenism	
شبه دخيلة ( من الكيان الأصل لحضارة الشرق الأقصى )	Zen زن	
شبه دخيلة ( صبغة إسلامية )	الكابيرية والمسيحية	الهندية
شبه دخيلة ( صبغة غربية )	براهمو ساماج	

الجدول الرابع  
عصابات الحرب من المتبربرين

ش ش = شمال شرق  
ش غ = شمال غرب  
ج ش = جنوب شرق  
ج غ = جنوب غرب

الديانة	الشعر	المتبربرون	الحدود	الدولة العالمية	الخصاصة
مجمع آلهة القبط	الملاحم السانسكريتية	الجاتا Outaeans البدو الأوراسيون (والأرياس) الكاسيون	ش ش	إمبراطور سومر وأكداد	السورية
مجمع الآلهة الحيثية		الجليزون	ش غ		
الزراوشية		البدو الأوراسيون (والأسقوذيون) الميديون والفرس	ش ش	الإمبراطورية البابلية الجديدة	البابلية
	الملحمة السانسكريتية (مهذبة)	الساكاس Sakas	ش غ	إمبراطورية الموريا إمبراطورية الجوبتا	السنديّة
		الهون	ش غ		
		الجوركا	ش غ	إمبراطورية تسين وهان	الصينية
		البدو الأوراسيون	ش غ		
المسيحية النورية القسوى	الملحمة الإبرانية	كلت الجزيرة	ش غ	الإمبراطورية الرومانية	الهلينية
مجمع الآلهة البروتونية	الملحمة التيونوتية	تيتون القارة	ش غ		
القارية أو لام الأرية		البدو الأوراسيون الهون	ش ش		
الإسلام	الشعر الجاهلي	العرب	ج ش		
		البربر	ج غ		
عبادة ست		التوبيون	جنوب	الدولة الوسطى	المصرية
مجمع الآلهة الأديبية	الملاحم المومرية	المكسوس	ش ش		
		الآخيون	شمال	الدولة الحديثة	
عبادة ياهوى		الهيبيون	ش غ		
		البرانيون والأراميون	شرق		
لامية البوذية		البدو	ج ش	الإمبراطورية المسكوفية	المسيحية الأرثوذكسية (ق روسيا)
المهايانية		الكنز الأوراسيون الكالموك	ش ش		





( تابع ) إجلدول الرابع

الديانة	الشعر	المتجر بران	الحدود	الدول العالمية	الحضارة
	الأشعسار الفئانية المسيحين الأرثوذكس اليوجوسلاف	الصر ب	ش غ	الإمبراطورية العثمانية	المسيحية الأرثوذكسية (لكيان الأسفل)
الطريقة البكتاشية	الشعر البطول الألباني شعر يوناني الروملي وأشعار الصوص	الألبانيون يونان الروملي	ش ش		
الرهاوية النيمدية مهديه كردوان		اللاظ الأكراد ألمرب العرب الأزبك الأفغان	ش ش ج ش جنوب ش غ	الحكم المغولي	الهندية
مجمع الآفة الأوريبية عبادة ياموى	ملاحم هومير وس الشعرية	Achaeons الغريثون والأراميون الأفغان	شمال شرق ش ش	الحكم البريطاني إمبراطورية مينوس البحرية	الليتوية
		Gasgas الغرجيون الأشخيون Bastrawal الباسترازيون	ش ش ش غ ج ش ش غ	عصر اضطرابات	الإيرانية
مجمع الآفة الأوريبية	ملاحم هومير وس الشعرية	السارمائيون Varangians الفارناجيون Pechenegs البتشنجيون القوزاق قرغيز القازاق	شرق ش غ شرق ش غ ش ش	انتطع الأسقوذى الملكي	داوة الأوراسية
المسيحية الأرثوذكسية	الأشعار الفئانية الحامية الروسية أشعار قرغيز القازاق الفئانية			قطع الخزر لقطع الذهبى	

سياق الاستدلال

# الباب الأول

## المقدمة

### الفصل الأول : وحدة الدراسة التاريخية

إن وحدات الدراسة التاريخية الواضحة المعالم ؛ ليست هي الأمم أو العصور ، لكنها المجتمعات . ويبدى فحص التاريخ الإنجليزي - قصلاً - قصلاً - عدم قابليته للفهم كشيء في حد ذاته ؛ لكنه لا يفهم إلا جزءاً من كل أكبر . ويشغل هذا الكل أجزاء ( من قبيل المثال : إنجلترا وفرنسا وهولندا ) ؛ تخضع لعوامل ماثرة مطابقة ، أو تحديات ؛ لكن تختلف طرائق رد فعلها عليها .

وتفسيراً لهذا الرأي ؛ أورد المؤلف مثالا من التاريخ الهليني :

أما « الكل » أو « المجتمع » الذي تنتمي إليه إنجلترا ، فقد اصطلح المؤلف على تسميته بالمسيحية الغربية . ولقد حدد امتداده المكاني في أوقات مختلفة ، كما عين أصوله الزمانية . فوجد أنه يرجع إلى زمن أبعد ، لكنه ليس أقدم كثيراً من تميز أجزائه بعضها عن بعض . ويكشف إرتياد أصوله عن وجود مجتمع آخر - غداً الآن ميتاً - هو المجتمع اليوناني الروماني ( أو الهليني ) الذي يتصل به المجتمع الغربي بصلة البنوة .

وواضح كذلك ؛ أن ثمة عدداً من المجتمعات القائمة الأخرى هي المجتمعات . المسيحية الأرثوذكسية - الإسلامية - الهندية - الشرقية القصوى ، يضاف إليها مخلقات المجتمعات المتحجرة الغير المعينة الشخصية في هذه المرحلة ، مثل اليهود والبارسين .

## الفصل الثاني : الدراسة المقارنة للحضارات

يهدف هذا الفصل إلى التحقق من شخصية جميع المجتمعات - أوبالأخرى الحضارات - وتعيينها وتسميتها .

ومناطق طريقة البحث الأولى ؛ تناول الحضارات القائمة التي تحققت شخصيتها بالفعل ، وفحص أرومتها والنظر فيما إذا كان في وسعنا العثور ، على حضارات إندوست في الوقت الحاضر ، تتصل بها الحضارات القائمة بصلة البنوة ؛ على غرار ما وجد من انتساب المسيحية الغربية إلى الحضارة الهلينية .

ويحمل أمارات هذه البنوة :

( أ ) دولة عالمية ( مثل الإمبراطورية الرومانية ) .

( ب ) فترة فراخ تظهر فيها :

١ - عقيدة دينية .

٢ - هجرات البرابرة خلال عصر بطولة .

ويعتبر ظهور العقيدة الدينية والهجرات ، نتيجتين على التوالي ، للبروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية ، لحضارة تموت .

وبالسير على هدى هذه القرائن ، نجد :

أن المجتمع المسيحي الأرثوذكسي ، يتصل بصلة البنوة - مثل المجتمع

الغربي - إلى المجتمع الهليني .

وإذا تتبعنا المجتمع الإسلامي إلى أصوله ؛ نجد أنه ذاته ، حصيلة اندماج

مجتمعين كانا في الأصل متميزين هما : الإيراني والعربي ؛ وباقتفاء أثر هذين

المجتمعين ؛ نجد - خلف ألف سنة من « المداخلة الهلينية » - مجتمعاً مندرسا ،

يدعى « المجتمع السوري » .

ونجد وراء مجتمع الشرق الأقصى : مجتمعا صينيا ،  
وتعتبر المجتمعات المنحجرة بقايا واحد أو أكثر من المجتمعات البائدة .  
ونجد المجتمع المينوى وراء المجتمع الهليني . بيد أننا نلاحظ أن المجتمع  
الهليني — عكس المجتمعات التي تتصل بصلة البنوة إلى مجتمعات أخرى —  
لم يعتنق عقيدة دينية كشفتها البروليتاريا الداخلية للمجتمع المينوى . ومن  
ثم ؛ لعل المجتمع الهليني ، لا ينحدر تماما عن المجتمع المينوى .

وراء المجتمع السندي : نجد المجتمع السومرى .  
وبالإضافة إلى المجتمع السندي ، نجد مجتمعين آخرين هما الحيثى والبابلى ،  
يعتبران عقين للمجتمع السومرى .

ليس للمجتمع المصرى سلف ينتسب هو إليه ، كما أن ليس له خليفة .  
وفى وسعنا أن نحقق فى العالم الحديد ، ذاتية أربعة مجتمعات : الأندىانى  
والياكوتى والمكسيكى والمياياني .

ومن ثم ؛ يصبح مجموع ما لدينا تسعة عشر نوعا للحضارات . ولوقسمنا  
المجتمع المسيحى الأرثوذكسى إلى : أرثوذكسى بيزنطى ( فى الأناضول  
والبلقان ) وأرثوذكسى روسى ؛ وقسمنا مجتمع الشرق الأقصى إلى صينى  
ويابانى / كورى ، يصبح لدينا واحد وعشرون مجتمعا

### الفصل الثالث — قابلية الحضارات للمقارنة

#### ١ — الحضارات والمجتمعات البدائية :

تشارك الحضارات على أية حال فى نقطة واحدة ، مدارها أنها نوع  
آخر ، غير نوع المجتمعات البدائية .

وهذه المجتمعات : أكثر حداً بكثير من الحضارات لكنها — أفراداً —  
أصغر من أفراد الحضارات بكثير .

٢ - خطأ فكرة وحدة الحضارة :

ناقض المؤلف الفكرة التي وصفها بالضللال ، القائلة بأن ثمة حضارة واحدة هي الحضارة الغربية ؛ ولتفظها . كما ناقش نظرية إستطارة الحضارة القائلة بأن مصر هي أصل جميع الحضارات ، ولم يقبلها .

٣ - الدفاع عن فكرة قابلية الحضارات للمقارنة :

تعتبر الحضارات - نسبيا - ظاهرة حديثة للغاية في التاريخ البشرى . فإن أقدمها لم ينشأ أبعد من ستة آلاف سنة مضت . ولذلك روى معاملتها باعتبار أنها تنتمي لنوع واحد ، يعاصر بعضه بعضا من الناحية الفلسفية . ويقر المؤلف أن القول بأن التاريخ لا يعيد نفسه ، لا يحول دون الإجراء المقترح ، وهو التماضي بأن الحضارات متعاصرة . وقد وصف المؤلف هذا القول بأنه نصف الحقيقة .

٤ - التاريخ والعلم والمصنف الخيالي :

هذه هي وسائل ثلاث مختلفة لتقديم موضوعات الفكر وبحثها . ومن بينها ظواهر الحياة البشرية . ويفحص المؤلف الاختلافات بين هذه الأساليب الفنية الثلاثة ويناقش استعمالات العلم والمصنف الخيالي ، في عرض مبحث التاريخ .

## الباب الثالث

### بدايات الحضارات

#### الفصل الرابع : المشكلة وكيف لا تحل

١ - استعراض المشكلة :

من بين مجتمعاتنا الحضارية الواحد والعشرين ، ثمة خمسة عشر تنصل بصفة البتة بحضارات سابقة . لكن ستة مجتمعات فقط قد انبعثت مباشرة

من الحياة البدائية . والمجتمعات البدائية هي في حالة سكون في الوقت الحاضر ، لكن من الواضح أنها ما كانت - أصلاً - إلا في حالة تقدم ديناميكي . فإن الحياة الاجتماعية أقدم من الجنس البشري نفسه ، إذ توجد في محيط الحشرات والحيوانات . ولا بد أن شبيه الإنسان قد برز إلى مستوى الإنسان ، ظل حماية المجتمعات البدائية . وهذا تقدم يعتبر أعظم من أى تقدم حققته حضارة من الحضارات . ومع ذلك ؛ فإن المجتمعات البدائية - كما نعرفها - هي حالة سكون . ومناطق المشكلة هو : لماذا ، وكيف تحطمت « قرصة العادة » البدائية هذه ؟

## ٢ - الجنس :

إن العامل الذى نبحت عنه ، يجب أن ينحصر إما في صفة خاصة في الكائنات البشرية التى بدأت عملية التحضر ، أو طائفة من مظاهر بيئتها وقت بداية الحضارة ، أو في شئ من التفاعل بين الجنس والبيئة . ولقد بحث المؤلف أول هذين الرأيين المتصل بوجود جنس متفوق تفوقاً فطرياً كالجنس النوردى مثلاً ، وأثبت بطلانه ،

## ٣ - البيئة :

بحث المؤلف الرأى القائل بأن أنواعاً من البيئات توفر الأسباب السهلة الميسرة للحياة ، وتتيح مفتاح أصل الحضارات . وقد أثبت بطلان هذا الرأى :

## الفصل الخامس : التحدى والاستجابة

### ١ - المفتاح الأسطورى :

يُعزى ضلال الرأيين اللذين سبق بحثهما ونبذهما ، إلى تطبيقهما منهاج العلوم المادية أى علمى الحياة والجيولوجيا ، على مشكلة ؛ هي في الواقع معنوية .



ويوحى استعراض الأساطير الكبرى التي أودعها الجنس البشرى حكمته ،  
 باحتمال أن الإنسان قد حقق الحضارة - لا نتيجة لمواهب بيولوجية عليا  
 أو بيئة جغرافية - ولكن استجابة لتحدي موقف ذى صعوبة خاصة ،  
 استثارة الإنسان لبذل جهد لم يقم به من قبل :

## ٢ - تطبيق الأسطورة على المشكلة :

كان السهب الأفراسي (الصحراء الكبرى والصحراء العربية ) قبل  
 فجر الحضارة ، أرض رعى عامرة بالمياه : وطالع الجفاف الطويل الأمد  
 والمتتالي هذه المراعى ، فجابه سكانها بتحد استجابوا له بطرائق مختلفة :  
 تمسك البعض بأرضهم وغيروا عاداتهم ، فابتكروا نمط الحياة البدوية ؛  
 ونقل آخرون مواطنهم صوب الجنوب إلى المناطق الاستوائية ؛ متبعين  
 أثر المرعى المرتدة . ومن ثم احتفظوا بطريقة حياتهم البدائية ، التي ما يزالون  
 يعيشونها حتى الآن .

وآخرون ولجوا مستنقعات وغابات دلتا النيل ، فجاهوا بذلك التحدي  
 الذى تمثله . وعملوا على تخفيفها ، فكان أن أقاموا الحضارة المصرية .

وانبعثت الحضارة السومرية بنفس الطريقة ومن نفس الأسباب ، فى  
 دلتا الدجلة والفرات .

وانبعثت الحضارة الصينية فى وادى النهر الأصفر . ولا تُعرف طبيعة  
 التحدي الذى برز إلى الوجود . لكن يبدو من الاستقراء ، أن الظروف  
 كانت أبعد من أن نوصف بالسهولة .

وانبعثت الحضارة المايانية من تحدى غابة استوائية وانبعثت الأنديانية  
 من تحدى هضبة كثيفة .

وانبعثت الحضارة المينوية من تحدى البحر . وكان مؤسسوها لاجئين  
 من شواطئ أفريقيا التى أصيبت بالجفاف . فامتطوا البحر واستقروا فى كريت

وغيرها من جزائر بحر إيجة . ولم يأتوا في بدء عهدهم من البر الأقرب في آسيا وأوروبا .

أما بالنسبة لحالات الحضارة التي تنتسب لغيرها ، فلا بد أن التحدى الذى أبرزها إلى الوجود ، قد جاء فى الأصل - لا من العوامل الجغرافية - ولكن من البيئة البشرية ، أى من الأقليات المسيطرة للمجتمعات التي تتصل بها بصلة الجنس :

وتعريف الأقلية المسيطرة ، أنها طبقة حاكمة تعطلت وظيفتها القيادية ، فانقلبت إلى طاغية . وتستجيب البروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية للحضارة المهارة لهذا التحدى ، عن طريق الانفصال عنها : ومن ثم تضع أسس حضارة جديدة .

### الفصل السادس : فضائل المشقة

يمكن تفسير بدايات الحضارات - وفقاً لما ورد فى الفصل السابق - فى الفرض القائل بأن الأحوال الصعبة - أكثر من السهلة - هى التي تولد هذه الأعمال المحيطة .

ويقرب المؤلف هذا الفرض إلى حيز الوقائع ، بفضل التفسيرات التي يحصل عليها من المواقع التي سبق أن ازدهرت الحضارة فى ربوعها ، لكنها أخفقت بعد ذلك . ثم كان أن انكفأت الأرض إلى حالتها الأصلية :

إن ما كان وقتاً ما مشهداً للحضاراً المايانية ، هو فى الوقت الحاضر ، غابة استوائية .

وازدهرت الحضارة السندية فى سيلان فى النصف الغربى الممطر من الجزيرة لكنه أصبح الآن قاحلاً تماماً . وإن ظلت آثار نظام الرى السندى تشهد على ازدهار الحضارة هناك .

وتقوم أطلال بصرى وتدمر فى واحات صغيرة فى الصحراء .

وتدل التماثيل القائمة في جزيرة إيستر - وهي من أقصى الأماكن بعدا في المحيط الهادى - على أنها كانت مركزاً لحضارة بولونيزية .

وتعتبر إنجلترا الجديدة التى قام مستعمروها الأوربيون بدور غالب في تاريخ أمريكا الشمالية ، من أكثر أجزاء القارة كآبة وجديدا .

وقامت المدن اللاتينية في مقاطعة كامبانا الرومانية - وكانت حتى وقت قريب مباءة للملاريا - بدور عظيم في قيام سلطان روما . عكس الدور الضئيل الذى قامت به كابوا التى تتمتع بمركز ممتاز .

كذلك يورد المؤلف صوراً مستخلصة من المؤرخ اليونانى هيرودوتس ومن الأوديسية ومن سفر الخروج .

ولقد لبث أهالى نياسالند - حيث الحياة ميسرة - متوحشين بدائين حتى وفد إليهم غزاة من أوروبا البعيدة القاسية المناخ .

## الفصل السابع : تحدى البيئة

### ١ - حافز البلاد الشاقة :

يورد المؤلف سلسلة من أزواج البيئات المتجاورة . ونجد البيئة المتدعة في كل : المنطقة « الأشد وعورة » . ولها كذلك سجل أشد ضياءاً ، كمنشى لشكل أو آخر من أشكال الحضارة .  
ويطالعنا في هذا الشأن :

وادي النهر الأصفر ووادي اليانجتس - آتيكا وبوتنيا - بيزنطة وكاليدون - إسرائيل ، فينيقية وفلسطين - براندنبرج وأرض الراين - اسكتلندا وإنجلترا - الجماعات المختلفة للمستعمرين الأوربيين في أمريكا الشمالية ،

### ٢ - حافز الأرض الجديدة :

نجد أن الأرض « البيكر » تُبرز إستجابات أشد حيوية من الأرض التى

سبق اقتحامها بالفعل ، وشغلها مقيمون متحضرون ، فيسروا المعيشة فيها ،  
ومن ثم ؛ إذا ما تناولنا كل الحضارات التي تتصل بصلة البنوة بحضارات  
أخرى ، نجد أنها قد أبرزت أعجب تجلياتها في أماكن خارجة عن المنطقة  
التي شغلها الحضارة المنشئة . ويتبدى بصورة خاصة تفوق الاستجابة التي  
تستثيرها أرض جديدة ، إن كان الوصول إلى الأرض الجديدة يتطلب  
عبور البحر .

ويورد المؤلف أسباب ذلك ؛ كما يورد أسباب ظاهرة إرتقاء الدراما  
في الموطن الأصلي ، والملاحم الشعرية في المناطق المستوطنة عبر البحار .

### ٣ - حافر الضربات :

يورد المؤلف أمثلة مختلفة من التاريخ الملبى والغربي لتفسير المراد بالقول  
بأن الهزيمة الساحقة الفجائية ، كيفية باستئثار الجانب المهزوم ، لترتيب  
نظام داره ، والاستعداد لتحقيق إستجابة منتصرة .

### ٤ - حافر الضغوط :

تبدى الأمثلة المختلفة أن الشعوب التي تشغل مواقع حدود وتعرض  
لعدوان متصل ، تُظهر إستطالة أشد إشراقا من جيرانها أصحاب  
المواقع المحمية .

ومصادقا لذلك ؛ كان العثمانيون الواقعين تحت ضغط حدود  
الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، في موضع أفضل من القرمانيين القاطنين  
شرقهم . وكانت للنمسا حياة جارية أفضل من حياة بافاريا ، بفضل تعرض  
النمسا بإستمرار لعدوان الأتراك العثمانيين :

ويبحث المؤلف - من وجهة النظر هذه - موقف الجماعات المختلفة في  
بريطانيا ومصائرهم خلال الفترة الواقعة بين سقوط روما والفتح النورمندی ،

٥ - حافز النقم :

ما برحت طوائف وشعوب تعاني طوال قرون ، صنوفاً مختلفة من النقم أنزلتها بها طوائف وشعوب كانت لها السيادة عليها . وتستجيب - بصفة عامة ، الشعوب والطوائف التي أصابها النقم ، لتحدى الحرمان من المشاركة في فرص ومزايا معينة ، بإبراز طاقة استثنائية ، وإظهار أهلية غير عادية في الاتجاهات المفتوحة . ومثلها في هذا الشأن ، مثل الأعمى الذي تقوى لديه حاسة السمع ، قوة خارقة .

وكان الرق ، أثقل تلك النقم . بيد أنه انبعثت خلال القرنين السابقين للميلاد ، من حشود الأرقاء الذين استُجلبوا إلى إيطاليا من الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، طبقة من المعتوقين أحرزوا نفوذاً يعمل له حساب . ومن عالم الرق هذا ، ظهرت العقائد الدينية الجديدة للبروليتاريا الداخية ؛ وكانت المسيحية من بينها :

ويبحث المؤلف - من نفس وجهة النظر - مصائر الجماعات المختلفة للشعوب المسيحية ، التي أخضعها العثمانيون لحكمهم . وبصفة خاصة الفناريون . ويستخدم المؤلف هذا المثال - هو ومثال اليهود - للبرهنة على أن السمات التي توصف بأنها جنسية ، لا تمت في الواقع إلى الجنس بحال . لكن مرجعها التجارب التاريخية التي تمر به الجماعات موضع البحث .

## الفصل الثامن : الوسط الذهبي

١ - كاف وكثير جداً :

هل في إمكاننا أن نقرر - بكل بساطة - أنه كلما اشتدت صرامة التحدى ؛ كلما ارتقى مستوى الاستجابة ؟  
أو ، هل ثمة تحد ، أشد من أن يستثير استجابة ؟

بال تأكيد ، إن بعض التحديات التي دحرت فريقا أو أكثر ممن واجهتهم ؛ قد استثارت في النهاية ، استجابة منتصرة . مثال ذلك : أن التحدى الذى مثله امتداد نطاق الحضارة الهلينية ، كان قويا للغاية على مقدرة استجابة الكلت ، بينما استجاب له بنجاح له خلفاؤهم التوتون . واستثارت « المداخلة الهلينية » في العالم السورى ، سلسلة من الاستجابات السورية الفاشلة - الزرادشتية ، اليهودية ( حركة المكابيين ) ، النسطورية المينوفيسيتية ، لكن نجحت الاستجابة ؛ ممثلة في ظهور الإسلام .

## ٢ - المقارنة في ثلاثة حدود :

وعلى أية حال ؛ لا يتأتى التدليل على أن التحديات يمكن أن تتطرف في صرامتها . بمعنى أن التحدى الأقصى ، لن يُبرز دائما الاستجابة المثلى . ومصدقا لذلك ، استجاب مهاجرو الفايكنج من النرويج استجابة رائعة لتحدى بيثة ايسلندا الصارمة ، لكنها انهارت أمام تحدى بيثة جرينلند . وكانت بيثة « ماساشوستس » ، تحديا صارما للمستعمرين الأوربيين ، أقسى من بيثة « دكسى » التي استثارت استجابة طيبة . لكن لابرادور التي أبرزت تحديا أشد قسوة من تحدى ماساشوستس ، لم يستطع المستعمرون الأوربيين الاستجابة لها .

ويتلو ذلك أمثلة أخرى : فإن حافز الضربات قد يتطرف في صرامته سيما إن طال أمده ، مثل تأثير الحرب الهانديالية على إيطاليا . ويستثير الصينيين تحدى اجتماعى ، قوامه هجرتهم إلى الملايو . لكنهم ينهزمون أمام تحدى اجتماعى أشد صرامة يقابلهم في بلد سكانه من البيض مثل كاليفورنيا .

ويستعرض المؤلف في النهاية درجات مختلفة من التحدى الذى تبرزه الحضارات ، لجيرانها البرابرة .

## ٣ - حضارتان عقيمتان :

هذا القسم استمرار لمناقشة المثال الأخير الوارد في القسم السابق .  
 كان ثمة جماعتان من البرابرة يقطنون خلال الفصل الأول من تاريخ  
 المسيحية الغربية على حدودها ، بلغت استنارتهم درجة جعلتهم يشرعون  
 في إخراج حضارتين منافستين لحضارتهم الخاصة . إلا أنهما مع ذلك قد  
 ذبلتا في البرعمة . هاتان الحضارتان هما حضارة الغرب الأقصى التي اعتنقها  
 مسيحو الكلت ( إيرلندا وأيوننا ) وحضارة الفايكنج الاسكندنافيين .

ويبحث المؤلف هاتين الحالتين ، ودرس الاحتمالات التي قد تنجم  
 لو تغلبت على المسيحية الغربية ، هاتان الحضارتان المنافستان لها ، لولم  
 تستوعبهما الحضارة التي أضاعت من روما ومن أرض الراين .

## ٤ - ضغط الإسلام على عالمي المسيحية :

كان تأثير ضغط الإسلام على المسيحية الغربية طيباً في مجموعه ،  
 فإن الثقافة الغربية خلال القرون الوسطى ، تدين بالكثير إلى الأندلس  
 المسلمة إلا أن الضغط الإسلامي على المسيحية البيزنطية ، كان متناهما في  
 شدته واستنارت نزعته ساحقة لإعادة تشييد الإمبراطورية الرومانية تحت  
 حكم ليو السورى .

كذلك يتكلم المؤلف عن حالة الحبشة التي يعتبرها « مجتمعاً مسيحياً  
 متحجراً » قائماً في رباط محاط بالعالم الإسلامى .

## الباب الثالث

### استطالات الحضارات

#### الفصل التاسع: الحضارات المتعطلة

١ - البولونيزيون والأسكيمو والبدو :

قد يبدو أنه ما دامت الحضارة قد ظهرت للوجود ، فإن ارتقاءها يصبح مؤكداً : لكن الأمر ليس كذلك ، وفقاً لما يديه سجل طائفة من الحضارات التي حققت لها وجوداً ، لكنها أخفقت في اتصال نموها .

وتمثل مصير هذه الحضارات المتعطلة ، في مواجهتها تحدى على خط الحد بين درجة من الشدة تستثير استجابة ناجحة ، وبين درجة أعظم شدة تجر إلى الهزيمة :

وتطالعنا ثلاث حالات انبعث فيها التحدى من هذا النوع من البيئة المادية :

وكانت النتيجة في كل حالة ، عملاً فذا حققه المستجيبون الذين استهلكوا كافة طاقاتهم للاستجابة للتحدى ؛ بحيث لم يعد لديهم ما يؤهلهم لمزيد من الارتقاء :

فإن البولونيزيين قد حققوا عملاً فذا قوامه الانتقال بين جزائر المحيط الهادى ، إلا أن المحيط قد هزمهم فى النهاية ، فكان أن انكفأوا إلى حياتهم البدائية على جزائرهم العديدة المنعزلة .

وحقق الإسكيمو دورة سنوية حاذقة ؛ تخصصت فى الحياة على شواطئ المحيط المتجمد ،



وأنجز البدو كراعة دورة سنوية مماثلة على السهب شبه الصحراوي .  
 وثمة نقاط كثيرة مشتركة بين المحيط بحزائره والصحراء بواحاتها .  
 ويحلل المؤلف تطور البداوة خلال فترات الجفاف . ويلاحظ أن الصيادين  
 يتطورون إلى زراعيين قبل أن يتخذوا الخطوة التالية المتصلة بصيرورتهم  
 بدوا . ويعتبر قبائل وهايل أمودجين للزراع والبدوى . وتُعزى دائماً  
 لإقتحامات البدو لمناطق الحضارات ؛ إما إلى إزدياد قسوة الجفاف ، فتدفع  
 البدو عن السهب ؛ أو إلى إنهار حضارة من الحضارات ، فيخلف الإنهار  
 فراغاً يجذب إليه البدوى ويجعله مشتركاً في مرحلة « هجرات » .  
 ٢ - العثمانيون :

تمثل التحدى الذى كان النظام العثمانى استجابة له ، فى نقل جماعة بدوية  
 إلى بيئة تضم جماعات مستقرة كان عليها أن تحكمها .  
 وحل العثمانيون مشكلاتهم بمعاملتهم رعاياهم الجدد على أنهم قطعان  
 وأسراب بشرية وابتكروا مكافئاً بشرياً لكلاب أغنام البدوى فى شكل رقيق  
 « ملكى » بشغل وظائف المديرين والجنود .  
 ويورد المؤلف أمثلة أخرى للإمبراطوريات البدوية المماثلة ، كالماليك  
 مثلاً . إلا أن النظام العثمانى قد فاق النظم الأخرى فى كفايته وزمن بقائه .  
 على أنه كابد تلك الصلابة القتالة التى هى سمة البداوة .

٣ - الإسبرطيون :

كانت استجابة الإسبرطيين لتحدى إفراط السكان الذى ألمّ بالعالم  
 الهلينى ؛ عبارة عن إبراز عمل قد يشابه فى كثير من النواحي العمل الذى  
 أظهره العثمانيون . مع فارق أنه فى الحالة الإسبرطية كانت الطبقة العسكرية  
 هى الأرستقراطية الإسبرطية نفسها . لكنهم كانوا كذلك (أرقاء) استعبدتهم  
 الواجب الذى فرضوه على أنفسهم ، ومداره إخضاع شعب من مواطنى  
 اليونان إخضاعاً دائماً .

## ٤ - خصائص عامة :

للإسكيمو والبدو والعمانيين والإسبرطيين خاصيتان مشتركتان :  
التخصص والطبقة :

فالنسبة للإسكيمو والبدو ؛ يقوم الكلاب والرنة والحياد والماشية ،  
مقام الطبقات المسترقة عند العمانيين ؛

ويحطُّ التخصص في جميع هذه المجتمعات من شأن الكائنات البشرية ،  
فيُنزِلها إلى مرتبة : الإنسان القارب ، والإنسان الحصان ، والإنسان  
الحارب . إلا أن التخصص يرفع الأدوات التي يستخدمها إلى مرتبة شبيهة  
بمرتبة الإنسان الكامل . والإنسان الكامل ، كان غاية بركليس التي أفصح  
عنها في خطاب الرثاء الذي ألقاه . والإنسان الكامل هذا ، هو الذي في  
وسعه تحقيق الإرتقاء الحضارى .

وتشابه هذه الجماعات المتعطلة مجتمعات النحل والنمل التي ما برحت  
في حالة سكون قبل فجر الحياة البشرية على الأرض . وتشابه كذلك  
المجتمعات التي ترسمها ( المدن الفاضلة ) .

ويعلو ذلك كله ؛ مناقشة موضوع « المدن الفاضلة » . ومن رأى  
المؤلف أن المدن الفاضلة بصفة عامة ؛ نتاج الحضارات في مرحلة تحللها .  
وهي محاولات ترنو إلى السعى لوقف الانهيار ، عن طريق وقف تطور  
المجتمع عند الحد الذي هو فيه وقت رسم البرنامج

## الفصل العاشر : طبيعة إرتقاء الحضارات

## ١ - الدروب الخدّاعة :

يحدث الارتقاء وقتما تُصبح الاستجابة لتحد معين ، لا ناجحة في نفسها  
فحسب ؛ لكنها تستثير تحديا إضافيا ، يُقابلُ باستجابة ناجحة \*

فكيف يتأتى قياس مثل هذا الارتقاء ؟

هل يُقاس وفقاً لسيطرة متزايدة على بيئة المجتمع الخارجية ؟

إن ثمة نوعين من مثل هذه السيطرة المتزايدة :

سيطرة متزايدة على البيئة البشرية التي تتخذ عادة شكل غزو الشعوب المجاورة ؛

وسيطرة متزايدة على البيئة المادية ، تُعبّر عن نفسها بتحسينات في الأسلوب التكنولوجى المادى .

ويورد المؤلف أمثلة لبيان أى من هاتين الظاهرتين - سواء التوسع السياسى والحربى أو تحسین الأسلوب الفنى - لا يعتبر قاعدة مناسبة لقياس الارتقاء الحقيقى . فإن التوسع الحربى التكنولوجى عادة هو نتيجة نزعة حريةية تعتبر بدورها قرينة للتدهور . ولا تُبدى التحسينات التكنولوجية سواء أكانت زراعية أو صناعية ، سوى ارتباطاً قليلاً - أو لا شىء البتة - بينها وبين الارتقاء الصحيح . وحقاً فقد يرتقى تماماً الأسلوب الفنى وفقاً لكون التحضّر الفعلى فى مرحلة إنحطاط . والعكس بالعكس .

٢ - التقدم صوب تقرير المصير :

يُظهر المؤلف أن قوام التقدم الحقيقى ، عملية يعرفها بكلمة (التسامى) ويعنى بها التغلب على الحواجز المادية . وتعمل عملية «التسامى» على إطلاق طاقات المجتمع من عقاها لتسجيب للتحديات التي تغدو - منذ الآن وصاعداً - داخلية أكثر منها خارجية ، روحانية أعظم منها مادية .

ويُفسّر المؤلف هذا التسامى بأمثلة من التاريخين الهلنئى والغربى الحديث .

## الفصل الحادى عشر : تحليل الارتقاء

### ١ - المجتمع والفرد :

ثمة وجهتا نظر تقليديان شائعتان تتصلان بعلاقة المجتمع بالفرد :  
 يجعل لإحدهما من المجتمع مجرد حشد من ذرات هي الأفراد ،  
 وتعتبر الأخرى المجتمع كائناً حياً ؛ وما الأفراد إلا أجزاء منه ،  
 لا يُدرّكون إلا « أعضاء » أو « خلايا » فى المجتمع الذى ينتسبون إليه ،  
 ويُبدى المؤلف عدم رضائه عن كلا الرأيين . وعنده أن المجتمع عبارة  
 عن نظام للعلاقات بين الأفراد . ولا يتأتى للكائنات البشرية أن تحقق وجودها  
 الحقيقى ، إلا بتفاعلها مع رفاقها ، وهنا يكون المجتمع ميداناً للعمل لعدد  
 من الكائنات البشرية .

بيد أن الأفراد هم « مصدر الفعل » ، ذلك لأن جميع أسباب الارتقاء  
 تنبعث عن أفراد مبدعين أو أقليات صغيرة من الأفراد . ويتكون عملهم  
 من جزئين :

تحقيق لإمامهم أو كشفهم ، مهما يكن من أمره .  
 وهداية المجتمع الذى ينتمون إليه ، إلى سبيل الحياة الجديد هذا .  
 ويتأتى - من الناحية النظرية - حدوث هذه الهداية بطريق أو بآخر ،  
 إما بتعريض الجمع للتجربة الواقعية التى حوّلت الأفراد المبدعين .  
 وإما تقليد الناس لمظاهر الهداية الخارجية . وبعبارة أخرى ، الهداية  
 بفضل المحاكاة .

ويُعتبر الطريق الأخير - من الناحية العملية - هو مجال الاختيار الوحيد  
 المفتوح للجميع ، ما خلا أقلية بسيطة من الجنس البشرى . فإن  
 المحاكاة طريق مختصر ، لكنه طريق فى وسع عامة الناس جميعاً سلوكه فى  
 إثر زعمائهم .

## ٢ - الانسحاب والعودة :

قد يمكن وصف فعل الفرد المبدع بأنه حركة مزدوجة قوامها  
الانسحاب والعودة :

الانسحاب بغية الاستنارة .

والعودة ، رجاء إثارة رفقائه :

ويوضح المؤلف رأيه من مثال أفلاطون عن ( الكهف ) ، وقياس  
القديس بولس عن البذرة ، ومن قصة الإنجيل ، ومن غيرها من المصادر .  
ثم يوضح المؤلف الفعل العملي في حياة الرواد العظام : القديس  
بولس - القديس بندكت - القديس جريجورى الكبير - البوذا - الرسول  
محمد - ماكيافيللى - دانتي .

## ٣ - الانسحاب والعودة : الأقليات المبدعة :

إن الانسحاب الذى تعقبه عودة ، هو كذلك سمة « شبه المجتمعات » التى  
تؤلف الأجزاء الأساسية فى المجتمعات بمعناها الأضيل . وتتقدم الفترة التى  
تبذل فيها مثل هذه المجتمعات الشبيهة ، مشاركتها فى ارتقاء المجتمعات التى  
تنتمى إليها ؛ فترة ترتد فيها بجلاء عن الحياة العامة لمجتمعها .

ومن قبيل المثال : أئينا فى الفصل الثانى من إرتقاء المجتمع الهلبنى ،  
وإيطاليا فى الفصل الثانى من إرتقاء المجتمع الغربى ، وإنجلترا فى فصله الثالث ،  
ويقرر المؤلف إحتمال قيام روسيا بتأدية دور مماثل فى الفصل الرابع من  
إرتقاء المجتمع الغربى .

## الفصل الثانى عشر : التمايز من خلال الإرتقاء

يتضمن الإرتقاء بجلاء - وفقاً لوضعه فى الفصل السابق - تمايزاً بين  
أجزاء مجتمع فى مرحلة النمو . فإن بعض الأجزاء ستبرز استجابة ناجحة فى

كل مرحلة ، وسينجح بعضها في تتبع خطاها بفضل المحاكاة . وسيفشل بعضها في تحقيق الإصالة أو المحاكاة على السواء ؛ ومن ثم تهاوى .  
وسيكون ثمة كذلك تمايز متزايد بين تواريخ المجتمعات . وواضح أن للمجتمعات سمات غالبية مختلفة . إذ يتفوق بعضها في الفن والبعض في الدين ، والآخر في الابتكارات الصناعية : بيد أنه لن تغفل المشاهدة الجوهرية في غايات الحضارات ؛ فإن لكل حبة مصيرها ، لكن جمع البذور من نوع واحد ، يبذرهما « باذر » واحد على أمل إجتناء نفس المحصول .

## الباب الرابع

### إنهيارات الحضارات

#### الفصل الثالث عشر : طبيعة المشكلة

من الواحد والعشرين حضارة ( ومن ضمنها الحضارات المتعطللة الوازدة في القائمة ) تحققتنا من وفاة ست عشرة منها وأن تسعا من العشر الباقية — أى ما خلا الحضارة الغربية — يبدو عليها مظاهر الانهيار بالفعل .

ويمكن لإجمال طبيعة الانهيار ، في ثلاث نقط :

إخفاق الطاقة الإبداعية في الأقلية المبدعة . وتتحول هذه الأقلية منذ الآن فصاعدا إلى مجرد أقلية مسيطرة .

وردّ الأغلبية على تحكّم الأقلية بسحبها ولاءها والعدول عن محاكاتها .

ويتلو ذلك ضياع الوحدة الاجتماعية ، في المجتمع في مجموعه :

وسيكون علينا كشف عوامل مثل هذه الانهيارات .

## الفصل الرابع عشر : حلول حتمية

تصر بعض المذاهب الفكرية على نسبة إنهيارات الحضارات إلى عوامل خارج نطاق سلطة البشر :

١ - نادى الكتاب الوثنيون والمسيحيون على السواء إبان انحطاط الحضارة الهلينية بأن إضمحلل مجتمعهم ، مرده « تهافت كوني » : على أن علماء الطبيعة المحدثين قد أبعدهوا عصر « التهافت الكوني » إلى مستقبل قصي ، لا يسهل تصوره وهذا يعنى إنتفاء تأثيره كلية على الحضارات سواء في الحاضر أو في الماضي .

٢ - اعتنق شبنجلر وغيره فكرة أن المجتمعات هي كائنات لها صفات التحول الطبيعي من الشباب والنضوج إلى الاضمحلال ، مثلها في ذلك مثل مخلوقات الحياة :

لكن المجتمع ليس كائناً من هذا النوع .

٣ - نادى آخرون بوجود شيء حتمي من شأنه تعويق سير الوراثة الأمر الذي يؤثر تأثيراً سيئاً على الحضارة وعلى الطبيعة البشرية ، وأنه بعد إنتضاء فترة من التحضر لا يتيسر إنعاش الجنس إلا بفضل سكب ( دم جديد همجي ) ،

و يناقش المؤلف هذا الرأي ويدحضه .

٤ - تتبى نظرية أكارو التاريخ كما أباها أفلاطون في كتابه ( تيمايوس ) وكما وردت في الأنشودة الرابعة لفرجيل وفي غيرها . ولقد يكون هذا منشأ الفكرة في كشوف الكلدانيين الخاصة بنظامنا الشمسي . بيد أن النظرية الحديثة الواسعة النطاق المتصلة بعلم الفلك ، قد جردت هذه النظرية من أسسها الفلكية . ولا يوجد دليل على صحة النظرية ، بل يوجد الكثير ضدها :

## الفصل الخامس عشر : فقدان السيطرة على البيئة

إن الحججة الخاصة بهذا الفصل ، هي المناقض لحجة الفقرة الأولى من الفصل العاشر حيث أُبدى أن حدوث زيادة في السيطرة على البيئة المادية - بقياسها التحسن في الأسلوب التكنولوجي - وحدثت زيادة في السيطرة على البيئة البشرية - بقياسها على أساس التوسع الجغرافي أو الغزو العسكري - ليست هي مقاييس الارتقاء أو عوامله .

هنا يُظهر المؤلف أن إضمحلال الأسلوب التكنولوجي والتقلص الجغرافي بفعل الغزو العسكري الخارجي ، ليست مقاييس الانهيارات وعواملها .

### ١ - البيئة المادية :

يورد المؤلف عدّة أمثلة لإظهار أن إضمحلال العمل الفني الفذ ، ما برح نتيجة - لاسبيا - لانهيار الحضارة : ومصداقاً لذلك ، كان التخلي عن الطرق الرومانية ، وهجر نظام الري في العراق ؛ نتيجة - لاسبيا - لانهيار كل من الحضارتين اللتين دأبتا على الاحتفاظ بهما من قبل . وأظهر المؤلف أن نفشى الملايا الذي يقال إنه يحدث لانهيارات الحضارات ، يعتبر نتيجة لها ، لاسبيا .

### ٢ - البيئة البشرية :

يناقش المؤلف هنا نظرية جييون التي تعزو « لانهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » إلى البربرية والدين ( أى الى المسيحية ) ، ونجدته ينقضها . فإن مظاهر البروليتارتين الخارجية والداخلية للمجتمع الهليني ؛ كانت نتائج لانهيار المجتمع الهليني التي كانت قد اتخذت بدورها مكانها فعلاً .

ويعيب المؤلف على جييون أنه لا يعود لبدء حديثه إلى أزمنة أقدم مما اختار . وأنه ليخطئ إذ يجعل العصر الأنطوني « عصرأ ذهبياً » بينما هو في الحقيقة « صيف هندي » ( أى صيف كاذب ) .



ويستعرض المؤلف أمثلة مختلفة للعدوان الموفقت ضد الحضارات ثم يُبدي أن العدوان الناجح ، يَجدُثُ - في كل حالة - بعد الإنهيار .

٣- قضية سلبية :

يستثير عادة العدوان ضد مجتمع ما يزال في غمار عملية الارتقاء ، هذا المجتمع ليبدل جهدا أعظم : وحتى إن كان المجتمع قد أصبح في طور الانحطاط ، فإن العدوان عليه قد يبيث فيه روح النشاط ويمنحه فترة حياة إضافية : ( يضيف الملخص حاشية تفسر المعنى المستخدم في هذه الدراسة المقصود بكلمة « الإنهيار » ) :

### الفصل السادس عشر : إخفاق تقرير المصير

١- آلية المحاكاة :

المحاكاة ؛ هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بفضلها الأغلبية العاطلة عن الإبداع : اقتفاء أثر الزعماء المُبدعين ، والمحاكاة نوع من « التدريب » ، أى تقليد آلى وسطحي للأصالة الملهمة . ويجر هذا « الطريق الأقصر » إلى الارتقاء - الذي لا مناص من سلوكه - إلى أخطار واضحة ، إذ قد يصبح القادة متأثرين بالروح الآلية التي تأصلت في رفاقهم : فتولد عن ذلك حضارة متعطلة . أو قد يستبدل القادة - متبرمين - مزمار الزمار ذى الثوب المخطط الذى يستخدمه فى الاستهواء ، بسوط القسر والضغط ،

هنا ؛ تتطور الأقلية المبدعة إلى أقلية « مسيطرة » ، ويغدو « المريدون » « بروتاريًا » نافرة مبعدة .

وعندما يقع هذا ، يلج المجتمع طريقا يقوده إلى التحلل . وعندئذ يفقد القدرة على تقرير المصير .

وتفسر الفقرات التالية الطرائق التى يتم بها ذلك •

٢ - نبيذ جديد في أوعية قديمة :

يجب - من الناحية المثالية - على كل طاقة اجتماعية جديدة تطلقها الأقليات المبدعة ، أن توجد نظماً جديدة تستطيع بوساطتها أن تؤدى رسالتها ؛ ولكنها تُنجز عملها في الواقع ، باستخدام النظم القديمة في غير ما خصصت له ؛ أكثر مما تنجزه باستخدام النظم الجديدة . بيد أن كثيراً ما تدل النظم القديمة على عدم صلاحيتها وعلى رعوتها . ويستتبع ذلك ظهور إحدى نتيجتين : إما تفكك النظم ؛ أى اندلاع ثورة .

ولما بقاء النظم ، وما يستتبع ذلك من انحراف القوى الجديدة ؛ التي عن طريقها تُنجز عملها .

وقد تُعرّف الثورة بأنها فعل بطيء للمحاكاة ، يتحول بفعل ذلك إلى انفجار . فهى إذن مظهر عنيف شاذ لإخفاق نزعة المحاكاة . ويستمر الارتقاء ؛ إذا حدث وتحقق الاتفاق بين النظم والقوى ؛ وإن لم يتم الاتفاق بين النظم والقوى . وإن تمّ الاتفاق وحدثت الثورة ، يصبح الارتقاء مخفوفاً بالخطر ، وإن تولّد عنه الطابع المتسم بالعنف والشذوذ ، تسهل ملاحظة وجود الأنهار .

ويُلحق المؤلف آراءه السالفة الذكر ، بسلسلة من أمثلة عن ضغط القوى الجديدة على النظم القديمة . وتتألف المجموعة الأولى من ضغوط للقوتين الجديدتين الكبيرتين اللتين تسميان في المجتمع الغربى الحديث ، تأثير الصناعة ( أى الاتجاه صوب الصناعة الآلية ) على الحرب ، وبالأحرى لزيادة حدة الحرب منذ الثورة الفرنسية ،

وتأثير الديمقراطية والصناعية على نظام الدولة الإقليمية ؛ ويوضح ذلك استفحال العصية القومية ، وإخفاق حركة التجارة الحرة ؛ وتأثير الصناعة على نظام الملكية الخاصة ، ويوضحه قيام الرأسمالية والشيوعية ، وتأثير

الديمقراطية على التربية والعلمية ، ويصوره قيام الصحافة الصفراء والدبكتاتوريات الفاشية . وتأثير الأهلية الإيطالية على حكومات البلاد الواقعة وراء جبال الألب ، ويوضحه ( فيما خلا إنجلترا ) انبعاث ملكيات استبدادية . وتأثير الثورة الصولونية على المدن الهلينية ، ويوضحه ظواهر الطغيان والحرب بين الطبقات وبسط السلطة على الغير . وتأثير العصبية الإقليمية على الكنيسة المسيحية الغربية ، وتوضحه الثورة البروتستانية وحق الملوك الإلهي وحجب الروح الوطنية للمسيحية . وتأثير الشعور بالوحدة على الدين ، ويوضحه انبعاث التعصب الديني والاضطهاد وتأثير على النظام الطبقي ، ويوضحه ما ظهر في الحضارة الهندية . وتأثير الحضارة على مبدأ تقسيم العمل ، ويوضحه نفثى النزعة الباطنية في الرعاء الذين يصبحون « إيثارين » ، وتصبيهم الرخاوة ، وتصبح جماهيرهم مسترخية بالمثل .

ويصور المؤلف التأثير الأخير من حالات الأقليات التي أصابها النعمة ، مثال اليهود . كما تصورها انحرافات الروح الرياضية الحديثة .

ويتهى المؤلف أخيراً إلى بحث تأثير الحضارة على نزعة المحاكاة . وهذا ما يبدو في توقف المجتمعات البدائية عن التوجه صوب تقاليد القبيلة ، وإنصرافها إلى محاكاة الرواد . وغالبا ما لا يكون الرواد المختارين للمحاكاة زعماء مبدعين ، ولكن مستغلين تجاريين ، أو قادة جماهير .

### ٣ - آفة الإبداع : عبادة الذات الفانية :

يُظهر التاريخ ؛ أن الجماعة التي تستجيب بنجاح إلى تحدٍّ واحد ، نادرا ما تستجيب بنجاح إلى التحدى التالى .

ويعرض المؤلف أمثلة مختلفة ، يظهر فيها إتفاق هذه الظاهرة مع قضايا أساسية مسلم بها في معطيات اليونانية والمصرية على السواء .

فإن أولئك الذين يُقيض لهم التوفيق ذات مرة ، نزاعون في الفرصة

التالية إلى « الاستلقاء على مجاذيفهم » . ومصداقا لذلك ، نجد اليهود بعدما استجابوا للتحديات الواردة في العهد القديم ، ينهزمون أمام التحدى الذى أبرزه العهد الجديد . ونجد أننا أيام بركليس ، نتضاءل إلى أننا إبان عصر القديس بولص . ونجد فى عصر الإحياء أن المراكز التى استجابت للنهضة تدل على قصورها ، فكان أن استأثرت بالزعامة بيد مونت التى لم يكن لها دور فى أجداد إيطاليا القديمة .

ولقد كانت كارولينا الجنوبية وفرجينيا ، ولايتين رئيسيتين للولايات المتحدة الأمريكية إبان الربعين الأول والثانى من القرن التاسع عشر ، لكنها أخفقتا بعد الحرب الأهلية ، فى استعادة مركزهما ، بالمقارنة بكارولينا الشمالية التى كانت مغمورة من قبل .

#### ٤ - آفة الإبداع : عبادة النظام الفانى :

دلّت عبادة نظام المدينة فى المراحل الأخيرة للتاريخ الهليني ، على أنه شرّك تردى فيه اليونانيون : بينما نجح منه الرومان .

ولقد تسبب قيام « شبح » للإمبراطورية الرومانية ، فى انهيار مجتمع المسيحية الأرثوذكسية .

ويسوق المؤلف كذلك تفسيرات للتأثيرات المعوّقة لعبادة الملوك ، والمجالس النبوية والطوائف الحاكمة ، سواء أكانت بيروقراطية أو نظام قساوسة :

#### ٥ - آفة الإبداع : عبادة أسلوب فنّي :

تُبدي التفسيرات الخاصة بالتطور البيولوجي أن « الأسلوب الفنّي » الكامل أو التكيف المكتمل لبيئة ما ، غالبا ما يدل على أنه طريق تطوري مغلق ، وأن الكائنات الأكثر « تجريبية » تبرهن على طاقتها الحيوية . مثال ذلك أن البرمائيات ، إذا ما قورنت بالأسماك تعتبر أنجح ، وأن أسلاف

الإنسان الشبيهة بالفأر إذا ما قورنت بمعاصريها ، الزواحف الهائلة ، تعتبر هي أيضاً أنجح .

ونجد في المجال الصناعي ، أن نجاح جماعة معينة في المراحل الأولى لأسلوب فني جديد ( مثال ذلك اختراع الدولاب البخارى ) ؛ يجعل تلك الجماعة أبطأ من غيرها في استخدام المراحل اللولبية .

ويُظهر استعراض قصير لتاريخ فن الحرب من أيام داود وجالوت الوقت الحاضر ، أن المخترعين والمتفنيين من إبتكار واحد ، يشرعون في كل مرحلة في « الاستلقاء على مجاذيفهم » . ويدعون الابتكار التالى لأعدائهم .

#### ٦ - انتحارية النزعة الحربية :

قدمت الفقرات الثلاث السابقة ، تفسيرات لعبارة « استلقاء المرء على مجاذيفه » التي تعتبر الطريقة السلبية للإستسلام إلى آفة الإبداع . وإننا ننتقل الآن إلى الشكل الإيجابي . للانحراف الذي عبرت عنه صيغة يونانية تعنى : التخمة ، السلوك الأحمق ، الدمار . وتعتبر النزعة الحربية مثالا واضحا . ولولم يكن السبب الذي دعا الأشوريين إلى استجلاب الخراب على أنفسهم ، كونهم - مثل المنتصرين الذين استعرضناهم في نهاية الفصل السابق - قد تركوا حراهم يعلوها الصدا . فإنهم من الوجهة العسكرية كانوا دائماً أكفء مبرزين في فهم . إن الدمار قد حل بهم ، لأن عدوانهم قد استفد طاقاتهم ، كما أن عدوانهم جعل جيرانهم لا يطيقون احتمالهم . ويعتبر الأشوريون مثالا للمقاطعة الحربية على الحدود التي توجه سلاحها ضد المقاطعات الداخلية لمجتمعها .

ويبحث المؤلف كذلك ، الحالات الماثلة للفرنجية الاستراسيين ولتيمورلنك كما يذكر غير ذلك من الأمثلة .

#### ٧ - مسكرة النصر :

يوضح المؤلف في المجال الغير الحربى ، مبحثا مشابها لذلك المبحث

الوارد في الفقرة السابقة ، بإيراد مثال بابوية هيلدبراند ؟ وهي نظام فشل بعد مارفع مركزه ومركز المسيحية من الأعماق إلى القمة : ويعزى فشله إلى انتشائه بنجاحه الذاتي . فكان أن حاول استخدام الأسلحة السياسية في صورة غير شرعية ، جريا وراء غايات جوزت الحد :

ويبحث المؤلف من هذه الزاوية الخلاف الذي ثار حول تدخل الأمراء في إقامة رجال الدين في مناصبهم .

## الباب الخامس

### تحلل احضارات

#### الفصل السابع عشر : طبيعة التحلل

##### ١- عرض عام :

هل التحلل ضروري ، ونتيجة لإنهيار لامحيص عنها ؟  
يظهر التاريخ المصري وتاريخ الشرق الأقصى ، أن ثمة بديلا أطلقنا عليه اسم :

التحجر : وإلى التحجر يعزى ما آلت إليه الحضارة الهلينية . وقد يكون التحجر عُنُقِي الحضارة الغربية .

إن ميزان التحلل البارز ؛ هو انقسام الجسم الاجتماعي إلى كسور ثلاثة :  
أقلية مُسَيطرة .

وبروليتاريا داخلية .

وهنا يلخص المؤلف ما سبق قوله شأن هذه الكسور ، ويشير إلى منهاج الفصول التالية :

٢ - الإشفاق ورجعى الميلاد :

تجهز فلسفة كارل ماركس المهمة ، بأنه سيتلو الحرب الطبقيية - بعد ديكتاتورية البروليتاريا - نظام للمجتمع جديد .

وبصرف النظر عن التطبيق الخاص لفكرة كارل ماركس ، فإن هذا هو ما يحدث فعلا وقما يتردى مجتمع ، فى إشفاق سبقت لنا ملاحظته ذى ثلاثة مظاهر . وينجز كل كسر عملا إناعيا متميزا :

تُنجز الأقلية المسيطرة ، دولة عالميا .

وتُحقق البروليتاريا الداخلية ، عقدة دينية عالمية .

وتُنشئ البروليتاريا الخارجية عمليات حربية بوبرية .

الفصل الثامن عشر - الإشفاق فى الجسم الاجتماعى١ - الأقليات المسيطرة :

على الرغم من أن الحريين والمستغلين ، هم - كما هو معروف - من بين الأنواع المميزة فى الأقليات المسيطرة ، فإن ثمة كذلك أنواعا أخرى أكثر نبلا : المشترعون ورجال الإدارة ، وهم يذودون عن الدولة العالمية . وثمة الباحثون الفلاسفة الذين يتبسون المجتمعات إبان إضمحلها ، المذاهب الفلسفية المميزة .

وتطالعنا فى هذا الصدد ، السلسلة الطويلة من الفلاسفة الهلنيين من سقراط إلى أفلوطين .

ويورد المؤلف أمثلة من مخف الحضارات الأخرى .

٢ - البروليتاريا الاخلية :

يُبنى تاريخ المجتمع الهلنى وجود بروليتاريا داخلية تكوّنت من

ثلاثة مصادر :

مواطنو الدول الهلينية الذين نرمتهم من ميراثهم ، الثورات السياسية والاقتصادية وجلبت عليهم الحرب .

والشعوب التي أخضعت .

وضحايا مجارة الرق .

ويشارك جميعهم في كونهم بروليتاريين من ناحية شعورهم وأنهم « في » مجتمع ، لكنهم ليسوا من هذا المجتمع . وكان العنف هو أول ردود الفعل التي أظهروها .

لكن تلا ذلك إنبعاث ردود فعل « وديعة » تُوِّجت بكشف « العقائد الدينية العليا » مثل المسيحية . ولقد إنبعثت المسيحية — مثلما انبعثت الميثرية وغيرها من العقائد المنافسة لها في العالم الهليني — في مجتمع أو آخر من المجتمعات « المتحضرة » الأخرى التي أخضعها الجيوش الهلينية .

ثم يبحث المؤلف البروليتاريات للمجتمعات الأخرى ، ويلاحظ ظواهر مشابهة بمعنى : تشابه أصول اليهودية والزرادشتية في البروليتاريات الداخلية للمجتمع البابلي ، مع أصول المسيحية والميثرية في المجتمع الهليني ؛ وإن اختلف فيما بعد تطور تلك العقائد الدينية لأسباب يذكرها المؤلف :

ولقد كان تحول الفلسفة البوذية البدائية إلى العقيدة الماهايانية ، مما زود البروليتاريا الداخلية الصينية بدين « أعلى »

٣ — البروليتاريا الداخلية للعالم الغربي :

يتيسر لإيراد شواهد وفيرة عن وجود بروليتاريا داخلية في المجتمع الغربي ؛ يدل عليها — إلى جانب أشياء أخرى — وجود طبقة مثقفة عبئت من البروليتاريا ، وأصبحت وسيطا للأقلية المسيطرة .

على أن البروليتاريا الداخلية للمجتمع الغربي الحديث ، ما برحت — مع ذلك — تُنبئ عن عقم ملحوظ بالنسبة لإنجاب « أديان عليا » جديدة ؛ ويفسر سبب ذلك ، بالحياة المستمرة للكنيسة المسيحية التي خرجت منها الحضارة المسيحية الغربية .



## ٤ - البروليتاريات الخارجية :

١ ما دامت الحضارة في طور إرتقائها ، يتألق تأثيرها الثقافي صوب جيرانها البدائيين ، وتنفذ إلى مسافات شاسعة ؛ يغدو هؤلاء الجيران البدائيون ، جزءاً من « الأغلبية العاطلة عن الإبداع » التي تتبع قيادة الأقلية المبدعة . ولكن عندما تنهار الحضارة ؛ يبطل فعل فتوتونها ، فيصبح البرابرة معادين لها . ويقوم خط حدود قد ينتقل موعلاً في الابتعاد ، ولكنه يستقر في النهاية في مكان واحد . فإذا ما وصلت الحال هذه المرحلة ، يغدو الوقت في جانب البرابرة .

ويستخدم المؤلف التاريخ الهليني لتعزيز رأيه : ويشير إلى ما ترتب عن ضغط حضارة معادية ؛ من تحليل العقائد الدينية البدائية للبروليتاريا الخارجية - وهي عقائد تقوم في الأصل على فكرة الحصوبة - إلى أديان من نوع عصابة الحرب الأوليمبية الإلهية .

ويعتبر شعر الملاحم ، أبرز لإنتاج البروليتاريات الخارجية .

## ٥ - البروليتاريات الخارجية للعالم الغربي :

يستعرض المؤلف تواريخ البروليتاريات الخارجية للعالم الغربي ، ويوضح ردود فعلها العنيفة والوديعه . ويرد لإختفاء البربرية من النوع التاريخي من العالم الغربي تقريبا ، إلى الكفاية المادية الساحقة للجمتمع الغربي . ومع ذلك فإن بربرية أفضع قسوة ، قد انتشرت في المراكز القديمة للمسيحية الغربية نفسها .

## ٦ - مصار الإلهام الوطنية والأجنبية :

تواجه الأقليات المسيطرة والبروليتاريات الخارجية عراقيل مختلفة وقما تستقى إلهامها من مصدر أجنبي عنها . مثال ذلك الدول العالمية التي تؤسسها

أقليات مسيطرة أجنبية (مثل الهند أيام خضوعها للبريطانيين) ، وهذه الدول أقل توفيقاً في اجتذاب رعاياها إليها ؛ عكس الدول العالمية الوطنية مثل الإمبراطورية الرومانية . وتستثير عصابات الحرب البربرية مقاومة أشد عناداً وأعظم حماساً ؛ إن كانت نزعتها البربرية - مثل الهكسوس في مصر أو المغول في الصين - مصطبغة بتأثير حضارة أجنبية :

ومن الناحية الأخرى تدين بصفة عامة الأديان العليا - التي تُنجبها البروليتاريات الداخلية - بجاذبيتها ، إلى إلهام أجنبي المصدر ، وتبرهن على هذه الحقيقة ، جميع « الأديان العليا » تقريباً .

وتُبدى الحقيقة القائلة بعدم إمكان استيعاب تاريخ « الدين الأعلى » إلا بدراسة حضارتين : الحضارة التي استمد منها إلهامه والحضارة التي تأصلت فيها جذوره ؛ تُبدى أن الفرض الذي قامت على أساسه هذه الدراسة - ( أى الفرض القائل بأن الحضارات إن أخذت بمفردها هي ميادين واضحة للدراسة ) - فرض يهár عند هذه النقطة .

## الفصل التاسع عشر - الانشقاق داخل الروح

### ١ - طرائق بديلة في السلوك والشعور والحياة :

عندما يبدأ مجتمع في التحلل ، يحل محل الطرائق المختلفة لسلوك والشعور والحياة - ويتميز بها الأفراد خلال مرحلة الارتقاء - مجالات إختيار أخرى ، إحسدهما ( المذكورة أولاً في كل زوج ) سلبى ، والآخر ( الأخير ) إيجابى .

ويعتبر « التراخى » و « ضبط النفس » مجالى الإختيار البديلين للإبداعية . ويعتبر « الشرود » و « الاستشهاد » مجالى الإختيار البديلين لاتباع « المحاكاة » . وإن الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة ، هما مجالالا إختيار البديلين للإبتداع الحيوى الذى يصاحب الارتقاء . وإن الشعور بالابتدال والشعور

بالاتحاد ، هما مجالالا الاختيار البديلين للشعور به « أناقة الأسلوب » الذى يُعتبر بدوره الصفة الذاتية المقابلة للعملية الموضوعية للتمايز ، وهى عملية تصاحب الارتقاء .

ويوجد على سطح الحياة ، زوجان بديلان من التغيرات على الحركة المتجهة نحو تحويل ميدان الحركة من الكون إلى الإنسان . ويضم ذلك بين ثناياه عملية سبق أن وصفناها بـ « الأثيرة » .

ويعجز الزوج الأول من البديلين - أى السلفية والمستقبلية - عن إنجاز هذا التحول ، ومن ثم يولدان العنف :

أما عن الزوج الثانى - أى الاعتزال والتجلى - فإنه يوفق فى إنجاز التحويل . ويتسم بالدعة :

وتسعى السلفية إلى « إرجاع الساعة إلى الوراء » . أما المستقبلية ، فإنها محاولة لسلوك طريق قصير لتحقيق عالم على الأرض يستحيل تحقيقه عملياً . أما الاعتزال - وهو الارتقاء الروحى للسلفية - فإنه هجران عالم الحياة .

أما التجلى - وهو الارتقاء الروحى للمستقبلية - فإنه فعل تقوم به النفس التى تُنجب « الأديان العليا » .

ويورد المؤلف أمثلة لجميع طرائق الحياة الأربع ويبين علاقات بعضها ببعض الآخر .

وأخيراً ، يظهر المؤلف أن بعضاً من طرائق الشعور هذه ، هو - أساساً - مظهر مميز للنفوس فى الأفايات المسيطرة .

ويعرف المؤلف التراخى وضبط النفس ويورد الأمثلة .

ويعرف المؤلف الشرود والاستشهاد ويورد أمثلة .

٤ - الشعور بالانسياق والشعور بالخطيئة :

يقود الشعور بالانسياق إلى إحساس بأن العالم بأسره تحكمه « المصادفة

أو الضرورة» ويدل المؤلف على تماثل الكلمتين . ويفسر مجال الإيمان المتسع الأرجاء ، ويُبدي أن طائفة من العقائد الدينية القائلة بالجنس - مثل مذهب كالفين - تتسم بتوليدها طاقة وجرأة أخاذتين . ويبحث المؤلف تلك الحقيقة التي تبدو غريبة لأول وهلة .

وبينما يعمل الشعور بالانسياق عادة مُسكِّنا ، فإن الشعور بالخطيئة ينبغى أن يعمل حافظا .

ويبحث المؤلف مذهبي « الكارما » و « الخطيئة الأصلية » ( التي تجمع بين فكرتي الخطيئة والحتمية ) . وفي المثال التقليدي للاعتقاد بأن الخطيئة هي العلة الحقيقية - وإن لم تكن الظاهرة - للكوارث القومية ، أخذت الكنيسة المسيحية بتعاليم أنبياء اليهود هذه ، وطفقت طوال قرون عدة تقدمها للعالم الهليني الذي كان يعد نفسه - قرونا كثيرة - لقبولها ، دون أن يشعر .  
وإنه وإن كان المجتمع الغربي قد ورث التقليد المسيحي ، لكن لعله أصبح ينزع إلى نبذ مسألة الشعور بالخطيئة ، وهو جانب جوهرى من هذا التقليد .

#### ٥ - الشعور بالابتدال :

يعتبر هذا بديلا للشعور بـ « أنيقة الأسلوب » الذي هو سمة الحضارة . في سياق ارتقائها . ويتبدى في طرائق مختلفة :

( أ ) السوقية والبربرية في طرائق السلوك - فإن الأقلية المسيطرة تُظهر نفسها مكبّة على « الاتجاه البروليتارى » متخذة سوقية البروليتاريا الداخلية ، وبربرية البروليتاريا الخارجية ؛ إلى أن يحدث في المرحلة النهائية للتحلل ، أن تُصبح طريقة حياة الأقلية المسيطرة ، لا يمكن تمييزها عن طريق حياة البروليتاريين .

( ب ) السوقية والبربرية في الفن - هو الثمن الذي يؤدي في العادة للاستفادة  
الواسعة الخارقة للعادة ، لفن حضارة متحللة .

( ج ) اللغات العامة - يقود إمتزاج الشعوب إلى البلبلة والمنافسة المتبادلة  
بين اللغات ؛ وينتشر كلغات . ويسبب انتشارها ، حدوث إنحطاط  
يقابل درجة إنتشارها . ويورد المؤلف أمثلة وتفسيرات عدة :

( د ) التركيب في الأديان - يميز في هذا الشأن ثلاث حركات هي :

١ - إندماج المدارس الفلسفية .

٢ - إندماج العقائد الدينية المنفصلة ( مثال ذلك تخفيف مذاق دين  
إسرائيل بمزجه بالعقائد المجاورة . وهي حركة عارضها الأنبياء العبرانيون  
معارضة قبض لها النجاح في النهاية ) .

٣ - إمتزاج أو التركيب بين المذاهب الفلسفية والعقائد الدينية  
وبعضها بعضا .

ولما كانت المذاهب الفلسفية ، نتاج أقلية مسيطرة ، والأديان العليا  
هي نتاج البروليتاريات الداخلية ؛ فإن التفاعل هنا شبيه بما ورد في الفقرة  
( أ ) . ويظهر هنا - مثلما ظهر هناك - أنه رغما عن أن البروليتاريين  
يتحركون بعض الشيء نحو الأقلية المسيطرة ، تتحرك الأقلية المسيطرة  
مقدارا أكبر كثيرا نحو موقف البروليتاريا الداخلية . ومن قبل المثال :  
أن الدين المسيحي يستخدم أداة الفلسفة الهلينية في تأويلاته اللاهوتية . بيد  
إن هذا يعتبر ترخصا صغيرا . إن قورن بالتحول الذي طرأ على الفلسفة  
اليونانية في غضون الفترة بين عصرى أفلاطون ويوليان .

( هـ ) الأمير يعين الدين - هذا البحث جاء إستطرادا لبحث موضوع

الإمبراطور الفيلسوف يوليان الذي أشير إليه في الموضوع السابق

فهل في وسع الأقليات المسيطرة أن تعالج ضعفها الروحاني ، باستخدام السلطة السياسية لفرض الدين أو الفلسفة التي تختارها ؟

مناطق الإجابة ؛ أن الأقليات المسيطرة تفشل في هذا السبيل ، ما خلا حالات استثنائية . فإن الدين الذي ينشد تأييد القوة ، يصيب نفسه بهذا العمل بضرر بالغ ؛ والأستثناء الوحيد الملفت للنظر ، إنتشار الإسلام . ولكن يدل تعمق البحث هنا أيضاً على معنى الاستثناء في حالة إنتشار الإسلام من هذه القاعدة .

ولعل الصيغة المضادة وهي « دين الشعب دين الأمير » أقرب للحق ؛ فإن حدث أن اعتنق الحاكم - سواء بدافع الاستخفاف أو الإيمان - عقيدة أتباعه الدينية ، فإن الإجراء يقود إلى توطيد ملكه .

#### ٦ - الشعور بالاتحاد :

هذا هو « مضاد » إيجابي الطابع للشعور بالابتدال السلبي الطابع . ويعبر الشعور بالاتحاد عن نفسه في صورة مادية ، في إيجاد الدول العالمية . ويلهم الشعور بالاتحاد ، إدراكاً يسود كل شيء وإدراكاً بوجود إله حاضر في كل مكان محيط بكل شيء متسلط على العالم . ويبحث المؤلف هذه الآراء ويفسرها .

ويعرض المؤلف في سياق موضوع الكائن الإلهي الكلي الوجود ، إلى سيرة « هوى » إله العبرانيين « الغيور » ، منذ بداية ظهوره جنيئاً في بركان من براكين سيناء ، إلى إرتفاع شأنه في نهاية المطاف ، واعتباره الحامل التاريخي لفكرة - صافية متدرجة - عن « الإله الواحد الحق » الذي تعبدته الكنيسة المسيحية .

ويقدم المؤلف تفسيراً لانتصار « هوى » على جميع منافسيه ،

## ٧ - السلفية :

هى محاولة للفرار من حاضر لا يمكن احتماله ، عن طريق إعادة تشييد مرحلة سابقة من تاريخ حياة مجتمع متحلل .

ويقدم المؤلف أمثلة قديمة وحديثة . وتشتمل الحديثة على إحياء النزعة القوطية ؛ والإحياء الاصطناعى للغات إنقرضت كلياً أو جزئياً لأسباب تتصل بإحياء الروح القومية .

وخلص المؤلف إلى القول بأن الحركات التى تنزع صوب السلفية : هى فى الغالب إما عقيمة أو تستحيل إلى نقيضها ، أى إلى « مستقبلية » .

## ٨ - المستقبلية :

هى محاولة للفرار من الحاضر ، بالقفز إلى ظلمة مستقبل مجهول . وتقتضى نحو الروابط التقليدية مع الماضى ، فهى فى الواقع نزعة ثورية . وتعبر عن نفسها فى الفن ، فى نزعة تحطيم المقدسات .

## ٩ - التسامى الذاتى للمستقبلية :

إذا كانت السلفية تتردى فى هوة المستقبلية ، فإن المستقبلية قد تصعد إلى قم التجلى . وبعبارة أخرى ؛ تبتدئ المستقبلية المحاولة اليائسة للثور على مجتمعها المثالى فى المجال الدنيوى ، وقد تنشده فى الحياة الروحية ؛ دون أن يعوقها الزمان والمكان .

ويبحث المؤلف فى هذا الشأن ، تاريخ اليهود بعد الأسر البابلى . وقد عثرت المستقبلية على ذاتها فى سلسلة من المحاولات الانتحارية لإيجاد إمبراطورية يهودية على الأرض . محاولات بدأت منذ أيام زروبابل حتى باركوباك ، وانتهت أخيراً باعتراف فكرة التجامى التى تقوم عليها العقيدة الدينية المسيحية .

## ١٠ - الاعتزال والتجلى :

يعنى الاعتزال ، إتخاذ موقف يجد أصلب وأسمى تعبير عنه ، فى تعاليم البوذا : إن نتيجتها المنطقية هى الانتحار . ذلك لأن الاعتزال العام ممكن للإله وحده . أما الدين المسيحى فإنه ينادى بإله نبيذ مختارا لإعتزالا كان منه الواضح أنه يستطيع أن يستمتع به لو شاء : وهذا الإله « يجب للعالم كثيرا » :

## ١١ - جدّة المولد :

إن التجلى - من طرائف الحياة الأربع التى بحثت هنا - يُعتبر الطريقة الوحيدة التى تُهَيِّئ طريقا ، صلا لسالكيه : ويتم بفضل نقله ميدان الفعل من الكون الأكبر ( أى الله ) إلى الكون الأصغر ( أى الإنسان ) ، ويصدق هذا بالمثل على الاعتزال . مع فارق أنه بينما الاعتزال لا يعتبر إلا حركة إنسحاب فحسب ، فإن التجلى حركة انسحاب وعودة ، هى جدّة المولد :

لكن جدّة المولد هنا لا تعنى إعادة ميلاد مثال آخر لنوع قديم ، لكنه يعنى ميلاد مجتمع من نوع جديد .

## الفصل العشرون - العلاقة بين المجتمعات المتحللة والأفراد

## ١ - العبقري المبدع مخلصا :

يتزعم أفراد مبدعون فى مرحلة الارتقاء ، إستجابات ناجحة لتحديات متعاقبة ، ويظهرون فى مرحلة المتحللة مخلصين للمجتمع المتحلل أو مخلصين منه :

## ٢ - المخلص المتشوق حساما :

هم مؤسسو الدول العالمية ومعاضدوها ، لكن جميع أعمال السيف فانية ،



### ٣- الخلص صاحب آلة الزمان :

هم أصحاب نزعى السلفية والمستقبلية : ويلجأون إلى السيف كذلك :  
ويلاقون مصير ممتشق السيف :

### ٤- الفيلسوف في قناع ملك :

هو علاج أفلاطون المشهور . وبصبيه الإخفاق من جراء التناقض بين  
إعترال الفيلسوف ، وطرائق القهر التي يستخدمها الزعماء للسياسيون .

### ٥- الإله المتجسد في إنسان :

يبين المؤلف كيف تحتق المحاولات الناقصة ، وينتصر يسوع الناصري  
وحده على الموت :

## الفصل الحادى والعشرون - إيقاع التحلل

يمضى التحلل قدماً ، لا بصورة متجانسة - ولكن بفعل تعاقب -  
كسرات ونهضات .

ومن قبيل المثال :

يعتبر إنشاء الدولة العالمية ، نهضة بعد الكسرة التي حدثت في عصر  
إضطرابات : ويعتبر تفكك الدولة العالمية كسرة نهائية . ولما كان يوجد عادة  
نهضة تعقبها كسرة في سياق عصر اضطرابات ، كذلك توجد كسرة تعقبها  
نهضة في تاريخ دولة عالمية . فيبدو أن الإيقاع المألوف هو : كسرة - نهضة -  
كسرة - نهضة - كسرة - نهضة - كسرة ، أى ثلاث دقائق ونصف دقة :

وبصور هذا النمط في تواريخ مختلف المجتمعات المدرسة ، ثم يطبق  
على تاريخ مجتمع المسيحية الغربية من زاوية تحقيق مرحلة النمو التي بلغها  
هذا المجتمع :

## الفصل الثاني والعشرون - توحيد المقاييس

إذا كان التمايز هو ممة الارتقاء ، فإن توحيد المقاييس هو علامة التحلل ؛  
ويختتم المؤلف بحثه بالإشارة إلى المشكلات التي يترك بحثها للأجزاء الآتية  
من الدراسة .

## الباب السادس

### الدول العالمية

## الفصل الثالث والعشرون - غايات أم ذرائع

يلخص المؤلف نهج الكتاب حتى النقطة الحالية ، ثم يورد الدوافع التي  
تدعوه إلى المضي في البحث - في أجزاء متتابعة - في موضوع الدول  
العالمية ، والأديان العالمية ، وعصابات الحرب من المتبريرين ؛  
فهل يُنظر إلى الدول العالمية على أنها المراحل النهائية للحضارات ، أم  
على أنها مقدمات لمراحل ارتقاء تالية ؟

## الفصل الرابع والعشرون - سراب الجلود

لا يرحب مواطنو الدول العالمية - في معظم الأحيان - بإقامتها فحسب ،  
ولكنهم يؤمنون بخلود هذه الدول ؛ ويظنون عاكفين على اعتقادهم هذا ،  
ليس فقط حين يتضح أن الدول العالمية تُشرف على الانهيار ، بل يستمر  
إعتقادهم حتى بعد زوالها . ويترتب على هذا ، عودة نظام الدولة العالمية  
إلى الظهور كـ « شبح » للدولة العالمية الأصلية ؛ ويطالعنا - من قبيل المثال -  
ظهور الدولة الرومانية المقدسة في المجتمع الذي تبنته المسيحية ، شبحاً  
للإمبراطورية الرومانية في العالم اليوناني - الروماني ؛

وقد نجد تفسيراً لذلك في الحقيقة للقائلة بأن الدولة العالمية تقف داعية للتجمع بعد فترة من الاضطرابات :

## الفصل الخامس والعشرون - وهكذا تكبد لغبرك

تُحنى نظم الدولة العالمية بالفشل - على طول المدى - في الاحتفاظ ببقائها . لكنها - في الوقت نفسه - تستخدم أغراض نظم أخرى ، وبصفة خاصة ما اتصل منها بالأديان العليا للبروليتاريات الداخلية :

١ - قدرة الدول على التوصليل :

تتيح الدول العالمية - بفضل فرضها النظام والتجانس - وسيلة للتوصليل الجيد ، ليس فقط من الناحية الجغرافية بين الأجزاء التي كانت فيما مضى دولا إقليمية منفصلة ولكن - من الناحية الاجتماعية - بين طبقات المجتمع المختلفة .

٢ - سيكولوجية السلام :

إن التسامح الذي يراه حكام الدول العالمية أمرا لازما للمحافظة على كيانهم ، يشجع على انتشار الأديان العليا . وهذا ما تصوره الفكرة الشائعة ( التي عبر عنها ملتون في أنشودته عن عيد الميلاد ) القائلة بأن الإمبراطورية الرومانية قد أرسلتها العناية الإلهية لصالح الكنيسة المسيحية : على أن مثل هذا التسامح ليس عالميا أو مطلقا . وفضلا عن ذلك فإن هذا التسامح نفسه - في صورة نزعة مناهضة للعسكرية - سيثبت أنه في صالح المعتدين الدخلاء ؛ سواء أكانوا برابرة ؛ أو أصحاب حضارات مجاورة :

٣ - صلاحية النظم الإمبراطورية للعمل :

(١) المواصلات :

تخدم الطرق البرية والمسالك البحرية وصيانتها بانتظام . الناس

خدماتها لأغراض الحكومة : مثال ذلك أن القديس بولص قد استخدم الطرق الرومانية في أداء رسالته .

فهل ستستفيد الأديان العليا في الوقت الحاضر من نظام المواصلات العالمى الواسع النطاق الذى يهيئه الأسلوب التكنولوجى الحديث ؟  
إن تم ذلك ؛ فإن الأديان العليا ستجابه مشكلات يمكن توضيحها من خلال استعراض تاريخ البعثات المسيحية التبشيرية فى العالم الغير المسيحية فى عصور سابقة .

### (ب) الحاميات العسكرية والمستعمرات :

تخدم غايات الحضارة مثلا تخدم غايات الحكومة . بل إنها تساهم كذلك فى التجويل البروليتارى الذى يميز المجتمعات المتحللة .  
ومن الواضح أن عصابات الحرب من المتبررين هم أكثر المستفيدين من ذلك : ولكن الديانات العليا ، تستفيد هى الأخرى . ويسوق المؤلف أمثلة لتعزيز رأيه من إنتشار الإسلام . كما انتشرت عبادة ميترا ، من حامية إلى أخرى على طول حدود الإمبراطورية الرومانية . وانتشرت المسيحية من مستعمرة إلى أخرى : ومن قبيل المثال ، أهمية مستعمرتى كورنث وليون - وكلتاها أنشأتهما الحكومة الرومانية - فى تاريخ الكنيسة المسيحية فى عصورها الأولى .

### (ج) الأقاليم :

يستخرج المؤلف سياسات متناقضة من تاريخ الدولة العالمية الصينية ، كما يستخلص من إنتشار العقيدة المسيحية ، أمثلة لحدوى استخدام الديانات العليا للتنظيم الإقليمى .

### (د) الأمصار :

تؤثر عوامل مختلفة فى تحديد موقعها : وقد يثبت أن العاصمة الأصلية

التي أقامها الغزاة الذين أنشأوا الدولة العالمية ، غير صالحة دواما للغاية من إنشائها .

ويسوق المؤلف عرضا للعواصم وانتقالاتها . وتظل بعض العواصم التي فقدت أهميتها السياسية ، محتفظة بذكرها كمرآكز للديانات .

### ( ه ) اللغات الرسمية والكتابات الخطية :

يبين المؤلف المشكلات التي تواجه حكام الدول العالمية في اختيار اللغات الرسمية ، ومختلف الحلول التي يوفقون إليها . ويذكر أن تداول بعض اللغات - مثل الأرامية واللاتينية - قد تجاوز كثيرا في الزمان والمكان ، اتساعا أبعد مدى ، من حدود الإمبراطوريات التي انتشرت فيها أولا .

### ( و ) القانون :

هنا كذلك اختلف حكام الدول العالمية كثيرا - أحدهما عن الآخر - في المدى الذي ذهبوا إليه في فرض نظمهم الخاصة على رعاياهم . وقد طبقت أنظمة قانونية لدول ، على طوائف لم تشرع لها هذه الأنظمة . مثال ذلك : استخدام المسلمين القانون الروماني ، وانتفاع الكنيسة المسيحية به ، واقتباس مؤلفي شريعة موسى من قوانين حمورابي .

### ( ز ) التقويم والموازين والمقاييس والنقود :

يبين المؤلف مشكلات تعيين التقويم ، والارتباط الشديد بين التقويم والدين . ويذكر أن الطرائق المستخدمة في الوقت الحاضر لحساب الزمن ، ما يزال بعضها من مخلفات الرومان أو السومريين . ثم يقرر أن الثورة الفرنسية قد فشلت في الاستغناء عنها :

ويوضح المؤلف بالنسبة للموازين والمقاييس ، المعركة بين النظام العشري والاثني عشري . ويبين - بالنسبة للنقود - أهميتها وأساسها في المدن اليونانية ،

ثم انتشارها بفضل دخول هذه المدن في نطاق الإمبراطوريتين اللبديية والاخيمينية . ثم يتناول ، بالبحث النقود الورقية في العالم الصيني :

( ح ) الجيش القائمة :

يعتبر المؤلف الجيش الروماني ، مصدر إلهام للكنيسة المسيحية :

( ط ) الإدارة الحكومية :

يوضح المؤلف مشكلات الإدارة الحكومية ، بعقد مقارنة بين سياسة كل من أغسطس وبطرس الأكبر ، والحكم البريطاني في الهند . ثم يوضح طابع الإدارة الحكومية في كل من الصين ، والهند تحت الحكم البريطاني : ثم يذكر مدى تأثير الإدارة الرومانية الحكومية في إعداد ثلاثة من كبار مؤسسي المسيحية الغربية .

( ي ) المواطنة :

يعتبر توسيع حقوق المواطنين ميزة يُصنفها حكام النزول العالمية على رعاياهم . وتعاون على خلق جو من المساواة ، تزدهر في ظل الأديان العليا ،

## الباب السابع

### الأديان العليا

الفصل السادس والعشرون - أفكار بديلة للعلاقات

بين الأديان العالمية والحضارات

١ - الأديان باعتبارها سرطانات :

طالما أن العقائد الدينية تنمو في الكيانات الاجتماعية المتداعية للدول

العالمية ، فطبيعي أن ينظر إليها كسرطانات ، سواء من جانب المعارضين لها من المعاصرين ، أو من جانب مدرسة من المؤرخين المحدثين :  
ويسوق المؤلف أدلة على خطئ هذا الرأي . ومن رأيه أن الأديان تميل إلى إنعاش الشعور بالواجب الاجتماعي في مريدتها أكثر من اتجاهها إلى حطمه .

## ٢ - الأديان باعتبارها يفعات :

إن لكل من حضارات الجيل الثالث التي ما تزال قائمة في الوقت الحاضر ، عقيدة دينية تعتبر قوام تلك الحضارة : وعن طريق الدين ، تتصل الحضارة بصلة النسب ، بحضارة أخرى من حضارات الجيل الثاني :

ويحلل المؤلف ما تدين به الحضارة الغربية الحديثة للعقيدة المسيحية ، وعلى العكس من ذلك ؛ تنتسب حضارات الجيل الثاني إلى الحضارات السابقة عليها ، بروابط أخرى : ويرى المؤلف أن هذه الحقيقة توضح بإعادة النظر في الخطة التي سلّم بها في سياق التاريخ ، حتى الآن .

## ٣ - الأديان باعتبارها أنواعا سامية من المجتمع :

### ( ١ ) تصنيف جديد :

يقرر المؤلف قيام الحضارات وسقوطها ، بدورات عجلة دولاب ، تدفع عربة الدين إلى الأمام : ويعرض المؤلف خطوات التقدم الديني ماثلة في أسماء : إبراهيم وموسى والأنبياء العبرانيين والمسيح : ويعتبر كل منهم - على التوالي - ثمرة لتحلل المجتمعات : السومرية والمصرية والبابلية والهلينية :

فهل يتيح توحيد عالم اليوم ، الأمل في تقدم أسمى ؟

فإن كان الأمر كذلك ، تعين على الأديان العليا أن تتعلم دروسا صعبة ،

## ( ب ) مغزى ماضى الأديان :

يسلم المؤلف بأن تاريخ الأديان العليا - حتى اليوم - يلوح أنه لا يهيئها للدور الذى يرسمه المؤلف فى دراسته .

## ( ج ) الصراع بين القلب والفعل :

إن ضغط العلم الحديث على الدين ، لم يكن الصراع الأول من نوعه ، فإن الصراع بين المسيحية الأولى والفلسفة الأهلينية ، قد انتهى بإيجاد حل وسط يوفق بينهما ، وارتضى الفلاسفة بمقتضاه « حقيقة » ، الوحي المسيحى ، على شريطة أن يُسرَّ بِل ذلك الوحي نفسه بلغة الفلاسفة ، ولقد أصبحت هذه السرايل الأهلينية البالية - منذ أمد طويل - مصاراً للحيرة ، بتحميلها الكنيسة المسيحية وزر إخفاق عدد من القضايا الغير الدينية التى لاتتصل بالمسيحية بسبب .

ويبين المؤلف أن الدين يجب أن يسلم للعلم فى جميع ميادين المعرفة الثقافية التى يستطيع العلم أن يُقيم لنفسه فيها مجالاً . وعنده أن الدين والعلم يُعنيان بضربين مختلفين من الحقيقة ، وأن دراسة اللاشعور فى علم النفس الحديث ، تُلقي ضوءاً عميقاً على طبيعة الاختلاف .

## ( د ) بشائر مستقبل الأديان :

إن السمة المميزة للأديان ، إجماعها على الإيمان بآله واحد حق ، وهذا ما يفرقها عن جميع أنواع المجتمعات الأخرى . ويفصح المؤلف عن نتائج هذا الاختلاف .

## الفصل السابع والعشرون - دور الحضارات فى حياة الأديان

## ١ - الحضارات باعتبارها إفتتاحيات :

يبحث المؤلف معجم الاصطلاحات التكنولوجية التى استعارتها الكنيسة المسيحية من الحضارة الهلينية ، ثم حولتها إلى إستعمالات جديدة .



ويعتبر ذلك مثالا لما يدعوه بظاهرة « الأثرية » ( أى التسامى ) .  
ومن رأيه أن الحضارة الهلنالية قد أدت دور الافتتاحية للعقيدة المسيحية .

## ٢ - الحضارات باعتبارها نكوصا :

يبين المؤلف ما يتلو ذلك من إنحطاط لهذه المصطلحات التكنولوجية  
عندما يستخدمها المجتمع الغربى فى مجالاته الدينوية ؛ هذا المجتمع الذى إنبعث  
عن الكنيسة المسيحية ، ثم تحرر من سلطانها .

## الفصل الثامن والعشرون - نشر الدعوة الدينية فى العالم

إن خروج الحضارة المنتمية إلى دين على هذا الدين ، يرجع إلى  
خطوات خاطئة ارتكبتها العقيدة الدينية : هذه الخطوات نتيجة حتمية  
لتضمين روح الدين فى نظام كهنوتى يهدف إلى بث الدعوة إلى العقيدة  
الدينية فى أنحاء العالم .

ويسجل المؤلف أربعة نماذج للخطوة الخاطئة :

( أ ) سيطرة سياسية تهىء سببا معقولا للمساس بالسلطات الدينوية ،  
بحسبانه تدخلا فى قيامها على أداء واجباتها المتوقعة بها :

( ب ) النجاح الاقتصادى الذى لا بد وأن يلازم أداء الواجبات الاقتصادية  
« بجرارة » كما لو كانت تؤدى للخالق ، لا للإنسان :

( ج ) تحويل الكنيسة مجموع ذاتها إلى إله يُعبَد .

فهل يعجز الدين عن الوعد بـ « عصر ذهبى » يترأى فى نهاية المطاف ؟

زبما يتيسر ذلك فى « العالم الآخر » . لكنه لن يقع فى علمنا هذا : فإن

الخطيئة الأزلية تتمف عقبه كأداء . و « هذا العالم » إقليم فى ملكوت الرب ،

لكنه إقليم متمرد ، ومن طبيعة الأشياء أن يبتى كذلك :

## الباب الثامن

### عصور البطولة

#### الفصل التاسع والعشرون - سياق المسألة

##### ١ - حاجز اجتماعي :

عصر البطولة ؛ نتيجة اجتماعية وسيكلوجية لتبلور الثغور - أو التخوم الحربية - القائمة بين الدولة العالمية لحضارة متحللة ، والمتبريرين القاطنين وراء هذه التخوم . ويُمثَّل بحاجز أو سد مقام على واد ، فيوجد - بذلك - خزانا عليه .

ويورد المؤلف في هذا البحث وفي غيره من مباحث الفصل التالية ، ما يتضمنه هذا التشبيه .

##### ٢ - تراكم الضغط :

يتزايد الضغط على الثغور - أو السد - كلما تعلم المتبريرون القاطنون خلف التخوم ، الأساليب التكنولوجية الحربية للحضارة التي يقفون إزاءها بالمرصاد . ويجد حراس الحضارة أنفسهم مضطرين إلى استخدام المتبريرين أنفسهم . ثم ينتقل هؤلاء الجنود المرتزقة على سادتهم ، ويوجهون ضربتهم إلى قلب الإمبراطورية :

##### ٣ - الاجتياح ونتائجه :

لا مناص من أن يتطور نجاح البرابرة المنتصرين ، إلى أداة لحزيمتهم ؛ فإنهم - إجمالا - غير أكفاء لمجابهة الأزمة التي أوجلدوها بأنفسهم . ومع ذلك فإن البرابرة يقومون خلال محنتهم ، ببطولات أسطورية ومُثَل عليها للسلوك ، مثل تلك التي وردت فيما كتبه هوميروس عن آلهة النعمة ،

وما ورد في فضيلة : « الحلم » عند الأمويين : وينتهي المطاف بعصر البطولة المشوش - فجأة - في صورة مذهلة : ويتلو « عصر مظلم » تعود - في خلاله - قوى القانون والنظام تؤكد وجودها بالتدريج : وهكذا تنهى « فترة الفراغ » لتنبعث حضارة جديدة :

#### ٤ - الخيال والحقيقة :

يشير المؤلف إلى تصنيف « هسيود » الغريب للعصور ، إذ يجعلها وفقا للمعادن : الذهب ، الفضة ، البرونز ، الحديد . وأن ثمة عصرا هو « عصر الأبطال » يندرج بين عصرى البرونز والحديد :

و« عصر الأبطال » هو في الواقع عصر البرونز ، ويضفي عليه هوميروس من الخيال ما يجاوز الحقيقة : وعند المؤلف أن فتنة شعر البطولة الذي أنتجته البربرية الظاهرة ، هي التي خلدت « هسيود » وشاعر العصر المظلم التالي : ولقد خلد شعر البطولة التالي هذا أيضا ، أتباع الرايح الثالث الذين مجلدوا « الوحوش الشقراء » للبربرية « النوردية » :

على أن البرابرة كانوا حلقة إتصال ارتبطت عن طريقها حضارات الجيل الثاني - التي أنتجت الأديان العليا - بحضارات الجيل الأول :

حاشية - كتيبة الجند من النساء الشيطانات :

يسوق المؤلف تفسيراً لما قامت به النساء الشيطانات من دور بارز في مآسى عصور البطولة ، ليس فقط في الأسطورة ، وإنما في الواقع كذلك :

## الباب التاسع

### الاتصال بين الحضارات في المكان

#### الفصل الثلاثون - إمتداد ميدان الدراسة

إن الحضارات التي يمكن دراستها دراسة وافية - كل منها على حدة -

في مراحل نشوئها ونموها واستطالتها وانهارها ؛ إن هذه الحضارات تصبح دراستها غير مفهومة في مرحلة تحللها النهائي ،

ومن ثم يرى المؤلف ضرورة دراسة إلتصالاتها ، وهي في هذه المرحلة الأخيرة . ويذكر أن طائفة من المناطق الجغرافية مثل ؛ سوريا وحوض نهري سيحون وجيحون ، كانت معالم بارزة في تاريخ هذه الإلتصالات ، وليس من قبيل المصادفة ، أن هذه المناطق نفسها والأجزاء المجاورة لها مباشرة ؛ قد ضمت المواطن التي شهدت مولد الأديان العليا ؛

### الفصل الحادى والثلاثون

#### عرض للتلاقى بين الحضارات المعاصرة

##### ١ - منهاج العمل :

نقترح البدء ببحث التلاقى بين الغرب الحديث وجميع الحضارات المعاصرة له . ويمكن تأريخ بداية العصر الحديث ، من تاريخ المجتمع الغربى بمحدثين :

وقع الحادث الأول مباشرة بعد بداية القرن السادس عشر ؛

ووقع الثانى مباشرة بعد بداية القرن السادس عشر ؛

والحدث الأول هو إمتلاك ناصية فنون الملاحة في المحيطات ؛

والحدث الثانى هو تفكك عرى وحدة العالم المسيحى . تلك الوحدة

التي أقامتها البابوية وحافظت عليها .

وكان « الإصلاح » البروتستانتى - بالطبع - مرحلة في عملية طويلة من

التطور بدأت في القرن الثالث عشر ، ولم تُستكمل حتى القرن السابع عشر ؛

بيد أن « الإصلاح » نفسه ؛ قد باغت نفس الجيل الذى شهد رحلات

كولومبوس وجاما .

وبعد هذا ؛ نخطو في التاريخ خطوة إلى الوراء وندرس صلوات الغرب في مرحلة تاريخه الوسيط ، مع المجتمعين المنافسين له ، اللذين تلاقى بهما ؛ ثم ندرس بعد ذلك صلوات المجتمع الهليني ؛ ونختتم البحث بإلقاء نظرة على صلوات أسبق من نفس النوع .

وإذ نعالج موضوع صلوات العالم الغربي الحديث ، سنرى أن هذه الفصول من التاريخ - ولو أنها معروفة لنا بالتفصيل حتى الوقت الحاضر - غير مستكملة كلها - أو ربما أكثرها - ولا تزال تحمل علامة استفهام .

## ٢ - العمليات وفقا لمنهاج :

### ( ١ ) التلاقى بالحضارة الحديثة :

#### أولا : الغرب الحديث وروسيا :

كابد المواطن الأصيل للمسيحية الأرثوذكسية الروسية ، الشيء الكثير من إغارات وغزوات قامت بها دولة بولندا - ليتوانيا وهي إحدى الدول الغربية الإقليمية ، منذ القرن الرابع عشر وما بعده . ومنيت بخسائر لم تستطع استردادها كلها إلا في عام ١٩٤٥ ميلادية . ولقد تلقى بطرس الأكبر إشعاع الثقافة الغربية باستجابة تتسم بالمسايرة والترحيب . بيد أنه بعد أن مر قرنان على خطط الاقتباس من الغرب طبقا لخطوط وافق عليها الغرب نفسه ، وجد أن نظام بطرس الأكبر - بعد أن وضع موضع التجريب - تبينت أغلاله وأخطاؤه ، وقتما صدمته محنة الحرب العظمى الأولى . فكان أن اقتلعه ، وحل محله نظام غربي الأصل ، مرتد من المبادئ الغربية ، هو : الشيوعية .

#### ثانيا : الغرب الحديث والكتلة الرئيسية للمسيحية الأرثوذكسية :

تغلغلت الثقافة الغربية في هذا المجتمع الذي ضُمَّت أجزاءه بعضها إلى بعض تحت حكم دولة عالمية دخيلة عليه هي الإمبراطورية العثمانية . ولقد تغلغلت هذه الثقافة ، بادئة بالطبقات الدنيا إلى العليا ، على عكس ما حدث

في روسيا : وحدث ذلك ابتداء من القرن السابع عشر وما بعده : وكان من المحتمل أن يؤدي ذلك إلى غلبة التأثير الغربي على إمبراطورية الباديشاه بتأثير اليونانيين الفناريين . بيد أن الحركات الوطنية قد تنزلت لسوء الحظ ، فأدت إلى حطيم الإمبراطورية إلى دول إقليمية : وأخفقت روسيا في أن تكفل لنفسها زعامة هذه الشعوب : سواء وفقاً لأسس جامعة أرثوذكسية ، أو جامعة سلافية : وإن كان قد فُرض على بعضها أخيراً نظام جامعة شيوعية روسية ،

ثالثاً : الغرب الحديث والعالم الهندي :

فرض الغرب نفسه هنا في شكل دولة عالمية دخيلة ، حلت محل دولة عالمية دخيلة أخرى ؛ هي الإمبراطورية الإسلامية المغولية التي كان قد أصابها التفكك : ولقد استخدم الحاكم البريطاني صفوة من الهنود ، مثلما استخدم الباديشاه العثماني صفوة من المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين ، وجاء الوقت الذي نجحت فيه هذه الصفوة الهندية — في حين عجز الفناريون — في تغليب العنصر الهندي في إدارة الأملاك البريطانية السابقة ، مع الاحتفاظ به سليماً ، ما خلا الاستثناء الضعيف المتصل بانفصال باكستان .

وناقش المؤلف النقاط القوية والضعيفة في الإدارة البريطانية الهندية : وأبدى أن مشكلة السكان هي السحابة السوداء التي تخيم في أفق مستقبل الهند .

رابعاً : الغرب الحديث والعالم الإسلامي :

في مطلع العصر الحديث من تاريخ الغرب ، كان المجتمعان الإسلاميان الشقيقان « الإيراني » و « العربي » يقفان سداً في وجه جميع المسالك البرية التي تصل ممتلكات المجتمعين الغربي والروسي بسائر أنحاء العالم : بيد أنه تلا ذلك مباشرة ، إنقلاب مثير لمصير العالم الإسلامي وفي غير مصلحته : وترتب على ذلك الإنقلاب في ميزان القوى أن عدداً من حكام الدول

الإسلامية قد راحوا يطبقون سياسة بطرس الأكبر القائمة على « مسايرة الغرب » ، بدرجات متفاوتة في التوفيق :

ويضم العالم الإسلامي مواطن ثلاثة من الحضارات الأربع الرئيسية ، ولقد تعززت الثروات الزراعية الطبيعية لهذه المناطق ، بفضل الكشف عن ثرواتها المكنونة من النفط . ونتيجة لذلك ؛ أصبحت المناطق الإسلامية ، بمثابة بستان الكرم لعالم القرن العشرين الذى تتصارع فيه روسيا والغرب .  
خامسا : الغرب الحديث واليهود :

لم تتلاءم فكرة « التشتت اليهودى » مع النظام الغربى القائم على دول إقليمية متجانسة ؛ وفى استعراض تاريخى يبدأ ، لا من مستهل العصر الحديث من التاريخ الغربى ، ولكن من بداية المجتمع المسيحى الغربى نفسه ؛ تمكن ملاحظة ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى ( أى فى تاريخ القوط الغربيين ) - استباآت خلالها فائدة اليهود رغما عن كراهية الجاهير لهم ، ولسوء معاملتهم إياهم ؛ إذ كان المسيحيون الغربيون ( كما قال سيسيل رودس عن الرؤساء المتخرجين من من أكسفورد ) أطفالا فى الشئون المالية :

المرحلة الثانية - تعلم فيها المسيحيون الغربيون أن يكونوا لأنفسهم يهودا منهم . فكان أن طرد اليهود ( ويطالعنا فى هذا الصدد طرد اليهود من إنجلترا عام ١٢٩١ ) :

المرحلة الثالثة - كان فيها المجتمع الغربى قد أصاب من الكفاءة ما جعله يسمح لليهود بالعودة إليه مرة أخرى ( مثال ذلك عودتهم لإنجلترا عام ١٦٥٥ ) ، والترحيب بخصرتهم فى عالم المال والتجارة .

بيد أن العصر الذى اتسم بتحرره والذى تلا ذلك ، لم يثبت أنه آخر القصة :

ويختتم هذا القسم بدراسات للنزعة المناهضة للسامية ، وللصهيونية :

سادساً : الغرب الحديث وحضارتى الشرق الأقصى والحضارات الأمريكية

الأصيلة :

لم يكن لهذه سابق اتصال بالغرب قبل أن يدخل الغرب في مرحلته الحديثة . وقد بدا للعيان أن جميع الحضارات الأمريكية قد زالت من الوجود ، ولو أن هذه الفكرة قد تكون مضللة . ومن عجب أن تسير جنباً إلى جنب ، قصص ضغط الغرب الحديث على الصين واليابان . ففي كلتا الحالتين ، لقيت الثقافة الغربية ترحيباً في شكلها الدينى المبكر الحديث . لكن تلا الترحيب ، إعراض عنها . ثم جاء بعد ذلك تأثير الأسلوب التكنولوجى الغربى : ويعزى - إلى حد كبير - الاختلاف بين تاريخى البلدين ، إلى حقيقة مبناها أن الصين إمبراطورية وامعة مفتوحة الأبواب ، فى حين أن اليابان جماعة جزرية محكمة . ولكن المجتمعين فى حالة خسوف وقت كتابة هذه السطور . فالصين رزحت تحت السيطرة الشيوعية ووقعت اليابان تحت السيطرة الأمريكية . وكان المجتمعان كلاهما - يواجهان مشكلة تضخم السكان .

سابعاً : خصائص التلاقى بين الغرب الحديث والمجتمعات المعاصرة له :

إن الحضارة الغربية الحديثة ، هى حضارة « طبقة متوسطة » . ولقد رحبت المجتمعات الغير الغربية التى نمت طبقها المتوسطة فيها ، بالطابع الغربى الحديث . فإن رغب حاكم حضارة غير غربية لايضم مجتمعه طبقة متوسطة وطنية أن يصبغ بلاده بالصبغة الغربية ، فإن عليه أن يصطنع تحقيقاً لغرضه ، طبقة متوسطة فى شكل طبقة مثقفة . وهذه الطبقات المثقفة ، تنقلب فى النهاية على سادتها .



( ب ) التلاقى مع مسيحية الغرب الوسيط :

أولاً : مد الحروب الصليبية وجزرها :

دخلت المسيحية الغربية فى القرون الوسطى ، حُقبَة من التوسع فى القرن الحادى عشر : وتلتها فترة من الأقوال ثم الارتداد على بعض الحدود دون أخرى ، بعد ذلك بقرنين ؛

ويحلل المؤلف عوامل هذا الامتداد ، وما تلاه من إرتداد :

ثانياً : الغرب الوسيط والعالم السورى :

كان ثمة أوجه شبه مشتركة بين كثرة الصليبيين وخصومهم المسلمين ، فلقد كان « الفرنج » النورمنديون والسلاجقة الأتراك - كلاهما - فى سالف عهدهما برابرة اعتنقوا حديثا الدين الأسمى للمجتمع الذى انخرطوا فيه والذى سيطروا عليه من عدة وجوه . ولقد أثر إشعاع الحضارة السورية فى المجتمع المسيحى الغربى الأقل تقدما ، وبدا ذلك فى الشعر والعمارة ، وفى الفلسفة والعلوم :

ثالثاً : الغرب الوسيط والمسيحية اليونانية الأرثوذكسية :

قام بين هذين المجتمعين المسيحيين ، نفور أشد مما كان بين أى مجتمع منهما وبين جيرانه المسلمين . ويُظهر هذا النفور المتبادل فى اقتباسات من تقرير ليوتبراند الأسقف اللومباردى عن مهمته إلى القسطنطينية ، كما يظهر أيضاً فى الصورة التى رسمتها حنا كومنينيا - فى تاريخها - للصليبيين .

( ج ) التلاقى بين حضارات الجيلين الأولين :

أولاً : التلاقى مع الحضارة الملىنية فى عصر ما بعد الإسكندر :

تلاقى الحضارة الملىنية فى هذه الحقبة مع كل حضارة معاصرة لها فى العالم القديم ، ولكن النتائج التى ترتبت على الإشعاع الملىنى الذى أعقب

هذا التلاقى ، لم تثمر ثمرتها ، ولم تستكمل فاعليتها ، إلا بعد انقضاء بضعة قرون من تحلل المجتمع الهليني نفسه ؛ ولقد جاوز إنتشار الثقافة الهلينية فتوحات الجيوش الهلينية كثيراً ، مثال ذلك ، إنتشارها فى العالم الصينى \*  
 ويتميز عهد الإسكندر فى التاريخ الهلنى ، بتوسع تمكن مقارنته بشق المحيطات فى تاريخ المسيحية الغربية ؛ بيد أنه بينما كان الغرب - فى طوره الحديث - يحرر نفسه من عقيدته الدينية اليقعة ( أى المسيحية ) لم يكن لدى الحضارة الهلنية مثل هذه اليقعة ، ومن ثم عظم توقها للدين واشتد .  
 ثانياً : التلاقى مع الحضارة الهلنية فى عصر ما قبل الإسكندر :

كان ثمة صراع بين ثلاثة متنازعين فى سبيل السيطرة على حوض البحر المتوسط وهم : المجتمع الهلنى فى عصر ما قبل الإسكندر ، والمجتمع السورى ، وبقية متحجرة من المجتمع الحيى تتكون من الأتروريين . ولقد تبدى المجتمع السورى على السواء : فى قوة الفينيقيين البحرية ، وفى الإمبراطورية الإخمينية ، فى المراحل التالية من القصة . وقد ثبت أن أهم الفتوحات للثقافية هى صبغ روما بالصبغة الهلنية ؛ وقد تم هذا بطريق غير مباشر ، هو تحول الأتروريين أولاً إلى الثقافة الهلنية \*  
 ثالثاً : الشيلم والقمع :

إن النتائج الوحيدة المثمرة للتلاقى بين الحضارات ، هى ما يتم لإنجازه فى ظل السلام . وأورد المؤلف أمثلة لهذا من التلاقى بين الحضارات : للسندية والصينية والمصرية والسومرية .

## الفصل الثانى والثلاثون - مأساة التلاقى بين المتعاصرين

### ١ - ترابط التلاقى :

إن تحدياً من جانب واحد ، يقود - على الصعيد الحربى - إلى إحداث

تحد من الجانب الآخر ، ويواصل التحدى الأخير سيره ليصبح عدوانا ،  
يشير بدوره دفعا .

ويتبع المؤلف سلسلة من مظاهر التلاق بين « الشرق » و « الغرب »  
ابتداء من عدوان الإمبراطورية الإخمينية على اليونان ، حتى ردود فعل  
الشعوب الغير الغربية خلال القرن العشرين ضد الاستعمار الغربى .

## ٢ - اختلافات الإستجابات :

ليست الإستجابة الحربية ، بالاستجابة الوحيدة المتاحة : ومصداقا  
لذلك ، تعزز روسيا الشيوعية أسلحتها بالحرب الأيديولوجية . وحينما تتعذر  
الإستجابة الحربية أو تفشل تجربتها ؛ تُحدث الشعوب المغزوة رد فعل  
بوساطة الاحتفاظ بذاتيتها كجماعات . ويتم ذلك عن طريق إستنابات دينها  
إستنباتا كثيفا . ويطالعا المثال التقليدى عن تلك الإستجابة المتمثلة فى  
اليهود منذ تشتتهم .

وتتمثل الإستجابة السامية ، فى إيجاد دين أعظم سموأ يأسر إليه أسريه  
على طول المدى .

## الفصل الثالث والثلاثون - نتائج التلاق بين المتعاصرين

### ١ - أعقاب الاعتداءات الفاشلة :

قد يترتب عن النجاح فى صد العدوان ، إشاعة النزعة الحربية فى  
المنتصر ، بما يتلو ذلك فى النهاية من نتائج جاثمة .

ومصداقا لذلك ؛ قاد انتصار اليونانيين على المعتدى الإخمينى إلى انهيار  
الحضارة الهلينية فى خلال خمسين سنة .

### ٢ - فى أعقاب الإعتداءات الناجحة :

#### ( ١ ) تأثيرات تصيب الكيان الاجتماعى :

يعتدل الثمن الاجتماعى الذى يقتضى الحضارة - التى وفقت فى عدوانها -

أداءه ، في تسرب ثقافة ضحايا الغرباء إلى مجرى حياتها ذاته ؛ ويشابه ذلك في تأثيره على ضحايا العدوان ، ولكن مع زيادة في التعقيد . ويطالعا في هذا الشأن أن إدخال المثل والنظم الغربية على المجتمعات الغير الغربية ، غالبا ما يُنتج نتائج محيرة : ذلك لأن ما هو طعام لشخص ، قد يكون سمّاً لآخر . والواقع أن الفشل هو مصير محاولة إدخال عنصر من عناصر ثقافة أجنبية ، مع إستبعاد بقية العناصر .

(ب) إستجابات النفس :

أولا : تجريد من صفات الإنسانية :

يستسلم المغير إلى الكبرياء المتعجرفة ، فيعتبر الشعوب المغزوة « كلابا نحاسرة » . وهكذا يتنكر لمبدأ أخوة الإنسان للإنسان . وعند ما يُعتبر « الكلب النحاسر » كافراً ، فإنه قد يستعيد منزلته البشرية بفضل « الهداية » . وعند ما يُنظر إليه على أنه « متبربر » ، قد يستعيد منزلته البشرية عن طريق اجتيازه إمتحانا . بيد أنه عند ما يُنظر إليه وفقاً للإصطلاح الشائع عند المستعمرين « وطنى » . عندئذ يفقد الأمل ، إذ يغدو عاجزاً عن تخلع سيده أو هدايته إلى عقيدته .

ثانياً - التزمت والمسايرة :

ويتضمن الاصطلاحان تمييزاً قريب المنال ، بين الأعراض عن طباع الفاتح وقبولها . بيد أن القيام بفحص أشد قربا ، يوحى إلى الذهن بأن التمييز ليس قريب المنال بالدرجة التى تظن في بداية الأمر :

ويفسر المؤلف هذه النقطة بدراسة اليابان الحديثة وبدراسة سيرتي غاندى ولينين .

ثالثاً - التبشير :

ويذكر المؤلف أن الانهزام الذاتى للمتمزتين والمساييرين الأصليين ، قد وقف حائلا ضد عمل القديس بولص للفد .

حاشية : آسيا وأوروبا - حقائق وأوهام ؛

تولد آسيا وأوروبا ، انتمين للسواحل البرية المقابلة التي تواجه الملاحين اليونانيين في رحلاتهم بين بحر إيجه والبحر الأسود . ولم يسفر إضفاء مغزى سياسى أو ثقافى على الاصطلاحين عن شىء سوى البلبلة إذ تعتبر أوروبا ، شبه قارة من قارة أوراسيا محددة تحديداً ميثاقاً ،

## الباب العاشر

الاتصال بين الحضارات : فى الزمن

### الفصل الرابع والثلاثون - عرض لحركات البعث

١ - تقديم - البعث :

يبين المؤلف أصل لفظ «البعث» ، ويشرح المعنى الوارد له فى هذه الدراسة .

٢ - بعث الآراء والنظم السياسية :

بدأت حركة البعث الإيطالية المتأخرة الوسيطة ، مبكرة وكان تأثيرها على المستوى السياسى ، أعظم وأطول مدى من تأثيرها على المستوى الأدبى أو الفنى . ويسوق المؤلف تأييداً لقوله الآراء عن : دول المدن ، الممالك العلمانية ، الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

ويذكر أن التتويج الكنسى يعتبر إحياءاً لأحد طقوس الكتاب المقدس (العهد القديم) .

٣ - بعث النظم القانونية :

يذكر المؤلف مظاهر إحياء القانون الرومانى فى المسيحية الأرثوذكسية الشرقية وفى المسيحية الغربية ؛ ونتائج ذلك على الكنيسة والدولة .

## ٤ - بعث المذاهب الفلسفية :

يُعتبر إحياء الفلسفة الكنفوشوسية الصينية في مجتمع الشرق الأقصى في الصين، وإحياء فلسفة أرسطوا الهلينية في مسيحية القرون الوسطى الغربية ؛ حديثين مماثلين من جملة وجوه . ولقد عاشت المدرسة الفلسفية الكنفوشوسية حتى تغلّبت عليها مداخلة المزاج الغربي الحديث في بداية القرن العشرين ، أما مدرسة أرسطو الفلسفية ، فقد تزعزعت دعائمها بفعل النهضة الأدبية الهلينية إبان القرن الخامس عشر . ثم تغلّبت عليها في نهاية الأمر ، حركة « باكون » العلمية ، إبان القرن السابع عشر .

## ٥ - بعث اللغات والمصنفات الأدبية :

قام نظام الأسر الحاكمة بدور كبير في تشجيع النهضات في هذا المجال ، ومن قبيل المثال ؛ قيام طائفة من الأباطرة الصينيين بجميع المكتبات الضخمة . ولقد كان لحركة البعث الإيطالية المتصلة بإحياء اللغات والآداب الهلينية ؛ سابقة عقيمة تمثلت في حركة الإحياء الكارولنجي التي لها بدورها جذور في حركة بعث حدثت في نورثمبريا .

ولا يتأتى لحركات البعث أن تنجح ؛ ما لم يبلغ المجتمع الذي يسعى إلى بعث شبح حضارة ميتة إلى الوجود ، المرحلة المناسبة من النمو تؤهله للقيام بالتنبؤ ، عن طريق تحضير أرواح الموتى :

## ٦ - بعث الفنون المرئية :

يورد المؤلف عدداً من الأمثلة إلى جانب المثال الغربي الشائع المعروف بـ « النهضة » . ويتبع المؤلف النهضة الأوروبية في العمارة والنحت والرسم ؛ وكانت النتيجة النهائية في هذه الميادين الثلاثة هي إصابة الأصالة بالعمى .

## ٧ - بعث النظم والمثُل العليا الدينية :

يناقش المؤلف الأزدراء الذي وقفته اليهودية لزام خليفاتها الظاهرة :

العقيدة المسيحية ، ثم يبحث موقف الكنيسة المسيحية المتقلقل الغامض تجاه المثُل اليهودية العليا المتصلة بالوحدانية ومناهضة التماثيل والصور .

واعتبر المؤلف نزعة « السبتية » وعبادة الكتاب المقدس عند البروتستانت — منذ القرن السادس عشر وما بعده — مثالا واضحا لهضة تنسم بالقوة والشعبية ، تهدف إلى إحياء اليهودية بين ظهراني الحضارة المسيحية الغربية .

## الباب الحادى عشر

### القانون والحرية فى التاريخ

#### الفصل الخامس والثلاثون — المشكلة

##### ١ — معنى القانون :

يفرق المؤلف بين « قانون الطبيعة » و « ناموس الله » .

##### ٢ — اعتناق المؤرخين الغربيين لنظرية القانون الإلهى :

لم يعد الرأى القائل بأن التاريخ يُفصح عن أعمال عناية إلهية — وهو الرأى المعول عليه حتى عصر بوسويه — موضع ثقة . بيد أن المشتغلين بالتعلم الذين حلّ قانونهم الطبيعى محل القانون الإلهى فى معظم نواحي البحث ؛ قد ألفوا أنفسهم مكرهين على ترك التاريخ فى حالة لا يحكمها قانون ، حيث يمكن توقع حدوث أى شىء ، من أى شىء آخر ، وهذا مارآه ا : ل ، فيشر :

## الفصل السادس والثلاثون - انقياد شؤون البشر لقانون الطبيعة

١ - عرض للدليل :

( ا ) شؤون الأفراد الخاصة :

تعتمد شركات التأمين على انتظام قابل للتقدير في الشؤون البشرية \*

( ب ) الشؤون الصناعية لمجتمع غربي حديث :

يجد الاقتصاديون أنفسهم قادرين على قياس أطوال موجات الدورات الاقتصادية والتجارة \*

( ج ) تنافس الدول الإقليمية : توازن القوى :

يشرح المؤلف التواتر المنتظم الظاهر ، لدورتي الحرب والسلام في تاريخ جملة من الحضارات المختلفة :

( د ) تحلل الحضارات :

يعرض المؤلف أمثلة على انتظام تعاقب الهزيمة والانتصار ، ويقدم تفسيرات له .

( هـ ) نمو الحضارات :

يذكر المؤلف انتهاء الانتظام الذي يمكن تتبعه في مراحل الانحلال والانهيار :

( و ) لا درع بقى من القدر :

يسوق المؤلف مزيداً من الأمثلة عن الانتظام الذي به ينتهي اتجاه تعترضه عقبات ، تارة عند نقطة ، وتارة عند نقطة أخرى ؛ إلى الفوز في بعض الأحيان \* :



## ٢ - لتفسيرات المحتملة لسريان قوانين الطبيعة في التاريخ :

قد تعزى الانتظامات التي عرفناها ، إما :

إلى أثر قوانين سارية في البيئة غير البشرية للإنسان .

أو إلى أثر قوانين سارية في البيئة غير البشرية للإنسان نفسه ؛

ويبحث المؤلف هذين الاحتمالين البديلين ، ويخلص من بحثه إلى القول بأن اعتماد الإنسان على القوانين ذات الطبيعة غير الإنسانية ، يتناقص مع تقدم الإنسان التكنولوجي . ويجد المؤلف لتعاقب الأجيال البشرية مغزى عظيماً . ويعتبر أن ثلاثة أجيال ، هي المعدل الزمني لبضعة أنواع من التغييرات في العادات الذهنية ،

ثم يستعرض المؤلف قوانين العقل الباطن الذي كان علماء النفس قد اكتشفوه أخيراً وقت كتابة هذه السطور ، باعتبارها مؤثراً في مجرى التاريخ .

## ٣ - هل قوانين الطبيعة الجارية في التاريخ حاسمة أو يمكن السيطرة عليها ؟

أما بالنسبة للقوانين ذات الطبيعة غير البشرية ؛ يعجز الإنسان عن تغييرها . لكن في استطاعته الانتفاع بها لتحقيق أغراضه . وأما بالنسبة للقوانين التي تؤثر في الطبيعة البشرية نفسها ؛ فأحرى أن تلتزم الإجابة بجانب الحذر . وستوقف النتيجة على صلوات الإنسان - لأعلى مجرد صلواته مع رفاقه من الناس وشخصه - ولكن على صلواته مع الرب مخلّصه

## الفصل السابع والثلاثون

### تمرّد - الطبيعة البشرية على قوانين الطبيعة

يفسر المؤلف هذا التمرّد بعدد من أمثلة التحدى والاستجابة ، فإن الإنسان إذ يجابه التحدى ، فإنه حر - في نطاق معين - في تغيير سير الاتجاه ؛

## الفصل الثامن والثلاثون - ناموس الله

لا يعيش الإنسان في ظل قانون الطبيعة وحده ، لكنه يعيش كذلك في ظل القانون الإلهي وهو ناموس الحرية الكاملة ؛

ويناقد المؤلف الآراء المتباينة عن طبيعة الرب وناموسه ؛

### الباب الثاني عشر

#### طوال الحضارة الغربية

## الفصل التاسع والثلاثون - الحاجة إلى هذا البحث

تميز هذا البحث بابتعاد المؤلف عن الرأي الذي اتخذته هاديا والذي التزمه حتى الآن ، طوال هذه الدراسة : ومدار الرأي : النظر إلى جميع الحضارات المعروفة للتاريخ نظرة إجمالية : ويرر هذا الإجراء الحقائق القائلة بأن المجتمع الغربى هو المجتمع الوحيد الباقى الذى لا تظهر عليه بوادر الانحلال جلية ؛ وأنه قد أصبح عالميا فى كثير من النواحي ، وأن طوالعه هى فى الواقع طوالع « عالم يصطبغ بصبغة غربية » .

## الفصل الأربعون - قصور الردود الأولية

لم يكن ثمة ما يرر الافتراض القائم على أسس شبه علمية مزيفة - بأنه لما كانت جميع الحضارات الأخرى قد فنيت أو أنها فى طريق الفناء - فإن الغرب مقيّض له كذلك سلوك نفس الطريق ؛

ويرى المؤلف أن ردئى الفعل المتسمين بالانفعال - مثل التفاؤل إبان عصر فيكتوريا والتشاؤم الذى بيديه مذهب شينجلر - يعتبران كلاهما دليلين يفتقران إلى الإقناع ؛

## الفصل الحادى والأربعون - فحوى تاريخ الحضارة

### ١ - التجارب الغربية مع الحضارات الغير الغربية السابقة :

ترى ما هو الضياء الذى تلقيه دراستنا السابقة عن الانهيارات والانحلالات على مشكلتنا الحاضرة ؟

لقد لاحظنا أن الحرب والنزعة العسكرية ، تعتبران أشد الأسباب تأثيراً فى إنهيار المجتمع ؛ وأن الغرب قد فشل حتى الآن فى مصارعة هذا الداء ؛ على أنه من الناحية الأخرى ؛ قد حقق أسباب نجاح لم يسبق لها مثيل فى اتجاهات أخرى مثل إلغاء الرق وارتقاء الديمقراطية والتعليم .

ويبدى الغرب كذلك انقساماً مشثوماً إلى أقلية مهيمنة وبروليتاريين : داخلية وخارجية . على أنه لا يعزب عن البال تحقيق أسباب نجاح ملحوظة فيما يتصل بمسيرة مشكلات تباين البروليتاريات الداخلية فى العالم الذى يصطبغ بالصبغة الغربية .

### ٢ - تجارب غربية فريدة :

إن سيطرة الإنسان على الطبيعة غير البشرية ، وسرعة التغير الاجتماعى المتزايدة ، لانظير لهما فى تواريخ الحضارات السابقة . ويسوق المؤلف منهاج الفصول التالية .

## الفصل الثانى والأربعون

### التكنولوجية والحرب والحكومة

#### ١ - احتمالات حرب عالمية ثالثة :

يناقش المؤلف السمات الأساسية للولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى ، وموقف بقية الجنس البشرى تجاه كل منهما .

## ٢ - نحو نظام عالمي للمستقبل :

يقارن المؤلف بين مصائر الجنس البشري ومصائر طوف « هايردال المدعو كوتيككي » وهو يقترّب من الصخور . ويرى أن لا مناص من أن يكون نظام عالم المستقبل شيئاً مختلفاً تماماً عن منظمة الأمم المتحدة الحاضرة . ويناقش المؤلف وضع الأمة الأمريكية وهل تتوفر فيها المؤهلات اللازمة لتولي الزعامة .

## الفصل الثالث والأربعون - التكنولوجيا والصراع الطبقي والعمالة

## ١ - طبيعة المشكلة :

قادت انتصارات التكنولوجيا الحديثة إلى طلب لم يسبق له مثيل على « التحرر من الحاجة » . ولكن ، هل البشرية على استعداد لأن تؤدي الثمن اللازم لإجابة هذا الطلب ؟

## ٢ - تأثير استخدام الآلات على المشروع الخاص :

أدت التكنولوجيا الحديثة إلى شيوع نظام آلات التشغيل أو تجنيد ، لا العمال اليدويين فحسب ؛ ولكن كذلك مخدوميهم ( التأميم : الخ ) من موظفي الإدارة الحكومية ( الوثائق الرسمية ) ، وكذلك تجنيد السياسيين ( النظام الحزبي ) . ولقد تطلبت الهيئات التي تمثل مقاومة العمال ( مثل اتحادات النقابات العمالية ) مزيداً من التجنيد . ومن الناحية الأخرى ، فإن رجال الثورة الصناعية ، قد برزوا من مجتمع غير مجند .

## ٣ - محاولات بديلة لتحقيق التوافق الاجتماعي :

يتناول المؤلف أساليب الدراسة الأمريكية والروسية والأوروبية الغربية - لاسيما البريطانية - بالتحليل والمقارنة .

### ٤ - الأعباء المتوقعة للعدالة الاجتماعية :

إن الحياة الاجتماعية مستحيلة دون قدر معين من الحرية الشخصية والعدالة الاجتماعية على السواء ، وتعمل التكنولوجيا على إمالة كفة الميزان نحو العدالة الاجتماعية .

وفي عصر تم فيه إنقاص نسبة الوفيات بفضل الطب الوقائي ، ماذا تكون عواقب الحرية غير المنظمة من حيث زيادة الجنس البشرى ؟  
 يناقش المؤلف احتمالات حدوث مجاعة كبرى على مر الأيام ، والمنازعات التي يبدو احتمال تولدها عن ذلك .

### ٥ - هل يمكن كفالة السعادة الدائمة ؟ :

لنفترض أن المجتمع العالمي قد وجد حلاً موفقاً لجميع هذه المشكلات ؛ فهل يقيض للجنس البشرى أن يحيا بعد ذلك حياة سعيدة دائمة ؟  
 « هذا ما لن يتحقق : لأن كل طفل يفد إلى هذا العالم يحمل معه الخطيئة الأزلية ، مرة أخرى » .

## الباب الثالث عشر

### الخاتمة

الفصل الرابع والأربعون - كيف قُدر لهذا الكتاب أن يكتب

ولد الكاتب خلال العصر الفيكتوري المتأخر الذي سادته روح التفاؤل ، وجابهته الحرب العالمية الأولى في مطلع رجولته « فكان أن أخذته الدهشة أمام أوجه التشبه بين تجربة المجتمع الذي يعيش فيه ، وتجارب المجتمع الهليني » .

تلك التجارب التي كانت الركن الأساسى فى تعليمه • وهذا أثار فى ذهنه  
السؤالين التاليين :

لماذا تموت الحضارات ؟

هل بقاء تمدن للغرب الحديث أن يلقى مصير الحضارة المملينية ؟

ونتيجة لذلك ؛ امتدت أبحاثه لتشمل إنهيارات الحضارات الأخرى  
المعروفة وانحلالها ، باعتبارها دليلاً آخر يلقى ضوءاً على سؤاليه •

وأخيراً تابع المؤلف بحثه عن أصول الحضارات ونموها ؛

وهكذا ؛ تمت كتابة هذه الدراسة للتاريخ •

## تصويب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
الحظر	الحظر	١٨	٦٥
يعتقوا	يعملوا	١٧	١٠١
قبيل	قبيل	٨	١٠٧
( تشطب )	، وحتى يتكون	٢٢	١١٢
تُقَدِّمُ	تُقَمِّمُ	١	١٢٦
الملون	المون	٢٠	١٣١
بقاع	البئاع	٧	١٣٩
بالشيء الحديد	بالشيء الحديد المملكة فيكتوريا	٥	١٦٠
يعنى	يعنى	٤	١٦٢
بين	من	١١	١٧٦
فكتنى	تكتنى	١٠	١٧٨
الأول	الأولى	١	١٨٠
الحكومة	الحكومية	٢	١٨٢
تأدية	أن	٤	١٨٣
برج	برج	٦	١٨٦
كما لو أن	كما أن	١٠	١٨٦
تذهب	تذهب	٤	١٨٨
المتأصلة	المتصلة	٤	١٨٨
الشعب	الشعب	١٥	١٩٢
يكن	يكل	١٩	١٩٤
المكايبة	المكايبة	٨	١٩٨
عالة	عمالة	٨	٢٠١
العليا	العالية	٩	٢٠٩
ما درستا	مارستا	١١	٢١٠
العليا	العالية	٩	٢١٢

## فهرس

### الجزء الرابع من « مختصر دراسة للتاريخ »

المرسوع	صفحة
مقدمة : فلسفة التاريخ عند توينبي	٧

### الباب العاشر

#### الاتصال بين الحضارات في الزمن

الفصل الرابع والثلاثون - عرض لحركات البعث	٢٩
١ - تقديم - البعث	٢٩
٢ - بعث الآراء والنظم السياسية	٣٢
٣ - بعث النظم القانونية	٣٥
٤ - بعث المدارس الفلسفية	٤١
٥ - بعث اللغات والمصنفات الأدبية	٤٦
٦ - بعث الفنون المرتبة	٥٥
٧ - بعث النظم والمثل العليا الدينية	٥٩

### الباب الحادى عشر

#### القانون والحرية في التاريخ

الفصل الخامس والثلاثون - المشكلة	٧١
١ - معنى القانون	٧١
٢ - اعتناق المؤرخين الغربيين لنظرية القانون الإلهى	٧٤
الفصل السادس والثلاثون - انقياد شئون البشر لقانون الطبيعة	٨٤
١ - عرض للدليل	٨٤



الموضوع	صفحة
١ - شئون الأفراد الخاصة	٨٤
ب- الشئون الصناعية لمجتمع غربي حديث	٨٥
ج- تنافس الدول الإقليمية ( توازن القوى )	٨٧
د- تحلل الحضارات	٩٢
هـ - نمو الحضارات	٩٤
و - لا درع يقي من القدر	٩٨
٢ - التفسيرات المحتملة لسريان قوانين الطبيعة في التاريخ	١٠٥
٣ - هل قوانين الطبيعة الجارية في التاريخ : حاسمة أو يمكن السيطرة عليها ؟	١٢١
الفصل السابع والثلاثون - تمرد الطبيعة البشرية على قوانين الطبيعة	١٢٩
الفصل الثامن والثلاثون - ناموس الله	١٤٠

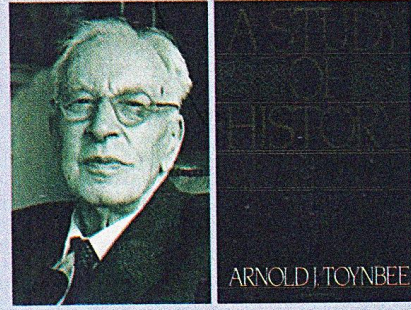
## الباب الثاني عشر

طوال الحضارة الغربية	١٤٧
الفصل التاسع والثلاثون - الحاجة إلى هذا البحث	١٤٩
الفصل الأربعون - تصور الردود الأولية	١٤٩
الفصل الحادى والأربعون - فحوى تاريخ الحضارات	١٦٤
١ - التجارب الغربية مع الحضارات الغير الغربية السابقة	١٦٤
٢ - تجارب غربية فريدة	١٧٩
الفصل الثانى والأربعون - التكنولوجيا والحرب والحكومة	١٨٢
١ - احتمالات حرب ثالثة	١٨٢
٢ - نحو نظام عالمى للمستقبل	١٩١
الفصل الثالث والأربعون - التكنولوجيا والصراع الطبقي والعمالة	٢٠٢
١ - طبيعة المشكلة	٢٠٢
٢ - تأثير استخدام الآلات على المشروع الخاص	٢٠٤
٣ - محاولات بديلة لتحقيق التوافق الاجتماعى	٢١٢
٤ - الأعباء المتوقعة للمدالة الاجتماعية	٢١٦
٥ - هل تمكن كفاالة السعادة الدائمة ؟	٢٢٣

## الباب الثالث عشر

## الخاتمة

٢٣٣	الفصل الرابع والأربعون - كيف قُدِّرَ لهذا الكتاب أن يُكتَبَ
٢٤٣	جداول تفسيرية
٢٥١	سياق الاستدلال
٣٢٠	تصويب



يذهب توينبي في هذا الكتاب إلى أن دراسة التاريخ تعنى - فى حقيقتها - دراسة المجتمعات أو الحضارات، وهو يقسمها إلى إحدى وعشرين حضارة اندرس معظمها ولم يتبق منها فى زماننا الذى نعيشه سوى خمس حضارات هى المسيحية الغربية، والمسيحية الأرثوذكسية، والإسلامية، والهندية، والشرق الأقصى، ثم مخلفات حضارات متحجرة غير معينة الشخصية كاليهودية. يدور الكتاب حول ثلاثة محاور: انبعاث الحضارات، وارتقاء الحضارات، وانهايار الحضارات.

بخصوص انبعاث حضارة ما فإن توينبي يصدف عن الفكرة التى تذهب إلى تفوق عرق ما وتفرد به بصنع الحضارة فالأعراق - فى معظمها- ساهمت فى صنع الحضارات وفى تقدمها، كما أنه يصدف عن البيئة الجغرافية كعامل أهم فى انبعاث الحضارة.

ويرى توينبي أنه بين إحدى وعشرين حضارة هناك خمس عشرة حضارة تتصل بصلات البنوة بحضارات سابقة عليها؛ فالحضارة الإسلامية- على سبيل المثال - هى محصلة اندماج حضارتين كانتا متميزتين فى الأصل هما الإيرانية والعربية وهما - معا - ترجعان إلى حضارة مندرسة هى الحضارة السورية التى تتفرع بدورها من الحضارة السومرية.